هرمان مولّ

ميخائيل ليپمان

سمسار الموت

فضيحة ايران ـ غيت من الداخل



دار الحمراء

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٩١



رأس بيروت، شارع الكويت، بناية مكارم، الطابق الخامس، تلفون: ٨٠١٦٨٨

هرمان مولّ

ميخائيل ليپمان

سمسار الموت

فضيحة ايران ـ غيت من الداخل



كلمة تقديم

هـذا الكتـاب وقصّتـه

هيرمان مولّ **Moll**، تاجر سلاح شاب من مواليد مدينة كولونيا في المانيا الغربية (١٩٥٦/٩/٢٢)، وينتمي أبواه إلى الطبقة الوسطى. خدم عسكريته في الجيش الألماني الغربي، وبعد تسريحه من الخدمة انتقل إلى لندن في أواخر السبعينات واستقر هناك، وأخذ يتعاطى تجارة الأسلحة واللوازم العسكريّة، من عتاد ومعدّات وتجهيزات.

وسرعان ما تورّط مولّ بصورة مباشرة في الصفقات التي أسفرت عن فضيحة **«ايران ـ غيت»**. ففي شهر نيسان (ابريل) ١٩٨٦ تمَّ استدراجه في مكيدة إلى نيويورك حيث قبضت عليه الشرطة الأميركيّة وزجّت به في السجن. لقد أمضى هِرمان مولّ ـ **سمســار المـوت** ـ ستة شهور ونصف الشهر في السجن الأميركي بانتظار المثول أمام المحكمة بتهمة متعلّقة ببيع الأسلحة غير المشروع إلى وسطاء ايرانيين. وبقي قيد التوقيف والاحتجاز طيلة عشرة شهور.

يروي مولّ في هذا الكتاب قصّة الصفقات التي تحولّت إلى فضيحة **ايران ـ غيت** من زاويته الشخصيّة، فلا يفوته التنويه بدور مجلّة **«الشراع»** اللبنانيّة في الكشف عن الدور الأميركي البارز من خلال محاولات إبرام صفقات السلاح مقابل الافراج عن الرهائن ـ وتوسيط العملاء الاسرائيليين لإتمام الجانب التنفيذي من الصفقة.

أما الصحافي ميخائيل ليپمان، فهو كاتب القصّة عن سمسار الموت ومحرّرها. يعيش في لندن ويعمل في الحقل الصحفي. نال عدّة جوائز في ميدان عمله، وألّف عدّة كتب حظيت بالثناء والتقدير.

* * *

لماذا نهتمّ بنشر هذه «الاعترافات» التي أدلى بها أحد سماسرة الموت وتجّار السلاح من «المتورطين» في فضيحة **ايران ـ غيت** والمشاركين الفعليين في إبرام وإتمام صفقات الأسلحة «الأميركيّة» إلى ايران؟

ربما كان الظرف الحالي غير ملائم للتركيز على الطرف المشتري. فضلاً عن كون الكتاب يركّز على الأطراف الأخرى الضالعة والمتورّطة في صفقات البيع والشراء وفي أساليب العمل والترويج وانتزاع العقود وتزوير شهادات المنشأ. لكن قصّة هرمان مولّ تكشف عن الدور الأميركي والاسرائيلي في محاولة الاستئثار بحصّة الأسد من تلك الصفقات الضخمة والمساومة على قضيّة الرهائن، ثم التنصّل من التورّط وإبراز مسألة الحظر المفروض على بيع السلاح الأميركي إلى طهران.

فالإدارة الأميركيّة كانت منذ البداية متورّطة وغارقة حتى أذنيها في فضيحة **ايران ـ غيت**، والأداة الاسرائيلية استخدمت كطرف ثالث وقناة سالكة لها مصلحة في ممارسة دور الوسيط، بقصد توفير مجال التنصّل على الصعيد الرسمي الأميركي وتعزيز «الاحراج» لدى الطرف المشتري حتى يسهل إتهامه بالتعامل مع الكيان الصهيوني. حقاً، لقد لعبت الادارة الأميركية دور «الشيطان الأكبر» في توريط تجّار صغار في صفقات بيع الأسلحة لكي تصفهم المحاكم الأميركية بـ «سماسرة الموت».

وإلى جانب اللمسات الشخصيّة في قصّة مولّ تطالعنا فضيحة **ايران ـ غيت** بأبعادها الكاملة وشخصياتها الرئيسيّة والأجهزة الرسميّة العاملة في الخفاء، والقنوات المستترة: من استراق السمع والتنصّت على المكالمات الهاتفيّة إلى المكائد والمؤامرات والأخاديع ومحاولات التمويه.

* * *

هذا هو عالم «تجارة الموت»، حيث يبدو السماسرة أقزاماً حيال جبروت الدول الكبرى وصنائعها. وللقارىء ان يميّز بنفسه ويصدر حكمه على مسؤوليته. فالكتاب جدير بالقراءة. ويكشف ملابسات فضيحة ايران ـ غيت من الداخل. ويسلّط الضوء على الدور الصهيوني ـ الاسرائيلي البارز والحاسم في كافة مراحل صفقات ايران ـ غيت.

بيروت ١١ شباط (فبراير) ١٩٩١

دار الحمـراء

العنوان الأصلي لهذا الكتاب

Hermann Moll

with Michael Leapman

BROKER OF DEATH

An Insider's Story of
the Iranian Arms Deals

Macmillan, London: 1988.

نقله إلى العربية

فـواز خـوري

سلسلة الشخصيات الرئيسية
فضيحة ايران - غيت

افراهام، بارعام: جنرال اسرائيلي متقاعد، يحمل رسالة تخوّله العمل في مجال بيع معدات عسكرية اسرائيلية، كان من ضمن المجموعة التي ألقي القبض عليها برفقة سام ايفانز في برمودا.

بيهن، هانز: متّهم. الماني من اصحاب السفن العاملة في الشحن، على علاقة مع نيكوس ميناردوس، جند كوبكا للعمل في المشروع. أوقف في نيويورك بعد يوم واحد من توقيف البقية منا. بقيت برفقته في كونكتيكت بعد الافراج عني.

برينيكه، ريتشارد: رجل اعمل من ولاية اوريغون معروف بصلاته الواسعة، شريك «دو لا روك» الذي حاول ابلاغ مسؤولي البيت الأبيض، بمن فيهم، نائب الرئيس آنذاك، جورج بوش، بالصفقة بين ايفانز وهاشمي، ولكنه لم يثر اهتمامهم.

بوش، جورج: نائب الرئيس الاميركي آنذاك ورئيس سابق لوكالة الاستخبارات المركزية. لم يكشف ما يعرفه عن عملية ايران / كونترا ابداً. اذا صدقت رواية فيللو ودو لا روك فانه كان في صميم القضية. الرئيس الأميركي حالياً.

كاسي، وليام: رئيس وكالة الاستخبارات المركزية منذ ١٩٨١ حتى استقالته في شباط، ١٩٨٧. توفي في ايار، ١٩٨٧. صديق قديم لروي فيرمارك... الرجل الذي عرّف سام ايفانز على سيروس هاشمي.

دو لا روك، جون: شخصية غامضة، ادّعى، مع برنارد فيللو، ان بامكانه تأمين كميات كبيرة من الأسلحة الاميركية، وكان يتحدث لسام ايفانز عن صفقات ايران غيت قبل كشفها بوقت طويل، ولهذا يبدو ان له صلات قوية مع الإدارة الاميركية. قد يكون عميلاً لوكالة الاستخبارات المركزيّة.

دويل، دنيس: عميل جمركي اميركي، عمل تحت امرة جو كينغ الذي كان له دور فعّال في الايقاع بي واعتقالي.

آيزنبرغ، اسرائيل وغوري: متّهمان. من سماسرة التأمين الاسرائيليين. كانا من ضمن المجموعة التي اوقفت في برمودا في ٢٢ نيسان، ١٩٨٦.

ايفانز، سام: متهم. محامي اميركي يعمل في لندن. ورّطني في المشروع عندما عرّفني على هاشمي. اوقف في برمودا بعد يوم واحد من توقيفي في نيويورك. اطلق سراحه بكفالة مثلي، بانتظار المحاكمة، وهو احد المحامين العاملين في مجال الدفاع عن عدنان خاشقجي.

فليرموي، البرت: متهم. رجل بريطاني في الستين من عمره، يملك سلسلة من صالونات الحلاقة النسائية، قام بانجاز صفقات اسلحة مع روديسيا اثناء الحظر البريطاني. اوقف مع كوبكا قبلي بساعات.

فورمارك، روي: رجل اعمال من نيويورك، زبون سابق لسام ايفانز، ساعد في اطلاق العملية بتعريف سام على هاشمي. بنى علاقة مع عدنان خاشقجي من خلال سام، ومن خلال خاشقجي، تورّط في صفقات نورث. كصديق قديم لوليام كاسي، رئيس **السي آي إيه**، امّن فورمارك الحلقة القوية بين قضيتنا وعملية ايران / كونترا.

غوربانيفار، مانوشهر: تاجر سلاح، عمل كضابط ارتباط مع الإيرانيين في صفقات ايران / كونترا التي اجراها الكولونيل نورث. التقى سام ايفانز في هامبورغ، في حزيران ١٩٨٥.

جيولياني، رودولف: المدعي العام لمقاطعة نيويورك الجنوبية، ساعد في نصب الفخ لنا، ومكتبه يتولى الادّعاء في القضية. له طموحات سياسية، وكان يظن ان استمراره في القضية سيؤمن له بعض المكاسب، حتى بعد ان تبين ان كشف ملابسات ايران غيت قد قوّض اساساتها.

هاشمي، سايروس: مصرفي وتاجر سلاح، قريب لرئيس البرلمان الايراني، شخصية رئيسية في المكيدة التي اوقعت بي مع ستة عشر شخصاً آخرين. لعب دوراً في محاولات اطلاق الرهائن الاميركيين الذين احتجزوا في ايران في العام ١٩٨٠. توفي بطريقة غامضة في لندن في تموز ١٩٨٦.

هاشمي، محمد علي (جمشيد): شقيق سايروس وشريكه السابق في صفقات الأسلحة. مقره لندن. أدين مع شقيقه في نيويورك في العام ١٩٨٤. يعتقد جازماً ان سايروس مات قتلاً.

خاشقجي، عدنان: تاجر سلاح ورجل اعمال سعودي. كان في وقت من الأوقات من اصحاب المليارات، ولكنه عانى مؤخراً من صعوبات مالية. موّل صفقة نورث / غوربانيفار للاسلحة ـ مقابل ـ الرهائن.

كيمحي، دافيد: مدير الخارجية الإسرائيلية السابق. شجّع صفقة السلاح التي كان يتفاوض عليها سام ايفانز ونورث.

كينغ، جو: عميل للجمارك الاميركية في نيويورك، ساعد في اعداد المكيدة وكان قد ادّعى انه شريك هاشمي اثناء بعض الاجتماعات التي حضرها مع ايفانز وآخرين.

كوبكا، رالف: متهم. رجل اعمال الماني، جنّده فليرموي في الصفقة. تمّ توقيفهما سوية في نيويورك في ٢١ نيسان، ١٩٨٦.

لافي، هوشانج: عميل للمخابرات المركزية من مواليد ايران. لعب دوراً ثانوياً في المكيدة. ادّعى ان جوكينغ، عميل الجمارك الاميركية، ابلغه في نيويورك «باننا تخلصنا» من هاشمي بقتله.

ماكفرلين، روبرت: مستشار الرئيس ريغان في شؤون الأمن القومي: من تشرين الأول، ١٩٨٣ حتى تشرين الثاني، ١٩٨٥. وافق على اتصالات نورث الأولية مع ايران وذهب في مهمة سرية إلى ايران في ايار، ١٩٨٦ لمتابعة الحوار حول صفقة السلاح ـ مقابل ـ الرهائن.

ميز، ادوارد (الثالث): تحمّل، بصفته مدعياً عاماً، المسؤولية الكاملة في الاجراءات القانونية المتعلقة بنا وبالمكيدة التي ادّت إليها. كان على اطلاع دائم على صفقات اوليفر نورث ـ وهكذا كان يعرف بان اتهامنا تم بموجب قانون كان البيت الأبيض ينتهكه، مع انه انكر امام المحكمة معرفته بهذه الصفقات.

ميناردوس، نيكوس: متهم. مواطن اميركي من مواليد اليونان ويعيش في كاليفورنيا. كان يشتغل في التمثيل بعضاً من وقته كما كان مسبّع الكارات. تعرّف على سام ايفانز من خلال بعض الأعمال التي قام بها مع خاشقجي.

نورث، العقيد اوليفر: عندما كان عضواً في لجنة الأمن القومي، كان المشتغل الرئيسي في صفقات ايران / كونترا. طرد من اللجنة بعد انكشاف تفاصيل الصفقات.

نورثروب، وليام: متهم. اميركي يعيش في اسرائيل. ادعى انه من عائلة نورثروب الشهيرة في صناعة الطائرات. كان واحداً من المجموعة الإسرائيلية التي تم القاء القبض عليها في برمودا مع سام ايفانز في ٢٢ نيسان، ١٩٨٦.

بوينت دكستر، العميد جون: خَلَفَ ماكفرلين كمستشار في شؤون الأمن القومي في كانون الأول ١٩٨٥. وافق على صفقات ايران / كونترا واعطى الضوء الأخضر لبدئها. استقال في كانون الأول ١٩٨٦.

رفسنجاني، هاشمي: رئيس البرلمان الإيراني آنذاك ـ احد اهم مراكز القوى في ايران. ابن عم سايروس هاشمي.

ريغان، رونالد: رئيس الولايات المتحدة الاميركية، ١٩٨١ ـ ١٩٨٨. ممثل سينمائي سابق. وافق على صفقات الأسلحة ـ مقابل ـ الرهائن التي ابرمها اوليفر نورث مع ايران. رولاند، «الصغير»: رئيس الشركة الدولية، «لورنهو». اتصل به خاشقجي لتمويل صفقات نورث / غوربانيفار.

ساند، ليونارد: القاضي الاتحادي الذي رأس المحاكمات.

شوفيلد، لورنا: مساعدة مدعي عام، مسؤولة عن متابعة اجراءات قضيتنا على اساس يومي.

شولتز، جورج: وزير الخارجية في عهد ريغان، كان يعرف عن صفقات الأسلحة ـ مقابل ـ الرهائن، ولكنه كان ينصح باستمرار بعدم اجرائها.

فيبللو، برنارد: شريك دو لا روك. عرض على هاشمي، بواسطة سام، ٣٩ طائرة من طراز ف ـ ٤ إي، يجري تسليمها مباشرة من الولايات المتحدة. عميل للمخابرات المركزية يملك معلومات وافرة عن سياسة الولايات المتحدة السرية تجاه ايران.

فون راب، وليام: مفوض في دائرة الجمارك الاميركية. قام مكتبه باعداد المكيدة، وهو الذي استعمل تعبير «سماسرة الموت» لأول مرة في وصف المتهمين، في اليوم التالي لتوقيفنا.

واينبرغر، كاسبار: وزير الدفاع الاميركي. عارض، مثل شولتز، صفقات ايران / كونترا. استقال في تشرين الثاني ١٩٨٧.

الفصل الأول

مكيدة في الجادّة الأولى

بدت نيويورك مناسبة حتى هذا الوقت، بالرغم من ان الحكم عليها قد يكون مبكراً بعد ثلاث ساعات فقط. كانت هذه زيارتي الأولى، ولم اكن بكل امانة، راغباً في المجيء. ولكنني لم استطع مقاومة الإثارة في المنظر الذي كنت اراه من النافذة قرب المكان الذي جلست فيه، مساءً، في أعلى بار «التاور» في الدور الأعلى من فندق «بيكمان تاور» في الجادة الأولى. كان المنظر نفسه الذي تراه في الأفلام السينمائية أو على شاشة التلفزيون: إلى يميني هناك غابة من النباتات العالية تمتد باتجاه بقعة من الاضواء الساطعة: انها كما افترضت، برودواي ومنطقة التسلية. كان معيباً ان لا يَسمح لي برنامج الزيارة المزدحم بتذوق بعضها، فأنا، منذ سنيّ المراهقة في المانيا، كنت خبيراً في البارات والمتع التي تقدمها، ولكن، كان علي ان اعود إلى موطني الثاني، لندن في مساء اليوم التالي. هناك اعمال هامّة عليّ انهاؤها، وبالاضافة إلى ان صديقتي نْوا كانت تتوقّعني، وربما استطعت في المرة القادمة ان امضي وقتاً اطول هنا.

في مواجهتي ارتفعت ناطحة سحاب حددت معالمها بوضوح الأضواء المشعة. انها مبنى مكاتب الأمم المتحدة، رمز نوايا الانسان الحسنة في محاولته اقامة السلام والعدل في العالم. لم يكن هنا أي دليل على نجاحها ـ لحسن حظّي، لأنها لو نجحت لكنت بلا عمل. وكان من السخرية، كما فكرت في تلك اللحظة، ان تكون مدينة فاسدة لهذه الدرجة مقراً لمؤسسة بهذه المثالية. في الواقع كان المظهر غير القانوني للحياة في نيويورك أحد أهم الأسباب التي اتت بي إلى هذا المكان، حيث اجلس وحيداً بجانب نافذة، في حوالي العاشرة والربع من مساء الاثنين ٢١ نيسان، ١٩٨٦ ارتشف اول كأس من الجن والصودا، منذ ساعات، والتي ادت إلى ما حدث فيما بعد.

احبّ في العادة السفر إلى اماكن جديدة، وبالاخص إلى المدن الكبيرة: وكلما كانت المدينة اكبر، كلّما كان ذلك افضل. انه احد حسنات العمل الذي كنت امارسه منذ اربع سنوات، والذي كنت قد بدأت اكتسب فيه شهرة عالمية ـ والاهم، في تحقيق مداخيل مالية جيدة. فأنا مورّد حرّ للمعدات العسكرية، أو ما يسمى عادة: **تاجر سلاح**، ولقد تم اقناعي بالمجيء إلى نيويوك لليلة واحدة، رغم ان الوقت لم يكن مناسباً، لإنهاء صفقة كانت تغلي على نار خفيفة لستة اشهر، وستكون اكبر صفقة في كل حياتي: تتضمن طائرات ودبابات وصواريخ بقيمة ٣٢٠ مليون دولار اميركي. كان العميل، كأكثر صفقات السلاح الأكبر حجماً خلال الثمانينات، هو ايران التي كانت تواجه صعوبات في الحصول على اسلحة بوسائط تقليدية منذ ثورة آية الله الخميني التي اطاحت بالشاه في كانون الثاني،

١٩٧٩ . كنت اتعامل مع رجل مصارف ايراني، يحيط به بعض الغموض، يدعى سايروس (قورش) هاشمي، احد اقرباء هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس الشورى الايراني آنذاك. تعرفت على هاشمي بواسطة سام ايفانز، وهو محامٍ اميركي له اتصالات واسعة، التقيت به في لندن، وكان ايفانز يفاخر بأن من بين عملائه، رجل الاعمال العالمي الشهير، عدنان خاشقجي.

كان هاشمي قد اتخذ لندن مقراً له، ومن المفروض الا اضطّر للسفر إلى نيويورك لابرام الصفقة. لكن الحصول على دفعة اولى واجه بعض المصاعب، ولم يكن في الأمر شيء غير عادي. كنت في هذا الوقت قد نسيت عدد الصفقات التي بدأتها، ثم فشلت عندما وصل وقت الدفع، كما يستطيع ايّ كان ان يخبرك انها احدى مخاطر العمل، لأنك اذا استطعت ان تنهي عُشر الصفقات التي تبدأها، فأنت الرابح. ولكن عليك ان تتابع العملية حتى تلك النقطة، لأنك لا تدري ايّها ستنجح. انها تماماً كمحاولتك استدراج امرأة مغرية وصعبة: كلها ابتسامات وجنس وهي تقودك في البداية، ثم تنطفىء فجأة حين يأتي الوقت لممارسة الحب. عندما تنجح صفقة - مثلما تنجح محاولاتك مع المرأة - يعتريك شعور رائع.

كانت بعض الأمور الغريبة تحيط بالصفقة منذ البداية. اولها ان هاشمي كان مهتّماً بالمعدات الاميركية فقط، ولم يكن هناك مبرّر منطقي لذلك. صحيح ان الجيش الايراني كان يستخدم اسلحة اميركية في الماضي - كإرث منذ زمن العلاقات المتينة بين الشاه المخلوع والولايات المتحدة - ولكن الاصرار على هذه الأسلحة في هذا الوقت كان يبدو شاذاً، بالاخص وقد اعلنت اميركا حظراً على بيع الأسلحة لايران، متهمة النظام الثوري هناك بالتورط في الإرهاب الدولي. ومع انني كنت اعرف - كما عرف العالم لاحقاً - ان الحكومة الاميركية تقوم بانتهاك هذا الحظر بنفسها، لكن هذا الحظر كان يسبّب صعوبات للايرانيين في سوق السلاح الدولي، ولم يكونوا بوضعٍ من يحق له الاختيار.

اعلن هاشمي انه تم رصد مبلغ ٥٠٠ مليون دولار، ثمناً لمعدات اميركية، وان المبلغ مودع في «الكميكال بنك» في نيويورك، ولكنني لم استطع الحصول على أي اثبات رسمي بان المبلغ موجود بالفعل. كانت طريقة التعامل الطبيعية تقضي بان يرسل البنك الذي يمثل العميل رسالة بالتلكس إلى البنك الذي اتعامل معه - بنك الأمبرت في بروكسل - يثبت فيه ان المبلغ المتفق عليه متوفر في حساب خاصٍ: ولكن كميكال بنك لم يفعل. كل ما حدث ان احد كبار العاملين في البنك اتصل هاتفياً ببروكسل، ولكن المكالمات الهاتفية غير كافية لرجال المصارف، كانوا يريدون اثباتاً على الورق. اتصل بي هاشمي، هاتفياً، اكثر من عشر مرات ليقول لي بانني اذا أتيت إلى نيويورك ووقعت الصفقة فسيدفع لي مبلغ ١١٥ الف دولار نقداً، بالاضافة إلى اعتماد مصرفي بمبلغ مليون دولار ونصف. كان هذا جاذباً قوياً بعد اشهر من الانتظار القلق.

الأمر الثاني الذي اقلقني كان ان تحقيقاتي حول هاشمي افادت بان شقيقه يعاني

متاعب مع الشرطة في اميركا. (وكذلك هاشمي نفسه مع انني لم اكن اعرف آنذاك). هل كانت السلطات الاميركية تستخدم هاشمي طُعماً للايقاع بي؟ لقد قرأت عن قصص مشابهة ولكن الأمر لم يبد منطقياً، كما اكّد لي سام إيفانز بان هاشمي رجل يمكن الوثوق به، وعندما علّقت مرة بان «هذا الشخص يبدو غريباً» اجابني سام: «هذه هي طريقته، لقد عرفت الرجل منذ سنوات وهو شرعي».

كنت متأكدا بان البيت الأبيض قد بارك الصفقة، وان الأمر يجب ان يبقى طيّ الكتمان بسبب طبيعة الأوضاع، وبأي حال، من يمكن ان يرغب بالايقاع بي؟ كان تعاملي مع الاميركيين محدوداً جداً في الماضي وهذا سبب عدم زيارتي للولايات المتحدة قبلاً. مع هذا، وبينما كنت اشارك صديقاً عربياً الشراب في مقهى في لندن قبل سفري بأيام، اخبرته بالقصّة فقال لي: لديَّ شعور داخلي غريب حول هذه الصفقة، ولم اقرر السفر بعد ظهر اليوم الذي كان علي ان اسافر فيه. في الشهور التي تلت، كم تمنيت لو ان شكوكي كانت الغالبة.

ملأت حقيبة يدوية بكل ما احتاجه لليلة واحدة ـ عدة الحلاقة، فرشاة اسنان، ملابس للنوم وقميصاً اضافياً، ثم قدت سيارتي إلى محطة المدرج Terminal = مكان الاقلاع والهبوط رقم ٤ الذي افتتح مؤخراً في مطار هيثرو، وصعدت إلى آخر طائرة جمبو تقلع في ذلك اليوم، رحلة الخطوط الجوية البريطانية رقم ١٧٩ التي تغادر في تمام السادسة والنصف مساء. جلست في مقعدي في الدرجة الأولى، وطلبت أول كأس، من عدة، من الجـن مع الصودا، ثم غفوت خلال عرض فيلم سينمائي. في الثامنة والنصف بتوقيت نيويورك كنت اعبر دائرة الهجرة الاميركية بعد ان اعلنت للضابط المسؤول بأنني مندوب اعلاني ـ وهو أمر صحيح جزئياً. خارج قاعة الجمارك، رأيت شاباً صغير السن يحمل لوحة كتب اسمي عليها، عرّف عن نفسه على انه سائق هاشمي ثم اخذني في سيارة مرسيدس ٥٠٠ اس اي. ال. في رحلة نصف ساعة إلى حيّ مانهاتن. اجتزنا النفق الطويل تحت النهر الشرقي ثم اتجهنا شمالاً في الجادة الأولى. اشار السائق إلى مبنى الأمم المتحدة قبل ان ننعطف يميناً ونصعد منحدراً خفيفاً ونتوقّف امام مدخل فندق بيكمان تاور.

كان السائق قد تسلّم المفتاح سابقاً، فركبنا المصعد دون توقف إلى الجناح الذي حُجز لي في الدور الرابع عشر. الاثاث من الاثريات المقلّدة التي تجدها في كل فنادق الدرجة الأولى في اميركا، ولكنه بدا في حال اسوأ من كثرة الاستعمال وكذلك ورق الجدران. اخبرني السائق بان هاشمي سيتصل بي خلال نصف ساعة. غسلت وجهي وحلقت واحسست بقليل من التحسن: فانا اتناول عادة كميات كبيرة من الجـن خلال سفري بالطائرة. في الوقت المحدّد اتصل هاشمي ودعاني إل جناحه في الدور الأسفل ـ الدور الثالث عشر. تذكرت، اثناء انتظاري المصعد، بان احدهم كان قد اخبرني بأن الاميركيين لا يستخدمون الرقم ١٣ في فنادقهم لأسباب تتعلّق بخرافة شؤم الرقم ١٣. وكما اقول دائماً: لا تصدق ما يقوله لك الناس ابداً.

في الجناح المماثل لجناحي، تحدثنا لأكثر من نصف ساعة. بعد ذلك وبينما كنت في البار أداعب كأسي وانظر إلى الأفق، عدت بتفكيري إلى ذلك الحديث واحسست بالارتياح والثقة. كان هاشمي قد اكّد لي بانني سأتسلّم النقود والاعتماد المصرفي في اليوم التالي عندما التقي بأحد زملائه الرئيسيين، والذي يعمل في بعثة ايران لدى الأمم المتحدة: ولهذا السبب اختار هذا الفندق المجاور لمبنى الأمم المتحدة. تساءلت عما إذا كنت قد تكلمت اكثر مما يجب اثناء اللقاء، فأصدقائي يقولون بأنني افعل ذلك بعد تناول عدة كؤوس، ولكنني اقول لهم انني بائع وان قسماً من عملي اقناع الناس بانك تعرف الكثير ولك علاقات مهمة وانك قادر على تحقيق ما يريدون. بأي حال، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً بتوقيت لندن وكانت الرحلة متعبة.

بدا هاشمي اثناء اللقاء مهتماً بأمرين: (١) مصدر الأسلحة التي كنت سأبيعها له و(٢) طريقة الحصول على شهادة اثبات هوية الطرف المستفيد (الذي سيتسلّم السلاح). وكان يصرّ على ان يكون السلاح اميركيا رغم محاولاتي لاقناعه بأن النمسا والمانيا تنتجان اسلحة بنفس الجودة. اما اثبات هوية الطرف المستفيد، فكان شيئاً تطلبه معظم الدول التي تعتبر مصدراً رئيسياً للسلاح، لتتأكد من ان سلاحها لا يذهب لجهة لا توافق هي عليها. وبالرغم من الحظر، كان سام ايفانز وآخرون يؤمنون بأن الاميركيين موافقون على بيع أسلحة لايران. وكان معروفاً ان اسرائيل تقوم ببيع الايرانيين معدات عسكرية كانت قد اشترتها من الولايات المتحدة وتقوم هذه الأخيرة بتسليم اسرائيل بدلاً منها، كما كانت تساورنا شكوك بأن تزويد ايران بالمعدات كان يتمّ مباشرة في بعض الأحيان. ولكن إذا استمر الأميركيون في عدم الموافقة رسمياً على بيع السلاح لايران، فسيعني ذلك تزوير شهادة تثبت ان هذه المعدات ستباع لعميل آخر.

كنت احاول طوال الوقت اعطاء هاشمي الفكرة بان الحصول على شهادة كهذه لن يكون صعباً، مع انه سيكلّف غالباً. لو كنا نقصد خديعة الاميركيين لكان الأمر أصعب مما حاولت ايهامه، ولكني اعيد مرة اخرى بانني بائع، وعلى هذا الأساس تكلّمت مع هاشمي وكأنني اقوم بهذا العمل كل يوم وربما كان علي ان اكون اكثر حذراً. في الواقع اذا اراد الأميركيون بصدق ان يمنعوا بيع اسلحة لإيران بالكميات التي كنا نناقشها، فإنهم كانوا سيحققون في الأمر كلياً ولن تمرّ عليهم شهادة اثبات هوية الطرف المستفيد مزوّرة بأي شكل. كنت اعرف انهم ليسوا اغبياء ولم اكن انا غبياً. كانوا سيغضّون الطرف فقط في حالة قبولهم باتمام الصفقة ـ وكنت اؤمن انهم قابلون.

بالاضافة إلى هذه المواضيع، وجدت في نفسي الجرأة لأخبر «هاشمي» عن شكوكي السابقة بانه يحاول الايقاع بي لدي السلطات الاميركية، وقلت له: «سأكون صريحاً معك، لقد ساورتني الشكوك في وقت ما. هل انا على حق عندما أقول ان شقيقك موجود في. . . موجود في الولايات المتحدة وانه في مأزق؟».

نظر إليّ هاشمي ملياً. ثم قال بهدوء: «نعم».

«نعم»، رددت وراءه واضفت: «وكانت الفكرة التي راودتني. . . حسناً، كانت ان وكالة الاستخبارات المركزية ضغطت عليك للحصول على معلومات أو ما شابه. ولم اكن واثقاً جداً من نتائج هذه الرحلة، لم اكن واثقاً جداً من المجيء إلى هنا».

لم يبد عليه التأثر وقال ثانية وببساطة: «نعم».

كان موقفه مثيراً للاعصاب ولكنني تابعت في محاولة لتخفيف التوتر: «يجب عليّ ان اعترف انه لو كانت الحالة كذلك، لما كنت اجلس هنا الآن».

القى هاشمي برأسه إلى الخلف وضحك بسرعة: «ليس لي اتصال مع وكالة المخابرات المركزية». طمأنني، واضاف: «ولا أي اتصال ابداً».

شاركته الضحك وقلت: «وانا كذلك. لا اريد أية علاقة معهم، في الواقع انني احاول دائماً الابتعاد عنهم. . . لا اجد في نفسي الرغبة في دخول السجن».

كان إنكاره مطمئناً، مع انني عندما عدت بالفكر إلى الحوار وانا ارتشف أول جرعة من كأسي في البار، ادركت ان هذا هو الجواب الذي كان سيعطيه مهما كانت صحة أو خطأ تلميحي. ارتاحت اعصابي بعد هذا التبادل الحاد للكلمات ومضينا نبحث صفقات جديدة بالاضافة إلى هذه التي كنت على وشك اتمامها. في الواقع لم يكن هناك حوار بالمعنى الحرفي للكلمة لأنني كنت اتكلم معظم الوقت وكان هاشمي يحثني على الاستمرار بأسئلته وتعليقاته، وربما تماديت مرة حين المحت إلى انه من الممكن ان انقل بعض المعدات إلى طهران بنفسي في طائرة خفيفة تقلع من دُبَي، وان بامكانه هو ان يرتّب الأمر بحيث يتعرف عليّ برج المراقبة في مطار طهران بواسطة رمز متّفق عليه ويعطيني اذناً بالهبوط. ابتسم هاشمي بارتياح واشار إلى انه يستطيع ترتيب الأمر دون صعوبات.

اذكر الآن ان الحديث تضمّن قسماً يتعلق بصميم تجارة السلاح وبموقفي منها. اثرت انا امكانية تأمين بعض طائرات «الميكرولايت»، وهي طائرات صغيرة رخيصة الثمن، مرنة ومسلّحة جيداً، يقودها شخص واحد. وبامكانها الحاق دمار كبير بأهداف مُعادية ولكنها هدف سهل.

قلت لهاشمي: «اذا أُسقطت واحدة، تكون قد خسرت طائرة واحدة وطياراً واحداً. انك تخسر حياة رجل واحد. ولكن في الحرب حياة واحد. . . انك تخسر الآلاف يومياً. ولكنك كدولة لا تستطيع النظر باهتمام إلى خسارة جندي واحد. كدولة عليك ان تهتم بالتكاليف: لأن الحرب هي هواية عالية التكاليف، انها بالتأكيد اغلى الهوايات تكلفةً».

انهينا الحديث بالاتفاق على اللقاء حوالي العاشرة من صباح اليوم التالي، وعلقت على ذلك بالقول: «انها الثالثة صباحاً في لندن الآن، وهانذا استيقظ ثانية».

ابتسم مودعاً وركبت المصعد إلى الدور الأرضي بحثاً عن البار ولكنهم أخبروني انه في أعلى المبنى، فركبت مصعداً خاصاً لا يتوقف إلاّ عند البار. كان البار أنيقاً بألوان سوداء وفضية ومع كثير من المعدن والرخام. هذا سقفه بقناطره المرتفعة وكأنّه كاتدرائية من الطراز القوطي: أكثر برودة وأقل ودّية ليكون مكاناً أشارك فيه الأصحاب شرابهم واحسّ كأنني في بيتي. ولكنني لا أنكر ان المنظر كان رومانسياً وان الزبائن كثر.

كان العاملون في البار يرتدون ملابس رسمية وقادني احدهم إلى طاولة قرب النافذة. وعندما اخذت اول جرعة من الجين مع الصودا في كأس طويل ملأى بالثلج وشرحة ليمون قلت في نفسي: «على الأقل انهم يتقنون مزج المشروبات». كنت اشعر بالرضى وانا افكر باجتماعي مع هاشمي، ومع انني لم اتسلّم نقوداً بعد، ولكنني افترضت انه من غير المعقول ان يأتي بي كل هذه المسافة لو لم يكن جاداً. كما بدا مهتماً بالانواع الإضافية التي عرضتها عليه. وفكّرت ان صديقنا الهادىء سايروس هاشمي قد يكون مصدراً لأموال كثيرة. . . .

قطعت حبل تفكيري ضجة في الخلف، وقع اقدام كثيرة لم استطع تحديدها بسرعة، وقبل ان استدير لأرى، احسست بشيء بارد الملمس على مؤخرة عنقي، وافترضت لأول وهلة ان النادل قد سكب بعض المشروب خطأً، ولكنني في اقل من ثانية ادركت ان ما احسه هو شيء معدني يضغط بشدة على جسمي.

ـ «لا تقم بأية حركة. اننا من دائرة الجمارك الاتحادية الاميركية. سيد هرمان مولّ، انت قيد الاعتقال».

احاط بي اثنا عشر عميلاً، كان ستة منهم يصوّبون مسدساتهم إلى وجهي. ومع ان عقلي كان مضطرباً، الا انني تعرفت إلى المسدسات بسرعة على انها من صنع «سميث آندويسون» عيار ٣٨. اصدار خاص. في حقل عملي يتعرف الواحد منا إلى انواع الأسلحة بالسرعة نفسها التي يتعرف بها إلى البشر. كنت بالكاد استمع لما يجري عندما ذكر احدهم ـ بوجه مليء بندوب الجدري، شيئاً ما عن مؤامرة وقرأ عليّ حقوقي، تماماً كما يفعل الشرطة على التلفزيون: «من حقك ان لا تقول شيئاً. . .».

جرّوني من مقعدي واوقفوني بمواجهة الحائط، وجعلوني ابسط يداي ورجلاي. كنت، غريزياً، اتطلع إلى طريقة للهرب ولكن لحظة من التفكير اقنعتني ان المحاولة ليست واقعية. توقف الحديث في البار تماماً بينما جلس روّاده يراقبون ما يجري مشدوهين، قد تكون هذه لبعضهم الليلة الأولى التي يقضونها في نيويورك. . . مثلي انا، كما ان بعضهم قد لا يكون زار المدينة من قبل، وكانت نيويورك في هذه اللحظات تعيش صورتها الحقيقية لدرجة ان البعض يمكن ان يظن اننا نصور فيلما: في الواقع كان الأمر حقيقياً لدرجة عدم التصديق.

تعرفت إلى واحد من الذين هاجموني: كان هو الرجل الصغير الذي قابلني قبل

ساعتين في مطار جون كينيدي. عندما رأيته يقف إلى جانبي في البار وعيناه تشعّان بنشوة الانتصار، فهمت ماذا جرى: كانت شكوكي حول هاشمي، ومخاوفي التي ناقشتها معه باستخفاف منذ نصف ساعة فقط، كانت كلها في مكانها. لقد تم استدراجي والايقاع بي.

قام رجال الجمارك بتكبيل يديّ واقتادوني إلى جناحي حيث قاموا بتفتيش حقيبتي واخبروني انهم سيأخذونني إلى مقرّ الجمارك في المركز التجاري الدولي في وسط المدينة، عندما غادرنا الفندق ألقوا بي في سيارة شرطة ولاحظت ان الطريق الجانبية المؤدية إلى الفندق قد اقفلت. وفكّرت؛ ماذا يعتقد هؤلاء الناس انني أنوي فعله؟ احاول الافلات؟ مع ستة رجال مسلحين يحيطون بي؟ كان الأمر كالحلم. ما هي التهمة الموجهة إليّ؟ ماذا يعنون بمؤامرة؟ افترضت انهم كانوا يتنصّتون لحديثي مع هاشمي ولكنني لا اعتقد ان التبجّح يعتبر عملاً جرمياً، حتى في اميركا!

كان بين الفريق الذي قام باعتقالي امرأة واحدة وكان ظاهراً انها هي المسؤولة. عندما وصلنا إلى مركز الجمارك قرأتْ عليّ حقوقي مرة اخرى. وكنت في هذا الوقت قد قرّرت ان لا اقول كلمة قبل ان احصل على محام، ولكنهم رفضوا السماح لي بإجراء مكالمة هاتفية. ثم، ولأول مرة، التقي وجهاً لوجه بامرأة شابة اخرى ستكون خصمي الرئيسي في الأشهر التي تلت. كان اسمها لورنا شوفيلد، وهي مساعدة في مكتب المدّعي العام الاميركي في نيويورك، وكانت ستكون ممثلة الادعاء في قضيتي. يبدو ان شوفيلد هو اسم عائلة زوجها لأن ملامحها كانت فيليبينية بوضوح.

حاولت شوفيلد في البداية ان تفتنني، وانا عادة لا اقاوم محاولات الاغراء الانثوية وكنت دائماً اعتبر المرأة الاسيوية النموذج النسائي المفضّل عندي. ولكنني ومع انني كنت مشوشاً ومحتاراً مما حدث، كنت ادرك ان الأمر اخطر من ان يمزج بالمتعة. لم استسلم واصررت على عدم الادلاء بأي يء، عندها حذّرتني بانني اواجه عقوبة خمسة وثمانين عاماً في السجن، ثم نقلوني إلى زنزانة كبيرة في مركز متروبوليتان الاصلاحي، السجن الأشد حراسة في نيويورك.

وستمتدّ الليلة التي كنت انوي قضاءها في نيويوك، إلى عشرة اشهر ونصف، وقبل ان اغادر، ستكسب قضيتي شهرة عالمية لارتباطها بالفضيحة التي هدّدت بتدمير رئاسة ريغان، كما دمّرت ووترغيت رئاسة نيكسون. في الأسابيع التي ستأتي، سيتوفر لدي الوقت لترتيب افكاري ولأعيد بناء مجريات الاحداث كما حدثت بالضبط وكيف اصبحت متورطاً فيها. أما في هذه اللحظات، فقد دخلت رأسي، وبطريقة جنونية، فكرة وحيدة كانت تلحّ عليّ اكثر من ورطتي الحالية: تذكرت انني تركت سيارتي، سيارتي «الجاكوار اكس كي ١٢٠» الغالية الثمن في موقف مؤقت في محطة الاقلاع والهبوط ـ المدرج رقم ٤ [مطار لندن ـ ترمينال] وكان العدّاد يسجّل، مع تكات الساعة، ايجار الموقف بمعدّل ١٥,٦ جنيهاً استرلينيا في اليوم.

الفصل الثاني

اقتفاء الأثر .. من بارك لين

لو شئت ان أعيد النظر في كيفية حدوث كل ما حدث، فمكان البداية هو نادي «السفراء» "Les Ambassadeurs"، أفخم وأغنى نوادي لندن. يحتل النادي قصراً غني الزخرفة من القرن التاسع عشر، في الطرف الجنوبي من بارك لين، كان في وقت من الأوقات ملك عائلة روتشيلد، الغنية. وهذا الجزء من لندن هو الآن محط اعجاب أثرياء العرب، ويعمل النادي على تقديم فرص التسلية والمتعة لهم وللمتعاملين معهم من أصحاب المال ورجال الأعمال على اختلاف نوعياتهم. أما الطعام في النادي فهو من أفضل النوعيات في العالم، ولائحة المشروبات تضمّ أنواعاً من النبيذ يصل سعر الزجاجة الواحدة منه إلى ٣٥٠ جنيهاً استرلينياً. انه، باختصار، تلك النوعية من النوادي التي كنت أحلم بأن أتمكن من الانضمام لها عندما قررت ان أصبح تاجر سلاح. في المطعم والبار، يتبادل الناس الأحاديث عادة بطريقة توحي وكأنهم يعملون على ابرام صفقات مشبوهة ـ ولكن النادي حافظ على سمعة محترمة، وعلى لوحة عند المدخل يرد اسم اللورد هافرز، الذي كان مدعياً عاماً ورئيساً لمجلس القضاء الأعلى، بين أعضاء الهيئة الادارية للنادي.

بداية الطريق إلى الفضيحة

كنت قد أصبحت عضواً في نادي السفراء في العام ١٩٨٤، مباشرة بعد بداية عملي في تجارة السلاح، إذ رشحني سوندرز، شريكي آنذاك للعضوية، لأن النادي كما قال: هو المكان المناسب للقاء الأشخاص الذين يمكن أن يصبحوا زبائننا في يوم من الأيام. ذات مساء في العام ١٩٨٤، اقترح روبرت ميلز، رئيس النادي والرجل الذي يديره فعلاً، بأنه قد يكون مناسباً ان ألتقي عضواً آخر في النادي محامي أميركي اسمه سام ايفانز، وكان ميلز يعتبر من مهماته تأمين لقاءات بين الأعضاء الذين لديهم مصالح متشابهة ـ انها احدى ميزات العضوية: افادة متبادلة لجميع المعنيّين.

كان ايفانز محامياً تجارياً أميركياً، يتحدّر من أسرة مرموقة ثرية في سانت لويس. تزوج من بريطانية واستقر في لندن حيث مارس المحاماة لمدة عشرين عاماً. كان في الاربعين من عمره، ويبدو بشعره الأملس الذي خطّه الشيب وبقامته الطويلة الرشيقة، كأحد الارستقراطيين. عمل لفترة مع رجل النفط المليونير جون بول غيتي، ويملك منزلاً فخماً مؤثثاً بذوق رفيع، في تشستر سكوير، أرقى أحياء منطقة بلغراف، منطقة الأثرياء في لندن. لم يكن المنزل يبعد كثيراً عن غروفنر بلايس بالقرب من زاوية هايد بارك.

بناء على اقتراح ميلّز، اتصلت هاتفياً بايفانز في غروفنر بلايس، فأخبرني بأنه ساعد مؤخراً على انشاء شركة تدعى «كيرزون مرشانتس» ستعمل في تجارة السلاح، وبأن ملّ تومسون، أميركي الجنسية، هو الشخصية الرئيسية في الشركة، وبأن أفضل طريقة لبدء التعامل هي لقاء تومسون وتبادل الحديث معه. في المساء اجتمعنا، أنا وشريكي سوندرز، مع تومسون في نادي السفراء. كان تومسون قصيراً ـ لا يتجاوز طوله ١٦٥ سنتيمتراً ـ مع بنية ضخمة ونظارتين سميكتين ـ وذكّرني قليلاً بالشخصيات التي تلعب دور عملاء وكالة المخابرات المركزية في الأفلام الأميركية: حتى شعره كان قصيراً على الطريقة العسكرية. وكانت سكرتيرته الشقراء الجذابة ترافقه.

أخبرنا تومسون انه يتطلع إلى اجراء صفقات مع دول مختلفة ولم يذكر في تلك المرحلة ايران بالاسم، ولكنني كنت أعرف الجهة التي تذهب إليها أكثر الأسلحة المشتراة من قبل أفراد في ذلك الوقت، كما كنت أعرف ان خاشقجي كان متورطاً في الصفقات الايرانية وبأن ايفانز يعمل لحساب الخاشقجي. طلب مني تومسون عروضاً بالأسعار لما هو متوفر لديّ من الأسلحة، حتى يتمكن من الاتصال بالزبائن ويحاول بيعها، فوعدته بأن أؤمن له عروض الأسعار ونرى إلى اين يقودنا ذلك.

في اليوم التالي، في مكاتبي في كريكلوود، طلبت من سكرتيرتي ان تعدّ قائمة بأنواع الأسلحة التي أستطيع تأمينها وتضمنت اللائحة:

٥٠ ألف قذيفة مدفع من عيار ١٥٥ شديدة الانفجار من صنع اليونان، معدّات اتصالات ورؤية ليلية، ٢٠٠ مدفع رشاش من طراز براوننغ أعيد تجديدها في بريطانيا. كان بإمكاني ان أعطيه أكبر بكثير، ولكن «كيرزون مرشانتس» كانت شركة جديدة دون أية خبرة في هذا الحقل، وكنت أشكّ بأن يسفر تعاملنا عن نتيجة ما، ولهذا لم أجد من الضرورة بذل جهد كبير لايجاد مصادر أخرى للسلاح. كما كانت لديّ تحفظات، ثبُتت لاحقاً، حول مؤهلات تومسون في تجارة السلاح. لم يتحدث تومسون عن ماضيه ـ في هذا العمل نادراً ما يتحدث الناس عن ماضيهم، ولكنني، من جهة مقابلة كنت أعرف من هو ايفانز وعلاقته مع خاشقجي قد تعني، في السياق الأخير، ان نجاحاً ما قد يتحقق.

التقيت بسَام ايفانز في مكاتب كيرزون مرشانتس، بعد حوالي اسبوعين من هذا التاريخ. كانت مكاتبهم تحتل الدور الأرضي والدور الذي تحته، في مبنىً، بشارع كيرزون، يقع على يسارك وأنت قادم من بارك لين. كان مكتب سام صغيراً ولكنه مريح مع طاولة مكتب كبيرة ومقاعد وثيرة من الجلد. كان «ملّ» بانتظاري عندما وصلت وحضر سام بعد دقائق بينما كنا نتناول القهوة. عندما بدأنا الحديث، لاحظت ان سام لم يكن يعرف الكثير عن أنواع الأسلحة، وسألني اسئلة بسيطة تنمّ عن جهل حتى بأبسط التعابير والاختصارات المستخدمة عادة في هذا الحقل، ولكنه كان الأفضل عندما تحدثنا عن الصفقات والعقود وشروطها. أخبرني ان خاشقجي لم تكن له أية علاقة بهذا المشروع، وبأن عمله مع المليونير

السعودي لا يتضمن صفقات أسلحة. وخمّنت انه عندما لاحظ من خلال عمله مع خاشقجي، المبالغ التي يمكن تحقيقها من تجارة السلاح، قرر ان يعمل لحسابه ـ مع انه كان غنياً بكل معنى الكلمة. ومن الممكن انه أراد ان يكون له سهم آخر في جعبته إذا أخذنا بعين الاعتبار الشائعات التي ترددت آنذاك عن أوضاع خاشقجي المالية.

أعطيت سام نبذة عن البضائع المذكورة في عرض الأسعار وهذه المرة ورد ذكر ايران. كان كل العاملين في تجارة السلاح في ذلك الوقت يتحدثون عن بيع السلاح الاسرائيلي لايران بمعرفة الأميركيين، وعن كيف ان الاميركيين يقومون بتزويد اسرائيل بأسلحة بديلة، ومع ان أميركا انكرت الأمر رسمياً إلّا انه انكشف لاحقاً. وكان مضحكاً حقاً ان تشاهد الرئيس الأميركي ريغان على شاشة التلفزيون يشكو من تحوّل ايران إلى دولة إرهابية. كانت اسرائيل تبيع الايرانيين حتى الأسلحة التي غنمها منهم العراقيون والتي حصلت هي عليها عبر قنوات حيادية مستقلة.

كانت دوافع الاسرائيليين واضحة: اثنان من أعدائهم يتذابحان. وكانوا يظنون ان مصلحتهم تقضي بتزويد ايران بالسلاح لقتل العراقيين. ولم يكن تفكير الأميركيين بعيداً عن هذا، ولكن مع عنصر إضافي: كان العراق صديقاً للاتحاد السوفياتي، وانتصار العراق في الحرب سيعني توسع النفوذ الروسي في الشرق الأوسط.

كنت في الواقع قد بدأت العمل على صفقة اسلحة لايران عبر رجل ايراني يدعى «رَضَوي»، يقيم في كنسنغتون، وكان هذا مهتماً بنفس الأسلحة التي عرضتها على كيرزون مرشانتس، وهذا من طبيعة العمل في تجارة السلاح، إذ كان على الواحد منا ان يعمل مع أكثر من جهة لأنه يواجه الكثير ممن يقولون: «أنا أملك الاتصالات اللازمة، أنا أعرف أصحاب القرار»، وعليه ان يقبل ذلك ويعمل على هذا الاساس.

كان هذا صحيحاً بالأخص في حالة صفقات الأسلحة لايران. إذ امتلك الايرانيون مكتباً في شارع فكتوريا، واشتهر المكتب، حتى اقفاله في أيلول ١٩٨٧ من قبل السلطات البريطانية، بشراء السلاح، مع انه لم يكن حصراً المصدر الوحيد. بالاضافة إلى وجود عدد كبير من الأشخاص يجولون العالم بحثاً عن السلاح لصالح الحكومة الايرانية وفي جيب كل منهم رسالة تخوّله ذلك. كان الواحد من هؤلاء يتصّل بالتجار مثلي ليقول، بأن لديه شقيقاً أو قريباً في الحكومة الايرانية أو على صلة جيدة بها وأنه مخوّل باجراء صفقات شراء أسلحة. وكان رضوي مثالاً نموذجياً، فشقيقه كان في ايران وأحد أبناء عمّه عضو في لجنة ما، تهتم بتأمين السلاح. وايران لم تتغير كثيراً منذ عهد الشاه، فما زالت لعبة العمولات والسمسرة مستمرة والناس راغبة في جني مداخيل جانبية، ومع ذلك، لم تكن الصفقات، في أغلب الحالات، تتم. ففي حالة رضوي مثلاً، تبادلنا مع ايران عشرات التلكسات، وأبرمنا في النهاية صفقة أصغر بكثير من التي بدأنا الحديث عنها.

أما سام ايفانز فكان مختلفاً، وسجلّ أعماله السابقة يعطي كلامه وزناً أكبر. كان

يفكر كثيراً وتحدثنا مطولاً عن رياء الرئيس الأميركي في تنديده بالايرانيين على انهم ارهابيين في الوقت الذي يسمح بتزويدهم بأسلحة اميركية، كما تطرّقنا إلى المعدّات الالمانية الصنع المشهورة بجودتها والتي كنت أعرف الكثير عنها، ولكنك تواجه دائماً نفس العقدة: الكل يرغب في شراء اسلحة مثل دبابات «ليوبارد ١» و«ليوبارد ٢»، مع ان الشركة المصنّعة لا تستطيع أبداً الحصول على اذن من الحكومة يسمح لها ببيع هذه الأسلحة لدول عربية، نتيجة للهولوكوست (المحرقة اليهودية المفترضة) التي لا تزال تثقل الضمير الالماني ولا يريد الالمان ان يواجهوا نتائج استخدام اسلحتهم ضد اسرائيل.

الواقع ان الحكومة الالمانية هي، فوق ذلك، شديدة الحساسية حول استخدام اسلحتها في ساحات القتال. الغريب في الأمر ان المانيا تبيع لحكومة التشيلي مثلاً غواصات هي بالفعل أسلحة تكتيكية فعّالة مزوّدة بمعدات الكترونية وصواريخ باستطاعتها قتل مئات الأفراد، بينما ترفض بيع رشيشات، وهي سلاح فردي، لنفس الحكومة لأنها تخشى ان تستخدم حكومة التشيلي رشيشات «هكلر و«كوخ» لحصد الطلاب، إذا تظاهروا في سانتياغو، الأمر الذي ستتناقله شاشات التلفزيون في جميع أنحاء العالم. ان الشركات الالمانية هي في حالة قلق وإحباط دائمين، بسبب عدم قدرتها الحصول على رخص تصدير، مع ان الزبائن يحصلون، في نهاية الأمر، على الأسلحة لأن شركات مثل «هكلر» و«كوخ» Heckler & Koch تبيع مصانع أسلحة لدول في أميركا اللاتينية لا تفرض قيوداً على المبيعات.

في بعض الحالات تباع الأسلحة لطرف ثالث من قبل الدول التي اشترتها من المانيا ولا تستطيع هذه الأخيرة شيئاً. وفي حالات أخرى، يجري تحايل على القيود المفروضة على المبيعات، بتزوير شهادات اثبات الطرف المتلقي للسلاح، ولكن هذا ليس سهلاً، فالدول التي تسمح المانيا ببيع اسلحة لها قليلة، ولكنك لا تستطيع رشوة كل وزارات الدفاع في هذه الدول. والدول الصغيرة بأنظمتها الفاسدة لدرجة تمكنك من شراء وزير الدفاع نفسه، لا تكون عادة على لائحة الدول التي توافق المانيا على بيعها السلاح.

تحدثت مع ايفانز وتومسون عن هذه الأمور لساعة من الوقت وبدا انهما أعجبا بعمق معرفتي. تركت عرض الأسعار معهم قائلاً: «الكرة الآن في ملعبكم، أرجو ان تعلموني بما يمكن ان أفعله، وآمل ان نستطيع قريباً ابرام بعض الصفقات».

تحركت الأمور ببطء، وكان تومسون يطلعني أولاً بأول على التطورات، ثم طلب مني بعد أسابيع قليلة عرضاً بأسعار أجهزة اتصالات اضافية ـ ٥٠٠ تلفون ميداني. حصلت على عرض من شركة «راكال»، ولكنني اكتشفت ان الشركة نفسها كانت تفاوض الحكومة الايرانية مباشرة حول نفس الصفقة، وكانوا يواجهون نفس المشكل الذي يواجهه الجميع في ايران: عدم القدرة على التأكد من ان المفاوض هو على صلة بأصحاب القرار كما يدّعي. والتاجر الذكي يعمل عبر عدة جهات وقنوات في نفس الوقت.

لم تؤدِ جهود «كيرزون مرشانتس» لاجراء صفقات مع ايران إلى أية نتيجة، ولكنني شعرت بأنني توصلت، بمعرفة سام ايفانز الدمث، إلى ما يمكن ان يكون أبرز علاقاتي خلال فترة عملي القصيرة في تجارة السلاح. مع انني لم أكن أدرك آنذاك مدى أهميتها: في ذلك اليوم قامت علاقة عمل ستؤدي بي إلى لجة من الأكاذيب والخداع ستعرف، بعد ذلك بأقل من ثلاث سنوات، باسم **فضيحة ايران ـ غيت**.

II

نبـذة مـن حيـاة سمسـار ناشـيء

ولدت في مدينة كولونيا في ٢٢ أيلول، ١٩٥٦. انتمى والداي إلى الطبقة الوسطى: كان والدي يعمل، كميكانيكي، في صيانة المكنات في مصنع لأنابيب الفخار، أما والدتي فكانت تلازم البيت للاهتمام برعايتنا: أنا وأخي وأختي الأكبر مني سناً. كنا نعيش في شقة مريحة ونملك سيارة، أما الآن فقد تزوجت أختي وانقطع اتصالنا بأخي.

كنت أذهب إلى مدرسة في بلدة صغيرة تدعى فرشين، تبعد ١٢ كيلومتراً عن المدينة. سنوات الدراسة الأولى في المانيا هي تسع سنوات، تترك بعدها اما للالتحاق بعمل أو الالتحاق بمدرسة أخرى للحصول على الشهادة الثانوية، التي تعادل الثانوية المتقدمة في بريطانيا. التحقت بالمدرسة الثانوية ولكنني تركت في السابعة عشرة ولم أذهب إلى الجامعة. كنت منذ الرابعة عشرة من عمري، أحصل على مصروفي الخاص بالعمل كدليل (بلاسور) في احدى دور السينما، وكان ذلك الوقت الذي مارست فيه الجنس لأول مرة في حياتي، مع بغيّ في الخامسة والعشرين من عمرها، التقيتها في أحد البارات. كانت شقيقة أحد أصدقائي ولهذا لم تتقاض مني مالاً. كانت ليلة واحدة، ولكنني أدركت ان النساء يعتبرنني جذاباً ومنذ ذلك الوقت بدأت بملاحقة النساء باهتمام. واتخذت حياتي نسقاً خاصاً: أذهب إلى المدرسة صباحاً، وأعمل لكسب النقود في المساء وأطارد النساء خلال عطلة نهاية الاسبوع.

كنت أقرأ كثيراً وبالأخص عن الأسفار والرحلات، وكان هناك أمر واحد واضحاً لديّ منذ صغري: لم أكن أرغب في ان أبقى من أفراد الطبقة الوسطى طول حياتي، لم أكن أريد نوع الحياة العادية الخالية من الاثارة التي يحياها والدي ـ العمل من الثامنة حتى الخامسة عدا يوم الأحد، مع عمل وقت إضافي لنستطيع تأمين مصاريف اجازة في ايطاليا مرة في العام. كان واضحاً لي منذ سن الرابعة عشرة، أن هذه ليست الحياة التي أريدها لنفسي، وان هناك عالماً كبيراً ينتظرني.

يبلغ طولي ١٨٨ سنتيمتراً، وكنت كبير الحجم حتى في الرابعة عشرة، وكان الناس يعتقدون ان عمري أكبر من ذلك بسنتين أو ثلاثة على الأقل، وكان جميع أصدقائي من الشباب والبنات في أعمار تتراوح بين ١٨ و٢٢ سنة. ودرجت على النظر إلى الذين في سني

كأطفال وكانت لي اهتماماتي التي تميّزني. أُنفق أموالي في محاولة اصطياد النساء، حالفني النجاح في ذلك، ومع هذا كنت أوفّر قليلاً. كان لي هدف بسيط ـ أن أصبح غنياً ـ ولم تكن لدي أية فكرة عن كيفية تحقيق ذلك. كان والداي يقولان لي ان الأفضل ان أكون فقيراً وصحيح الجسم من ان أكون غنياً ومعتل الصحة، فأجيبهم ان الأفضل ان أكون غنياً وبصحة جيدة.

في الرابعة عشرة من عمري أيضاً، حصل في حياتي حدث مصيري آخر، عندما زرت لندن لأول مرة في رحلة مدرسية. تطلعت حولي وقلت لنفسي: «هذه هي مدينتي، هذه هي 'المدينة'». وأقسمت ذلك اليوم بأنني سوف أعيش وأعمل هناك. ببرلين مقسّمة، لم يكن في كل المانيا مدينة تضاهي لندن حجماً أو إثارة، فهي أكبر من كولونيا بأربع مرات، وأدركت ان فيها أموالاً طائلة. هناك مثل يقول: 'إذا أردت أن تحصل على المال، يجب ان تكون حيث يكون المال' فالعالم محكوم به، ورموز النجاح أينما كنت، هي المال والسيارات السريعة والنساء الجميلات. هذا هو نمط الحياة الذي كنت أرغب فيه ـ كنت أريد حصّتي . . وأكثر.

عندما تركت المدرسة بحثت عن طرق لتحصيل مبالغ كبيرة وبسرعة، وكنت دائماً بائعاً ناجحاً، مع قدرة على الحديث بطلاقة وإقناع الناس. كنت أعرف الكثير من الأغنياء الذين يعملون في هذا المجال ـ وعدداً مماثلاً من الاساتذة الفقراء، فقررت ان العمل كبائع، هو أفضل طريقة للاثراء، فبدأت بالعمل في مخزن أثاث في كولونيا لاكتساب الخبرة الكافية. كان رئيسي يقول: إن فن البيع لا يمكن تعلّمه، ولكنه موهبة. وظهر لي بوضوح انني أملك هذه الموهبة لأنني كنت ناجحاً لدرجة كبيرة.

لكنني كنت أعرف الكثير من الذين بلغوا الخمسين من عمرهم، وهم يعملون بكل جهد لدى آخرين دون أن يصيبوا الثراء، وأدركت بأن عليّ، إذا أردت الحصول على الكثير، ان أعمل لنفسي. عندما بلغت التاسعة عشرة، قرأت اعلاناً في احدى الصحف يطالب بائعاً لآلات نسخ مكتبية وأجهزة معالجة كلمات لدى شركة بليكان Pelikan الشهيرة لتصنيع المعدات المكتبية، فتركت مخزن الأثاث والتحقت بهم ـ أول خطوة لي صعوداً. خصصوا لي سيارة ماركة اودي، وكانت هذه قفزة كبيرة بالنسبة لسيارة الفولكسواغن التي كنت أملكها.

بعد ثمانية أشهر، تمَّ استدعائي للخدمة الالزامية في الجيش الالماني الغربي وثار جنوني لأنني كنت في هذا الوقت اتقاضى حوالي ٢٤٠٠ دولار شهرياً ـ ويُعتبر مبلغاً كبيراً في تلك الأيام، أما في الجيش فيتقاضى الواحد منا ١٢٠ دولاراً وتخدم لمدة ثمانية عشر شهراً. حاولت ان أتلاعب بالتقرير الطبي. جرّبت كل شيء ـ شربت ليترين من القهوة ودخنت مئة سيجارة ـ ولم أنجح. كان موقف اللجنة الفاحصة: «ما دام لك ساقان ويدان ورأس فأنت صالح للخدمة».

التحقت بفرقة مشاة وأرسلونا إلى معسكر تدريب في شمالي المانيا. وجاء التدريب هدراً للوقت وللمال ـ بالأخص المال. كانت سياستي ان أبذل أقل مجهود ممكن دون الوقوع في المشاكل، كان التدريب الأساسي مجرّد ازعاج، إذ ترتّب علينا ان نستيقظ في الرابعة صباحاً ونركض معظم النهار، وكانت الأوامر التي تصدر إلينا مجرّدة من كل منطق. وأنا من أشد المؤمنين بالمنطق. أما دليل التدريب فيبدو وكأنه قد كتب للبلهاء .وكان يتضمن تعليمات سخيفة مثل: «إذا نزل الجندي إلى الماء ووصل الماء إلى ذقنه، عليه ان يبدأ السباحة». باختصار لم يكن الأمر مسلّياً.

بعد ستة أسابيع من التدريب الأساسي، انتقلت إلى فوج التموين في شفانڤيد قرب هامبورغ. لعدد من الأسباب جاء هذا الانتقال بمثابة ضربة حظ. بادىء ذي بدء سنحت لي الفرصة للحصول على اجازة قيادة شاحنات بضائع ثقيلة، كنت أؤمن انها ستفيدني في حياتي ـ بالاضافة إلى اجازة قيادة دبابة، كانت ستكون أقل فائدة. نجحت في كل الاختبارات وتسلّمت مسؤولية تزويد كامل المعسكر بالوقود، ومن الطبيعي ان استطيع تقليص نفقات زياراتي لأهلي في كولونيا.

III

تدريب على القفز بالمظلة

ذات يوم، وقد اقترت نهاية فترة الخدمة، كنت أشاهد فيلماً. ورأيت أفراداً يقفزون من الطائرة بالمظلات، فكرت ان هذا قد يكون تحدياً، ولما كان شعاري في الحياة أن أجرّب كل شيء، تطوعت لدورة مظلي. وهذا واحد من القرارات التي يتخذها الانسان بسرعة، ثم يندم عليه عندما لا ينفع الندم. أما حلقات التدريب، عندما تقفز من برج عالٍ، فهي سهلة بطريقة خادعة، سرعان ما تعتادها ويصيبك خَدَر من شعور خادع بالسلامة.

لا شيء في العالم يمكن ان يُعدّك للرعب الذي يصيبك وأنت تقف في طائرة فتح بابها، تنظر إلى الأرض من ارتفاع مئات الأمتار وأزيز المحرّكات يصمّ أذنيك وعقلك كالكابوس، وتستغرب: ما الذي مَلَك عقلك بالفعل حتى توقع نفسك في هذا المأزق؟ تحس بغثيان شديد وبالرغبة الملحة في الذهاب إلى المرحاض وتتساءل إذا كان التراجع ممكناً في هذه المرحلة النهائية، ولكن الوقت فات: فات عمل أي شيء، وتقف بجانب الباب لثوانٍ قبل ان تسمع الكلمة التي تخشى سماعها: «إقفز!»

بطريقة ما تجبر جسدك على اطاعة الأمر وأنت تعرف بأنك تعتمد كلية على نجاح أجهزة المظلة في أدائها، فهي تنطلق تلقائياً بعد أربع ثوان من مغادرة الطائرة. في تلك المرة الأولى كانت الأربع ثوان هي الأطول في حياتي. بموجب التدريب الذي تلقيناه، كان علينا أثناء اندفاعنا نحو الأرض ان نعدّ إلى أربعة ببطء:

«الف واحد»
«الفان اثنان»
«ثلاثة الاف»
«اربعة الاف»

ثم أحسست بجذب عنيف في عنقي وكأن أحداً قبض عليَّ من الخلف محاولاً خنقي ولكن هذا لم يكن يعني ان كل شيء يسير على ما يرام. من الممكن ان يكون أحد الأجهزة قد تعطّل ولم تنفتح المظلة، وفي هذه المرحلة عليك ان تنظر إلى الأعلى. فعلت ذلك بهلع كبير وكان منظر المظلة المنتفخة بالهواء أجمل منظر رأيته في حياتي.

منذ تلك اللحظة يصبح بإمكانك ان تتمتع بالتجربة، كنت قد أصبحت خارج مدى صوت المحركات ولم يكن هناك أي صوت آخر، كان عالماً مختلفاً. فالأرض لا تزال بعيدة ولكنها تتحرك لملاقاتي بسرعة مقبولة. كانت هناك غابة تحتي وتذكرت ما تعلمته عن تعديل وضع المظلة، فشددت واحداً من الحبال حتى استدرت لتصبح الريح في ظهري فتدفعني بعيداً عن الغابة باتجاه منطقة الهبوط. خمّنت ان سرعتي كانت حوالي ٧٢ كيلومتراً في الساعة، فشددت الحبل مرة أخرى لأستدير ثانية لمواجهة الريح حتى تخفف من سرعتي استعداداً لملامسة الأرض.

على بعد حوالي ٦٥ متراً ضممت رجليّ في وضع الاصطدام. كان هناك لحظة ذعر أخيرة وأنا أرى الأرض تقترب مني اسرع وأسرع. اكتشفت لاحقاً بأن مظلتي لم تكن بحجم يناسب وزني ولهذا اصطدمت بالأرض بقوة وكأنني أقفز حراً من ارتفاع أربعة أمتار، ولكنني لم أصب بأذى وأحسست بشعور طاغ بالخلاص و ـ اعترف ـ بتفوق على غالبية بني جنسي من الرجال. لقد نجحت، لقد حققت ما يعجز عنه معظم الناس في حياتهم، والأهم تمكنت من التغلب على خوفي.

تطلعت إلى أعلى فرأيت الطائرة التي قفزت منها تحوم في السماء وابتسمت. لا أذكر لحظةً مرّت في حياتي كنت أسعد فيها بالحياة أو أكثر قبولاً لما أنا كهذه اللحظة. لقد أثبتّ شيئاً لزملائي في الجيش ولنفسي. كان احساسي رائعاً.

IV
فرصة التعرّف إلى أنواع السلاح

كانت الميزة الرئيسية للوقت الذي أمضيته في الخدمة العسكرية، وفي ضوء ما حدث لاحقاً، انها منحتني الفرصة للتعرف إلى أنواع السلاح. لقد تدربت على استخدام عدد منها ـ الرشيشة، المدفع الرشاش، المسدسات والبنادق. في يوم من الأيام رأيت في أحد المكاتب مجلة لناشر الماني اسمها ڤيرتكنيك Wehrtechnik (تقنيات الحرب)، تتحدث

بمجملها عن منظومات السلاح. قرأت فيها كيف يتمّ بيع السلاح للدول المختلفة. كنت أعرف بوجود تجار السلاح ولكنني لم أكن أعرف حتى تلك الساعة ماذا تعني تجارة السلاح. كان تاجر السلاح بالنسبة لي شخصاً غامضاً يعمل في تجارة مميتة ولكنها مثيرة ـ ومربحة أيضاً. وقدّرت ان الذين يتعاملون فيها لا بد ان يحصلوا على عمولات كبيرة.

قلت لنفسي: «أنت لها يا هرمان! انت تملك شطارة التجارة، وتجارة السلاح تبدو عملاً فيه ربح وفير». وهكذا بدأت بشراء المجلات المتخصصة وقراءتها بما في ذلك الاعلانات التجارية لأكتسب أكبر قدر متاح عن سوق السلاح، ثم فكرت طويلاً في الموضوع وبدأت بوضع خطتي للعمل. كأي تجارة أخرى كنت احتاج للخبرة ومعرفة البضاعة والسوق والمصادر والجهات المشترية والتمويل.

لكن أولى اهتماماتي بعد تركي الجيش. تركّز على الزواج. كنت في العشرين ـ مبكراً جداً عليه ولكنني كنت دائماً متعجلاً لاتمام أموري. التقيت دورين، التي تكبرني بست سنوات، قبل قليل من التحاقي بالخدمة وكنت أراها دائماً خلال اجازاتي وفي عطل نهاية الاسبوع. دورين آسيوية من ترينيداد، تعمل في مستشفى في فرشين. قابلتها في القطار في احد أيام الآحاد عندما كنت أطارد الفتيات في كولونيا. كانت تتقن الانكليزية ـ الأمر الذي تناسب مع قراري بالذهاب إلى لندن. كنا نتكلّم الانكليزية دائماً في البيت وتدريجياً أصبحت أكثر طلاقة. مؤخراً سهّلت قوانين السوق الأوروبية المشتركة اجراءات إقامة الالمان في بريطانيا، وكنا أنا ودورين قد اتفقنا على عدم انجاب الأطفال لأنني اعتقدت انهم سيقيّدون حركتي في المستقبل.

صرفت بعض الوقت أبحث في سوق العمل وكنت أشغل نفسي بوظائف موقتة، حتى رأيت اعلاناً في صحيفة في كولونيا وضعه «مونش» **Mönch** الناشر للمجلة التي كانت أول ما لفت انتباهي إلى تجارة السلاح. كان الاعلان يطلب مسؤول تسويق لشركة كبيرة نوعاً ما، مقرها مدينة بون. اتصلت بهم وتقدمت بطلب للعمل، فأنا لا أؤمن بكتابة الرسائل: انني أفضّل دائماً الطرق المباشرة.

تحدثت إلى السيد هليكس، مدير التسويق، واتفقنا على ان أذهب لمقابلته. كانوا يبحثون عن مسؤول تسويق لالمانيا والنمسا وسويسرا يركز على بيع صفحات اعلانية في نشرة جديدة: دليل الاسلحة الدفاعية في دول حلف شمالي الأطلسي (ناتو) الستة عشر، وكان مونش قد حاول ذلك لمدة ثلاث سنوات ولم يحقق نجاحاً يذكر. دامت المقابلة حوالي الساعة، سألني هليكس الأسئلة العادية مثل: كم من الجهد يمكن أن أبذل وأية نتائج أتوقع، ولكن السؤال الأهم كان: «ما هو المبلغ الذي تتوقعه مقابل العمل؟»

عندما أخبرته بأفكاري حول الموضوع المالي، أحسست بامتعاضه. قلت له انني أريد ٥ آلاف مارك شهرياً (حوالي ٣ آلاف دولار)، ثم أضفت بثقة: «إذا كنت مستعداً لدفع هذا المبلغ، أضمن لك تسويق فكرتكم بنجاح».

لم يكن الأمر مسلياً بالنسبة له فعلّق قائلاً: «أنت تريد أن تتقاضى مبلغاً أكبر من المبلغ الذي أتقاضاه أنا».

أجبته: «لا أدري ماذا تفعل أنت هنا، ولكنني أضمن نجاح الدليل الجديد. يمكنك ان تحصل على سيارة فولكسواغن بسعر أقل من سيارة مرسيدس. ولكنك مع سيارة المرسيدس تكون قد حصلت على نوعية أفضل».

دون أن ألاحظ، كان باب قد فتح خلفي ودخل منه رجل ـ صغير الحجم برأس غريب الشكل. كان الرجل مانفرد سادلوسكي، ناشر المجلة، وقد سمح آخر عبارات قيلت في المقابلة. كان هليكس قد استبعدني في هذا الوقت بسبب مطالبي المالية ـ وربما كنت قد قسوت في مواجهته، وخمنت انه خشي من أن أهدد مركزه إذا استقر بي الأمر في الشركة.
قال سادلوسكي: «سيد مولّ، انني أرغب في محادثتك في مكتبي».

ذهبنا إلى مكتبه وجلسنا هناك، ثم قال لي: «لقد سمعت ما قلته وأعجبت به»، ثم أطلعني على مخطّط الدليل الجديد وسألني: «هل تستطيع بيعه؟»
ـ نعم!
«ماذا يجعلك تظن ذلك؟»
«أمر بسيط. انك تستطيع بيع أي منتج إذا كنت الرجل المناسب وكانت لديك موهبة البائع. **فالأمر لا يتعلق بما تبيعه ولكن بكيف تبيعه. أنا بائع، وأفوزل دون تبجّح انني الأفضل. إنني استطيع بيع هذا لصالحك».**
ـ «سيد مولّ، اعتقد انك قد ابتعت لنفسك وظيفة في هذه اللحظة».

تسلّمت رسالة تؤكد ذلك بعد يومين. لقد نلت الوظيفة والشروط هي: ٣ آلاف مارك شهرياً مع عمولة تبلغ نسبتها ٦٪ عن المائة ألف مارك الأولى. وترتفع إلى ٨٪ من المئة وثمانين ألف مارك التالية، و١٢٪ لما فوق المئتي ألف مارك. في المدى الطويل كنت سأحصل على ٥ آلاف مارك شهرياً ـ مبلغ محترم!

عملت مع مونش لسنتين في بيع الدليل ومنشورات اخرى، وكنت التقي العملاء في تجارة السلاح وأحضر معارض الأسلحة المتنوعة. كان هدفي البعيد طوال الوقت ان أصبح تاجر سلاح مستقلاً، وكانت هذه الطريقة المثلى: معرفة المنتجات والشركات المصنعة ومقابلة المعنيين بهذه التجارة. كما تجولت في كل انحاء المانيا والنمسا وسويسرا.

ولكن، وبينما كان عملي يزدهر، كان زواجي يتدهور باستمرار. لم أكن في عمري حاضراً للوفاء لشريكة فراش واحدة، وكانت أسفاري تعطيني فرصاً كثيرة للعبث. وصلت الأمور إلى ذروة السوء عندما ذهبنا لزيارة أهل دورين في ترينيداد كعادتنا كل عام. بَدَت شقيقتها جميلة وأثناء الزيارة الثالثة كانوا يقيمون احتفال 'الكارنفال' وكان الناس في فورة

جنون، راحت شقيقة دورين تحاول اغوائي اثناء حفلة راقصة في فندق هيلتون وبدأنا علاقة غرامية. في المطار عند نهاية الاجازة، انفجرت الشقيقة في البكاء أمام جميع أفراد العائلة وكان الأمر محرجاً للغاية.

عدت مع دورين إلى المانيا وأخبرتها بأنني اعتقد بأن الطلاق هو الحل الأفضل. ولكن دورين بكت لساعات وفي الأخير أحسست بالشفقة عليها لأنني ضعيف أمام النساء، فقررنا الانتظار لنرى كيف تتطور الأمور. ثم ذهبنا في اجازتنا ذلك العالم إلى اسكوتلاندا ولندن ـ وكنا قد زرناهما قبلاً أكثر من مرة لأن دورين كانت تعمل هناك قبل الانتقال إلى المانيا.

كنت أذهب أثناء وجودنا في لندن للقاء الفتيات في الليل متعلّلاً بأعذار مختلفة، وقد مارست الجنس مع بعضهن على مقعد السيارة الخلفي، ولكنني لا أريد ان يفهمني الناس خطأ، فأنا لا أنظر إلى المرأة على انها وعاء جنسي: أنا بعيد عن هذا بكثير. إنني أحب المرأة وأتمتع برفقتها لأسباب شتى، وأنا أحب ان أسعدها بطرق كثيرة وليس جنسياً فقط. في هذه الأثناء كان قد اتضح ان زواجي لن يستمر، وربما كان فارق السنّ بعض السبب. بأية حال، كنت منزعجاً من فشل هذا الزواج وكنت أنفّس عن خيبتي بطرق أخرى.

لماذا اخترت الاقامة في لندن

في الوقت الذي عدنا إلى المانيا، كان رأيي قد استقر على أمرين: ان أحصل على الطلاق وان انتقل للاقامة في لندن. فمبعزل عن عشقي للمدينة، كنت قد تعلمت خلال الوقت ان لندن هي المكان حيث تجري أكثر عمليات تجارة السلاح في العالم، لأن تجارة السلاح ليست مخالفة للقانون في بريطانيا كما هي في بعض الدول الأخرى. ففي المانيا مثلاً، يحتاج المرء لترخيص لمجرّد اجراء المعاملات الكتابية. أما في بريطانيا فإنك تستطيع ان تفعل ما تشاء ما دمت تعمل كسمسار فقط ولا تحتفظ بمخزون من السلاح ـ إذا رغبت في ذلك فأنت بحاجة إلى موقف خاص وحماية أمنية. كما ان هناك أمر آخر يميّز لندن، وهو ان العرب، الذين هم أفضل زبائن سوق السلاح غير الشرعي، يرتاحون لوجودهم في لندن أكثر من معظم المدن في الغرب.

إن السلاح متوفر طبعاً للجيوش عبر عمليات شراء تقليدية من دولة لدولة. ولكن سببين رئيسيين يجعلان الكثيرين يفضلون التجار الأفراد: **أولهما**، ان تزويد دولة ما بالسلاح هو اعلان دعم لنظام تلك الدولة ـ وفي بعض الحالات قد يسبّب ذلك حَرَجاً، وكان هذا الذي فرض على الولايات المتحدة اسلوب عملها في تزويد ايران بالسلاح. أما السبب **الثاني** فهو صعوبة الحصول على عمولات من صفقات رسمية فوق الشبهات، ومع المبالغ الطائلة التي تتناقلها الأيدي، يظن كثير من الناس ان لهم الحق بحصة محترمة.

إن الكثير من تجار السلاح الذين تنقصهم الخبرة يفسدون الصفقات بسبب العمولة.

عندما تبحث صفقة مع مسؤول حكومي من الشرق الأوسط، يجب الا تتطرق إلى موضوع عمولته أبداً. إذا فعلت، قد ينتهي بك الأمر إلى السجن، وحتى لو لم يحصل ذلك فإن الصفقة ستلغى دون شك. إن الوقت المناسب لذكر الموضوع هو بعد إنهاء كافة التفاصيل الأخرى، وعندها تقول بأنك ترغب في تعيين وكيل محلي لمتابعة الأمر من تلك الجهة، وهل يعرف زبونك الشركة او الشخص المناسب؟ سيعطيك هو اسم شركة يديرها بالتأكيد أحد أقربائه أو شركائه. وهكذا يبقى كل شيء داخل العائلة ـ وفي نفس الوقت، فوق الشبهات.

أبدت دورين معارضتها للطلاق ولكنني أقنعتها بفكرة الانتقال إلى لندن، وأخبرتها بأنني سأنتقل إلى هناك أولاً للبحث عن عمل، واتصلت بمؤسسة جين Jane البريطانية للنشر والمتخصصة بالأمور العسكرية والتي تصدر سلسلة من الكتب مليئة بالمعلومات عن الأسلحة في العالم. أبدى المسؤولون في مؤسسة 'جين' اهتمامهم وطلبوا مني الذهاب إلى لندن لمقابلتهم. كانوا سيبدأون اصدار مجلة جديدة باسم «جينز ديفنس ويكلي» ويريدون مني تسويقها في المانيا والنمسا مع ان مقرّي سيكون في لندن.

كنت أقيم في فندق «رويال غاردن» في حيّ كنسنغتون، وفي المساء كنت أذهب إلى المراقص لمقابلة الفتيات. قبل عودتي إلى المانيا بأربعة أيام، ذهبت إلى بار قريب من الفندق، وبينما كنت أتناول شرابي واقفاً على البار، لاحظت امرأتين شابتين من تايلاند تجلسان إلى طاولة وتتحدثان بلغتهما. كانت احداهن جميلة والأخرى عادية ـ كنت أجد هذا الأمر يحدث غالباً عندما تخرج فتاتان سوية، وفي كل الأحوال كان الطريق إلى الجميلة يمر عبر العادية.

ذهبت الجميلة إلى الحمام، فجلست إلى طاولتهن وبدأت الحديث مع الأخرى، التي قامت بتعريفي إلى رفيقتها عندما عادت. كان اسمها 'نوا' واستطعت اقناعها بالتخلص من مرافقتها. أوصلنا المرافقة إلى بيتها وأخذت نوا إلى مرقص «ثيرزداي»، حيث بقينا حتى وقت الاقفال، في الثالثة والنصف صباحاً.

قمت بإيصال نوا إلى منزلها في «مايدا فايل»، وسألتها في الطريق أكثر من مرة ان ترافقني إلى غرفتي في الفندق ولكنها رفضت ووجدت انه من الأفضل ألا أحاول مرة أخرى، فالبائع الناجح يعرف متى ينسحب قليلاً إلى الوراء. إن عملية لقاء المرأة هي بالأساس عملية بيع، ولكنك هنا تبيع نفسك. ليس كل واحد منا بوسامة بول نيومان (ممثل مشهور) وبالتأكيد لم إكن أنا كذلك. وعلى هؤلاء غير المحظوظين منا ان يشقوا طريقهم إلى قلب المرأة ـ أو إلى فراشها، بالاقناع، أي بالكلام، وكانت هذه الطريقة ناجحة بالنسبة لي لأن البيع مهنتي.

ما عدا هذه المرة! جلست مع نوا في سيارتي ـ «أوبل كومودور ٥ ,٢» كنت قد قدتها من المانيا ـ وتبادلنا أطراف الحديث حتى السادسة صباحاً. كنت أحاول اقناعها بأنني أفضل

ما حدث في حياتها، المشكلة انها كانت مخطوبة، ولسخرية القدر، لرجل الماني آخر، التقته في لندن عندما كانت تعمل في فندق انتركونتيننتال. سألتني: «لماذا لا نكون أصدقاء فقط؟» فأخبرتها أنني لا يمكن ان أكتفي بصداقة امرأة جميلة لهذه الدرجة، ثم أعطيتها رقم هاتف الفندق ورقم غرفتي هناك قائلاً: «إذا بدا لك اننا قد نكون أكثر من أصدقاء، اتصلي بي ظهراً وسنرى».

عدت إلى الفندق مهدود كلياً وغرقت في النوم. أيقظتني مكالمة نْوا واتفقنا على اللقاء بعد أن أكون قد لبست ثيابي. أخذتها مشياً على الأقدام في حديقة «كوفنت». طلبت منها ان تجلس في مقهى وذهبت إلى زاوية الحديقة حيث اشتريت لها باقة من الورود الحمراء. كان هذا اسلوباً ناجحاً دوماً، حتى قيل ان الزهور هي مفتاح قلب المرأة وهذا صحيح. كان تأثير الزهور واضحاً ولكنني أدركت بعد فترة بأنني تورطت معها عاطفياً. أمضينا الأيام الأربعة التالية سوية حتى حان موعد عودتي إلى المانيا. أخذت رقم هاتفها وأعطيتها رقم هاتفي في المكتب لأنني كنت لا أزال أعيش مع دورين. في المانيا استقلت من وظيفتي اعتباراً من آخر السنة وأقنعت دورين بأن عليّ الذهاب إلى لندن بنفسي لمدة سنة على الأقل: وإن باستطاعتها ان تلحق بي بعد ذلك. كنت أحاول الانفصال دون ايذاء شعورها.

درجت على الاتصال بـ نْوا بانتظام كما كانت هي تفعل أيضاً، وكان من المقرر ان اغادر المانيا إلى لندن في رأس السنة. ولكن نْوا اتصلت قبل الميلاد بأيام لتبشرني بأنها قادمة إلى المانيا. تظاهرت بالسرور ولكن الحقيقة ان قرار نْوا خلق مشكلة عويصة. كنت لا أزال أساكن زوجتي ولم تكن نْوا تعرف بأمر زواجي، وإذا أخبرتها بألّا تأتي ستساورها الريبة.

خطرت لي فكرة خطة: كان لزميل لي في الشركة منزل في بون ولكنه لا يزال مقيماً مع والديه في مدينة آخن، فسألته: «هل ستذهب لقضاء الميلاد مع أهلك؟»

فأجاب بالايجاب. وعدت أسأله: «متى؟»

«خلال يومين»

«لماذا لا يكون ذلك في الغد؟ هاك ٣٠٠ مارك واعطني مفتاح المنزل». أدرك حاجتي للمفتاح فسلّمني إياه وهو يبتسم.

أخبرت دورين بأنني سأغادر البلدة لمدة اسبوع في عمل، وعدت إلى البيت حيث أعددت حقيبتي وأخذتها إلى الشقة في بون ثم ذهبت إلى المطار لاستقبال نْوا. طلبت من الموظفين في الشركة بأن يخبروا زوجتي إذا اتصلت بأنني مسافر. المدهش ان الخطة نجحت لدرجة انني استطعت ان أمضي قسماً من ليلة الميلاد مع نْوا، والقسم الآخر مع أهلي ـ مع انني اضطررت لتناول أربع وجبات دسمة كبيرة، والتنقل بين بون وكولونيا في رحلات مكوكية عديدة ومنهكة. كان الأمر يبدو وكأنه مشهد من فيلم جاك تاتي. وأحسست بارتياح

كبير عندما غادرت مع نْوا ليلة الميلاد إلى لندن حيث أقمنا في فندق متواضع بالقرب من رويال غاردن.

كان الوقت كانون الأول، ولم أكن لأبدأ عملي مع مؤسسة جين قبل حزيران. عملت في فترة الستة أشهر هذه على إقامة اتصالات في أوساط تجارة السلاح والاعداد لصفقات محتملة. ولكن مشكلة هذا النوع من الأعمال انه يحتاج للوقت، فلا شيء يحدث في مدى شهر واحد، وهكذا استخدمت المهارات التي اكتسبتها في الجيش في قيادة الشاحنات للحصول على مصاريفي والمحافظة على ما وفرته سابقاً.

مهارات الخدمة العسكرية في تجارة السلاح

سجّلت اسمي في مكتب لسائقي الشاحنات مهمّته تأمين الأعمال للسائقين مثلي. كنت أتصل بهم فيعطوني تفاصيل مهمتي لليوم التالي. هناك مهمة لا أزال أذكرها جيداً. كانت تعليماتي تقضي بأن أتوجه في السادسة صباحاً إلى فناء قريب من «اليفانت وكاسل» في جنوبي لندن، وبينما كنت أقود سيارتي حول مستديرة كبيرة في طريقي إلى المكان المعين، مرّ رجل يقول سيارة جاكوار من امامي بسرعة مما اضطرني إلى استخدام الفرامل لأتفادى الاصطدام به. هززت قبضتي باتجاهه ثم التصقت بمؤخرة سيارته وبدأت أقوم بحركات مضحكة، فثار غضباً، ولكنني كنت فرحاً بنفسي حتى لاحظت انه استدار إلى نفس الفناء الذي كنت أقصده. وزاد هَلَعي عندما اكتشفت، بعد تقديم نفسي، بأنه الرئيس المسؤول عن توزيع المهمات، وكان واضحاً انه لم ير الجانب المضحك للحادثة.

صرخ في وجهي قائلاً: «آمل ان تقود شاحنتي أفضل مما تقود سيارتك. الشاحنة المخصصة لك هي الأخيرة في صف السيارات هذا».

كان هناك صفّ من حوالي ثلاثين شاحنة جديدة تقريباً من طراز «ڤولڤو» مع قمرات للسائقين مجهّزة بصورة جيدة، ولكن السيارة الأخيرة في الصف، كانت سيارة قديمة في حالة سيئة من طراز ليلاند. كانت أسوأ سيارة في الفناء.

كانت مهمتي ان أقود الشاحنة إلى مخزن قرب الطريق الدائري الشمالي حيث يتم تحميلها بحوالي ثلاثين طناً من عصير البرتقال المجمّد، ثم أقوم بتسليم الحمولة إلى مكان ما في شمالي لندن، بَدَت الشاحنة وكأنها مستاءة من حمولتها، وكانت تئن جاهدة عند صعود أي منحدر مهما كان صغيراً وكانت قيادتها أمراً مخيفاً. كان طريقي يمرّ في قرية على تلّة شديدة الانحدار وكان حمار وحشي يعبر الطريق في منتصف المسافة إلى أعلى التلة. أدركت انني إذا اضطررت لايقاف الشاحنة فلن تكون هناك قوة على الأرض تستطيع تحريكها مرة ثانية، وزيادة في سوء حظي، تحركت فجأة سيدة عجوز لتعبر الشارع فتوقفت. وعندما خلا الطريق وحاولت ان أتابع رحلتي رفضت الشاحنة ان تتحرك. كان المحرك يعمل بأقصى

طاقته ويصدر ضجيجاً صاخباً. ولكن دواليب الشاحنة بقيت ثابتة لا تتزحزح من مكانها. كنت عالقاً في منتصف الطريق ولم يكن باستطاعتي عمل شيء.

كان الطريق يستقبل الكثير من السيارات، وسرعان ما تكوّن صف طويل من المركبات خلفي. نظرت في المرآة فلاحظت ان طرف الصف قد امتد خارج مدى الرؤية وكان السائقون يطلقون أبواق سياراتهم غاضبين، وفجأة مدّ رجل شرطة رأسه إلى داخل قمرة الشاحنة وسألني: «هل تعاني من شيء؟ يبدو أنك سببت اختناقاً في السير».

كنت قد تعلمت من تجاربي ان التصرف الفظ مع رجال الشرطة لا يؤتي فائدة، وعمدت إلى تحاشي الاحتكاك معهم إلاّ عند الضرورة، ولذلك لم أجب الشرطي بسخرية، بل شرحت له بكل تهذيب ما حدث.

«عليك ان تتراجع خلفياً إلى أسفل التلة، أليس كذلك، سيدي؟»

كان عملاً شاقاً. وترتّب على الشرطي ان يحرك عشرات السيارات المصطفة خلفي، وأخيراً تمكنت من الرجوع نزولاً إلى أسفل التلة وأوقفتها إلى جانب الطريق ثم اتصلت هاتفياً بالرجل في المخزن.

- «إن شاحنتك معطلة ومتوقفة هنا»، أخبرته بغضب وأضفت: «بإمكانك ان تأتي وتستلمها متى شئت»، ثم ركبت سيارة تاكسي وعدت إلى المنزل.

* * *

مؤسسة «جين» ومفتاح سوق السلاح

عملت في قيادة الشاحنات لمدة شهرين وكنت دائماً أخشى ان يراني أحد عملائي ويتعرف إليّ، لأن ذلك لم يكن ليحسّن صورتي أبداً. أخيراً في حزيران ١٩٨١ بدأت العمل مع 'جين'. وهي شركة بريطانية قديمة جداً وراسخة الجذور. كان مقرها في «سيتي رود»، بالقرب من مركز المدينة المالي باتجاه الشمال. وكانت نموذج الشركة التقليدية وتمارس أعمالها بطرق ووسائل عتيقة. فأتيت أنا بأفكار مختلفة، كرجل أعمال حديث يؤمن بالتجديد والاقدام، وكنت مؤمناً ان المكان بحاجة إلى تغييرات جذرية مما أدى بقدامى العاملين في المؤسسة إلى معاداتي. كانوا في 'جين' يعتبرون أنفسهم بالنسبة لسوق السلاح، كما الرولز رويس بالنسبة للسيارات، وانهم لذلك لا يحتاجون للدعاية لأنفسهم أو للاهتمام بالتسويق، فأخبرتهم ان شركة الرولز رويس نفسها مضطرة للدعاية لتقنع الناس بما تعرضه لهم.

عندما التحقت بالشركة كانت مداخيلهم من المانيا لا تتجاوز ٤٥ ألف دولار سنوياً، فأخبرتهم ان عليّ إذا أردت مضاعفة هذا الرقم ان أقوم برحلات ترويجية وتسويقية وحضور معارض متخصصة، وفوق كل شيء انني بحاجة لحساب مصاريف، كان هذا مخالفاً

لعاداتهم وسبّب بعض التساؤلات ولكنهم أذعنوا بتردد. لم يكن المبلغ كبيراً ولكنني افترضت انه سيزداد مع نجاحي.

حققت بالفعل نجاحاً مثيراً مع جينز ديفنس ويكلي، واستطعت الحصول على ميزانية ضخمة لنشاطاتي. رفعت مبيعات الاعلانات في المانيا إلى ٧٥٠ ألف دولار في مدى بضعة شهور. كما عملت على التوسع في أعمالي الخاصة بالسفر إلى المانيا عدة مرات وإلى معارض أسلحة دولية، حيث كنت أدعو عملائي وعملاء جين المحتملين إلى حفلات ترفيهية. إن دعوة الزبائن إلى عشاء جيّد ومكلف، جزء حيوي من تقنيات البيع، وبالأخص إذا كنت تتعامل مع أفراد من الادارة الوسطى، لأنك بحاجة لأن تشعرهم بأهميتهم: وهذا ما يحبون. هذا أمر عادي في عملنا، ولكن اقناع رؤسائي بأن النتائج تستحق المصاريف الاضافية، كان شاقاً.

الصفقة الأولى: أحذية عسكريّة

بعد ستة أشهر من عملي مع جين أتت اللحظة الكبرى - أولى صفقاتي الخاصة الناجحة. إن المعدات العسكرية ليست دائماً أسلحة، فبالامكان تحقيق أرباح أيضاً من لوازم التموين العسكرية. كانت أول صفقة أجريها هي تزويد الجيش السعودي بخمسين ألف زوج من الأحذية العسكرية. وكان صديق من المانيا قد أمّن لي الاتصال مع السعوديين. سألني إذا كنت أستطيع تأمين الأحذية فقلت له بالطبع أستطيع.

كنت، كبائع ناجح، أعرف ان ردة فعلك الأولى لأي طلب تتلقاه يجب ان تكون «نعم»، حتى لو لم تكن لديك أية فكرة عن كيفية تحقيق الصفقة.

خابرت ايان هوغ، رئيس تحرير مجلة «جينز ديفنس ويكلي» الذي أوصلني إلى شركة ج. ر. وودفورد، في نورفيتش، المتخصصة باللوازم العسكرية ذات النوعية الجيدة والرخيصة الثمن، وكانت أكثر بضائعها تأتي من تايوان. اتصلت بالشركة وتحدثت إلى جيف وودفورد، عرّفته بنفسي وطلبت عرضاً للأسعار. بعد حوالي اسبوع عرض سعر ١٤ دولاراً للزوج الواحد. أضفت دولارين لنفسي وسلمت السعر لصديقي الالماني الذي أوصله بدوره للسعوديين. لم يحدث شيء لفترة طويلة وهو أمر عادي في هذا المجال: تتقدم بعرض أسعار وتنتظر أشهراً، وأنا انسان لا أعد نقودي قبل وصولها إلى حسابي المصرفي. كنت قلقاً لأنها الصفقة الأولى وكنت آمل بنجاحها ولكنني لم أدع توقعاتي تأخذني بعيداً.

أخيراً وصلني طلب لتقديم عيّنات، وكانت العيّنات تبدو جيدة لعيني. بعثتها إلى المانيا مع مراسل، وحدث ان المراسل أضاع العيّنات مما سبب خيبة أمل كبيرة لي، ولكنني، ومع الازعاج الذي عانيته، كنت اختزن خبرات قيّمة في مواجهة خيبات أمل أكبر هي بعض ثمن العمل في تجارة السلاح. بعد أربعة أسابيع سمعت ان السعوديين يقارنون العيّنات التي أرسلتها مع عيّنات أخرى، وبعد اسبوعين، علمت اننا فزنا بالطلبية.

ولكن فرحتي سرعان ما خبت عندما سمعت عن العروض المنافسة. كانت شركة اميركية قد عرضت أحذية ذات مستوى متدنٍ بسعر ٢٤ دولاراً للزوج، أما الكوريون فقد عرضوا أسعاراً أقل، ولكن كالعادة، كانت النوعية متدنية جداً. كان هذا يعني انه كان بإمكاني أن أحصل على العقد حتى لو أضفت أربعة أو خمسة دولارات أخرى ـ ولربحت ٢٠٠ ألف دولار اضافية من الصفقة. ولكنها كلها جزء من اللعبة وهي السبب في ان جميع العاملين يحرصون على سريّة التفاصيل. والتجار لا يخبرون الزبائن أبداً عن مصادرهم، لئلا يقوم هؤلاء بالعمل مباشرة مع هذه المصادر. هكذا حرص زبائني الالمان على ألاّ تكون لي أية صلة مباشرة مع السعوديين، كما حرصت انا على ألاّ يعرف الالمان مصدر الأحذية. انك تتعامل بالمال، وقد تعلمت شيئاً أساسياً منذ زمن طويل: لا تثق بانسان آخر عندما يتعلّق الأمر بالمال.

ولهذا تكون طريقة دفع النقود في كل هذه الصفقات ـ لوازم عسكرية كانت أو أسلحة ـ معقّدة جداً. تبدأ الصفقة بطَلَب من المشتري للتاجر، الذي يردّ بعرض اسعار، ويقوم المشتري عندها بالتأكد من البضاعة المعروضة وجدّية التاجر الذي يعرضها ـ أي التأكد من ان التاجر ـ يستطيع الوصول إلى مصدر البضاعة. بعد هذا يقوم المشتري باصدار رسالة اعتماد مسبقة وهذه كناية عن رسالة بالتلكس من المصرف الذي يتعامل معه إلى المصرف الذي يحدده التاجر تفيد بأنهم مستعدون وقادرون على فتح اعتماد مصرفي بقيمة معيّنة عند تسلّمهم كفالة حسن انجاز، وتكون عادة ٥٪ من قيمة العقد، يتم استيفاؤها إذا عجز التاجر عن تسليم البضاعة. عندها يرسل المصرف الذي يمثل التاجر إلى المصرف الذي يمثّل المشتري، رسالة تلكس تفيد ان كفالة الانجاز بحوزتهم وانهم مستعدون للمبادلة. ويتمّ تبادل الاعتماد المصرفي وكفالة الانجاز بين المصرفين وبهذا تكون الصفقة قد أبرمت.

ان الاعتمادات المصرفية تصبح قيد التحصيل عند ابراز بوليصة شحن تثبت ان البضاعة قد شحنت على باخرة متّجهة إلى مرفأ اختاره المشتري، ولكن حتى هذه الضمانات ليست محكمة كلياً، كما اكتشف كثير من المشترين، وعلى حسابهم، عندما تصل الباخرة وهي لا تحمل البضاعة المتفق عليها. المشكلة ان عدداً قليلاً من البنوك تقبل اعتماداً يصف البضاعة على انها '٥٠ ألف قذيفة مدفع عيار ١٥٥' أو ما شابه ذلك. ومع ان البنوك تكون على اطلاع على طبيعة الصفقات، إلاّ انها لا تريد ان تتورط فيها رسمياً، وتحاول ان تحمي نفسها. لذلك، ولاخفاء طبيعة الحمولة الحقيقية فقد ينص العقد على ان الحمولة هي ٢٠ ألف طن من القرميد ـ القرميد الغالي الثمن ـ أو قطع غيار وحتى، كما علمت في احدى الحالات، بريلكريم (مصفّف للشعر).

كانت دول كثيرة ـ ايران بالأخص ـ قد تعرضت لعمليات احتيال كبيرة مبنية على هذه الوثائق المزوّرة، من عقود واعتمادات. إذ يقوم الزبون بتفحص الأسلحة في المرفأ عند شحنها ويجد كل شيء صحيحاً. لقد انجز التاجر، ولهذا يستعيد كفالة الانجاز ويقبض قيمة

الاعتماد. ولكن في الوقت الذي تصل خلاله الباخرة إلى مرفأ التفريغ، تكون الشحنة قد أبدلت، بطريقة غامضة، لتلائم البضاعة البريئة المذكورة في الاعتماد ـ قرميد أو بريلكريم. لقد تمَّ إبدال الشحنة في أعالي البحار وليس للمشتري أي حق قانوني بالمطالبة لأن العقد قد تمَّ انجازه، من الناحية الفنية على الأقل، والنتيجة ان ايران قد يكون لديها الآن كميات من البريلكريم تكفيها لمئات السنين.

لم يكن هناك ضرورة لعملية التغطية في الأحذية للسعودية فقد فتح السعوديون اعتماداً للشركة الالمانية، التي قامت بدورها بفتح اعتماد قابل للتحويل لدى المصرف الذي أتعامل معه، وقمت أنا بتحويل المبلغ إلى مصدر البضاعة لكن تسليم الأحذية تأخر ثلاثة أشهر ـ فاضطررت لإنتظار حصتي البالغة ٤٥ ألف دولار المدّة نفسها. عندما تسلمت المبلغ أخيراً، دعوت نوا إلى عشاء مع الشامبانيا في نادي السفراء.

لقاء في فيينا .. على العشاء

بينما كانت هذه الصفقة تغلي على نار خفيفة، التقيت صدفة بالرجل الذي سيصبح فيما بعد شريكي. حصل اللقاء في ختام رحلة عمل مثيرة إلى فيينا، كان لها دور كبير في إثبات وجهة نظري بأن تجارة السلاح هي جواز مرور للحياة الجيدة.

كنت عادة استضيف الزبائن على طعام الغداء ولكنني هذه المرة، في العاصمة النمسوية، كنت ضيفاً على رجل أعمال أتى برفقة سكرتيرته. كانت باهرة الجمال ولكنني أمضيت معظم الوقت أتحدث للرجل عن أهمية الاعلان في جينز، وعن بعض أجهزة الاتصالات التي قد يستطيع هو تأمينها لأحد زبائني. كنت أقيم في فندق هيلتون ودعوت رجل الأعمال وسكرتيرته بعد الغداء إلى تناول كأس معي في الفندق. كان الرجل مضطراً للعودة إلى مكتبه ولكنني أخذت السكرتيرة معي. قبل ان تغادر هي أيضاً، سألتها ان كان لديها ما تفعله ذلك المساء فقالت ان لا شيء بالتحديد فدعوتها إلى العشاء.

في السادسة ذهبت إلى البار، القريب من بهو الفندق، حيث خصصت مساحة معينة لحفلة لضيوف نادي الهيلتون. كنت عضواً في النادي ـ وهذا نوع من التكريم لزبائن الفندق الدائمين ـ وبينما أتحدّث إلى بعض مسؤولي الفندق، استهلكت أكثر من ستة كؤوس كبيرة من الجن مع الصودا دون ان ألاحظ، وكان الشراب على حساب الفندق بأي حال. فجأة رَبَت أحدهم على كتفي.

وسألتني ضيفتي: «هل نسيت دعوة العشاء؟» في الواقع كنت قد نسيت، ولكنني أنكرت ذلك بانفعال. وكان من الصعب ان أنساها بسرعة ثانية! فقد كانت ترتدي طقماً جلدياً أسود هو الأكثر إثارة وإغراء مما رأيت في حياتي.

اقترحت هي ان نذهب إلى مطعم روسي يدعى «فاير بيرد»، وهو مكان بغاية الاناقة مع موائد خشبية وفرقة موسيقية. حالما جلسنا، احضروا زجاجة من الفودكا المثلجة لكل

منا، وكان هناك مازات منوعة ثم طبق البورتش. في هذا الوقت كان السكر قد تعتعني فطلبت من النادل: «نصف كيلوغرام من كافيار الحوت الأبيض (أغلى أنواع الكافيار)، Blinis ساخنة مع كريما محمّضة وشامبانيا روسية».

في لحظة ما أثناء العشاء، لم أعد أعي شيئاً. كل ما أذكره انني استفقت في اليوم التالي مع صداع رهيب وأحسست بشيء يتحرك في الفراش بجانبي. كانت تتكىء على أحد ذراعيها وترمقني بنظرات تحدٍ. كنت قد لاحظت سابقاً انها ممتلئة الجسم ـ فهذه الأمور لا تخفاني ـ ولكنني لم أدرك حتى الآن الصدر العامر الذي تملكه. دنوت لألمس نهديها فابتسمت وكأنها مصممة على ان لا تضيع الفرصة سدى بالرغم من إفراطي في الشراب. نسيت صداعي على مدى ساعتين باذلاً جهدي للاستمتاع قدر استطاعتي. كانت امرأة متحررة كلياً من عقد الجنس وجعلت من ذلك الصباح شيئاً يستحق ان يُختزن في الذاكرة. ثم اكتشفت فاتورة المطعم الروسي المذهلة في جيبي مما جعلني أتأكد مرة أخرى انني لن أنس هذه المرأة.

كان هناك ملحق لمغامرتي. بعد يومين، عندما عدت إلى جينز، وجدت الكل يبتسم لي، إذ كان بانتظاري رسالة تلكس من فيينا تقول: «حبيبي! لقد نسيت عدساتي اللاصقة في غرفتك. هل بإمكانك إعادتها لي؟» كنت في جينز قد بدأت أكتسب سمعة زير نساء، وأتى التلكس يثبتها، ومع ان اجراءات طلاقي من دورين كانت قد انتهت إلاّ انني لم أكن حراً، إذ انني كنت أساكن نوا.

* * *

كيف التقيت جون سوندرز

قابلت جون سوندرز أثناء رحلة العودة من فيينا على متن طائرة الخطوط الجوية البريطانية. من عادتي عندما أسافر بالطائرة، أن اختار مقعداً بجانب الممر بسبب طول قامتي الذي لا يسمح لي بتحريك رجلي أثناء السفر حتى في درجة رجال الأعمال. لاحظت عبر الممر رجلاً صغير الحجم لا يتجاوز طوله ١٦٠ سنتيمتراً، شديد النحافة مع شعر خفيف، يضع نظارتين ويدخن بكثرة. بجانبه جلس رجل يبدو من ملامحه انه شرق أوسطي. كان الرجل الصغير يلبس ساعة «بياجيه» غالية الثمن، أما جاره فكان يلبس ساعة رولكس ماسية ومجوهرات ذهبية أيضاً. كبائع في مجال كل اسعاره غالية، تعلمت أن ألاحظ هذه التفاصيل الصغيرة: كنت أول ما أنظر إلى حذاء الرجل وساعته لاستدلّ منها على منزلة الرجل التجارية.

كانت رائحة المال تفوح بالفعل من تلك الناحية، وأدركت انني قد أكون على أبواب فرصة ثمينة، فعرفتها على نفسي.

قال الرجل الصغير إنه يُدعى جون سوندرز وانه عاش في الشرق الأوسط لمدة ثمانية

عشرة عاماً، أما الآخر فكان أحد أقربائه من لبنان، واكتشفت لاحقاً ان سوندرز متزوج من لبنانية، والعادة في الشرق الأوسط ان تتم جميع الصفقات عبر صلات عائلية.

سألني سوندرز عن طبيعة عملي، فأخبرته انني تاجر سلاح.

فقال: «يبدو هذا مثيراً للاهتمام، فنحن قادمون إلى لندن لشراء معدات عسكرية للمسيحيين في لبنان. هل لديك أية مصادر؟» فأجبت بالايجاب.

قال سوندرز انه كان يعمل، حتى ستة أشهر خلت، في دولة الإمارات العربية المتحدة، وكانت مهمته شراء المعدات للقوات المسلحة هناك، وهو الآن يعمل بمفرده ويحاول تأمين بعض احتياجات المسيحيين في لبنان. لم يعطني أية تفاصيل، مجرد الهراء الذي تسمعه عادة في هذه التجارة عن نوعية الصفقات التي تجريها والمبالغ التي تتقاضاها. اتفقنا على ان يكالمني في اليوم التالي لنرى ماذا يمكن عمله سوية. عندما اتصل بي دعاني إلى تناول العشاء معه في ناديه: نادي السفراء. كنت قد سمعت عن النادي من قبل ومررت بجانبه مراراً ولكنني لم أدع إليه أبداً. كل ما أعرفه كان ما سمعت عن أسعاره المرتفعة: أغلى ما تستطيع تحمله كما كنت اعتقد، وكنت أكثر من مسرور بدعوتي إلى النادي ـ كنت مذهولاً.

جلسنا قبل العشاء قرب المدفأة في قاعة المكتبة بجدرانها المغطّاة بخشب البلوط، وسلّمني سوندرز ورقة كانت بالفعل لائحة مشترياتي:

٢٠٠ ألف قذيفة هاون عيار ٦٠ مم.
١٠٠ ألف قذيفة هاون عيار ٨١ مم.
٢٠٠٠ مدفع هاون عيار ٦٠ مم.
١٠٠ مدفع هاون عيار ٨١ مم.
١٥٠ ألف قذيفة مدفع عيار ١٥٥ مم.

بالاضافة إلى بعض اللوازم العسكرية وبنود أخرى أصغر. كانت قيمة اللائحة الاجمالية تبلغ حوالي ٢٤,٥ مليون دولار. بعد ان درست اللائحة أخبرته بأنني مستعد لتأمين المطلوب. لم أخبره انني لم أجر أية صفقة سلاح بعد. لو قلت له: «لا» أو «سنرى» لفقد اهتمامه بي. كنت في وضع اضطررت فيه لاعطاء صورة القادر على انجاز الصفقة، ثم العمل على انجازها.

تناولنا عشاء لذيذاً ـ قطعتي شاتوبريان مع النبيذ الذي يشربه عادة ـ الأحمر المعتّق. كنا قد شربنا حوالي سبعة كؤوس من الجن قبل ذلك ثم الحقناها بكأسين من الكونياك الفرنسي. تحدثنا عن الصفقة وتفاصيلها الفَنية، ووعدته ان أقدم له عرض الأسعار ويقوم هو بتسليمه إلى جماعته في لبنان لدراسته وإعداد الطلبية. كان الأمر يبدو جدياً ولكنني، كما قلت سابقاً، تعلمت ألّا أعدّ نقودي قبل أن تصبح في حسابي المصرفي.

حـديـث عـن سـرّ المهنـة!

تحت تأثير الشراب، أخبرني جون ببعض أسرار مهنته في جيش الامارات العربية المتحدة. كانوا عندما يطرحون مناقصة لعقد معين، تتقدم خمس أو ست شركات بتقديم عروضها وكان هو مقابل عمولات كبيرة، يطلع احدى هذه الشركات على محتويات عروض الشركات الأخرى المختومة ـ الأسعار، الشروط . . . الخ . ـ حتى تستطيع هذه الشركة منافسة باقي الشركات، وكان يتقاسم مع رئيسه. **هذه هي طريقة العمل في الشرق الأوسط.**

كان جون ثرياً. تقدر ثروته بمليون جنيه استرليني، وكان يملك منزلاً في منطقة شيرلي على مقربة من كرويدون، حيث يعيش مع زوجته وولديه، ولكنه أصيب بداء السكري خلال وجوده في الشرق الأوسط. أخبرني انه لديه صلات واسعة في الإمارات ودول الخليج الأخرى وذكر رجلاً في أبو ظبي يدعى حميد **الشمزي** كان عقيداً في الجيش ولا يزال عضواً نشيطاً في المخابرات.

استمر العشاء حتى منتصف الليل تقريباً. وأمضيت اليومين التاليين اتصل بمصادري لأؤمن له عرض الأسعار المتفق عليه. حصلت أولاً على اسعار لمدافع الهاون وقذائفها من شركة نمساوية كنت قد عرفتها لسنوات خلال عملي مع «مونش» و «جينز»، وحصلت من مصادر أخرى على أسعار لباقي بنود اللائحة.

إن الحصول على عرض أسعار للأسلحة ليس سهلاً كما يبدو، عليك أولاً ان تقنع المصدر انك عميل حقيقي وجدّي ولا يمكنك ان تفعل ذلك إلاّ إذا كنت معروفاً لديه. خلقت أثناء اتصالاتي انطباعاً عن جدّية الطلب، فحصلت على عروض الأسعار. اتصلت بجون وأخبرته: «لقد تجمعت لديَّ كل الأسعار. أين نلتقي؟» في نادي السفراء ثانية: على الغداء هذه المرة. أعطيته العرض وبدا عليه الارتياح، كانت الأسعار معقولة والبضاعة متوفرة ولكن مدة التسليم كانت بعيدة نوعاً ما ـ من ثلاثة إلى ستة أشهر، وهي عادية إذا كنت تشتري من المصنع وليس من مخزون جاهز، لكن الزبائن هم دائماً في عجلة من أمرهم.

لبنـان: طلبيّـة لـم تتـمّ

أخبرني جون انه سيذهب إلى لبنان قريباً، وسيسلم العرض لجيش المسيحيين، ثم ولأول مرة تناقشنا في امكانية قيام علاقة عمل بيننا على أساس دائم. كانت الفكرة فكرتي، وكنت أسعى لاقناع سوندرز بأن من الأفضل ان نكون شركاء. كنت قد فكّرت في الأمر ملياً: لدي رجل هنا يملك أمرين مهمين ـ **المال والعلاقات في الشرق الأوسط** حيث يوجد الكثير من الزبائن لما أبيع ـ ويتوق لمجالات عمل جديدة. كما انني سرعان ما أحصل على بعض المال من صفقة الأحذية ـ مع ان هذا المال ليس بمقدار مما يملكه جون ـ ولي علاقاتي

مع مصادر السلاح، وسيكون الواحد منّا ذا قيمة كبيرة بالنسبة للآخر. وبالنسبة لي، أستطيع أن أترك وظيفتي مع جينز، وأؤدي لهم نفس العمل على أساس حرّ دون راتب، بينما أدير شركتي في نفس الوقت. كان الأمر يستحق ان يناقش.

غاب جون في لبنان لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع، ذهبت خلالها في رحلة أربعة أيام إلى جنوا، حيث قابلت فيتوريو الذي يعمل وكيلاً لجينز في ايطاليا على أساس حرّ. كان يمثل حوالي ثلاثين دار نشر، ولديه مكتب أنيق في وسط جنوا يعمل فيه ستة موظفين. كان الانطباع الذي كونه فيتوريو لديَّ ممتازاً: كان واضحاً أن أموالاً كبيرة تتدفق إلى حسابه. أخبرته بأنني أفكر بإنشاء شركة خاصة بي مثل شركته، فقال إنه على استعداد لمساعدتي في الحصول على أعمال من منشورات عسكرية فرنسية واسبانية، وكنت أعرف ان مجال عملي يتطلب معارف لأن كل شيء يتمّ بناء على توصيات الأصدقاء والمعارف.

كنت أرى احتمالين للعمل: **الأول**، ان أتفرغ كلياً لتجارة السلاح: ولكن، ولأن اتمام الصفقات يحتاج لوقت طويل، ولما لم يكن لدي موارد مالية كافية لأنتظر، **كنت أسعى وراء مدخول منتظم**. إنك لا تعرف متى تنجح صفقة ما، ولذلك قررت ان انشىء خطين متوازيين من الأعمال: بائع اعلانات في منشورات عسكرية وتاجر أسلحة ولوازم عسكرية.

كعميل حر، يكون دخلك أساساً ٣٠٪ من قيمة الاعلانات التي تبيعها، ولكنك عادة تدفع نصف هذا المبلغ للوكالة الاعلانية التي تحجز مساحة الاعلان وتقوم بتصميمه ووضع اللمسات الفنية، مما يترك لك نسبة ١٥٪ - ولم يكن هذا سيئاً بالنسبة لي لأنني كنت أتوقع ان تبلغ مداخيل جينز في العام ٤٠٠ ألف جنيه استرليني. أما الحسابات الأربعة الأخرى فكانت أصغر وتبلغ بمجموعها حوالي ٢٠٠ ألف جنيه استرليني، بالاضافة إلى امكانية نمو هذه المداخيل وتوسع محتمل إلى حقل الاعلانات التجارية. وهكذا توفر لي نظرياً مدخول لا يقلّ عن ١٠٠ ألف جنيه استرليني سنوياً ولم تكن هذه بداية سيئة أبداً - لكنني كنت أعتبر هذا «فتات الخبز» اقتات به، أما الدسم فكان في صفقات السلاح.

قدرت انني سأحتاج لقضاء يومين اسبوعياً لمتابعة أعمال القسم الاعلاني من الشركة، وذلك لمقابلة مدراء الشركات المعنية مرّة في العام في لندن أو المانيا وبرمجة اعلانات الشركات الكبيرة منها ومحاولة الحصول على عمل من الشركات الأصغر. أما باقي أيام الاسبوع فأستطيع استغلالها لمتابعة صفقات السلاح، بالاضافة إلى ان العمل في الاعلان سيكون تغطية مناسبة، لأن تجارة السلاح كانت لها مخاطرها وكنت أستطيع زيارة معارض السلاح والاجتماعات بحجّة عملي في حقل الاعلان ولن يشكّ أحد بأمري. المشكلة انني لم أكن استطيع العمل منفرداً لأن الشركة ستتطلب مجهودات كبيرة ولم يكن لدي رأس المال الكافي للاستعانة بموظفين أو ثلاثة.

عاد جون من لبنان دون أن يحصل على طلبية، ولكنه قال ان الأمر يبدو مؤمّلاً: والبوادر لا تزال جيدة. في النهاية فشلت الصفقة ولكن وقتاً طويلاً مرّ قبل ان نعرف ذلك.

إن اتخاذ القرار في الشرق الأوسط يأخذ دهراً وبالأخص في مكان تعمّه الفوضى مثل لبنان حيث يحتاج الأمر إلى وقت أطول. أذكر أنني، أثناء رحلة إلى الشرق الأوسط قمت بها لاحقاً، التقيت بأميركي في بار الفندق الذي أقيم فيه. كان يحتسي البيرة بجرعات كبيرة، بينما كان العرق يتصبب من جبينه، وكان يشتم لنفسه؛ كان صورة لخيبة أمل كلية.

«يا يسوع المسيح» واستمر يرددها: «يا يسوع»

فسألته: «ما قصتك؟»

أجابني: «إن الأمر يدعو للبكاء. إن الشيء الوحيد الذي تسمعه هنا هو آي بي م».

«آي بي أم؟» سألته مستغرباً: «هل تعني الشركة الأميركية؟ هل هم منافسوك؟»

فابتسم ابتسامة خالية من المرح وشرب جرعة أخرى من كأسه ثم قال لي: «كلا، أنا لا أعنيهم. **أ ب م** - هل تعرف ما هي: **انشا الله، بكره، معليش**. إنها كلمات عربية وتعني 'بإرادة الله غداً . . . ربما'. إنها كل ما تسمعه هنا».

دعوته إلى كأس جديدة. لم أكن قد تعاملت مع العرب لمدة طويلة في هذا الوقت، ولكنني كنت قد بدأت أدرك ماذا يعني.

* * *

تأسيس شركتين بدل الواحدة

حالما عاد جون جلسنا سوية وأثرت مسألة دخولنا في شراكة عمل. كنت في هذا الوقت قد أكملت دراسة الاحتمالات واقترحت ان نؤسس شركتين معاً: واحدة بريطانية للتعامل التجاري العادي والأخرى بَنمية **خارج المياه الاقليمية**. كان اسهامي في رأس المال يتكون في كل الوكالات الاعلانية التي أمثلها بمدخول سنوي يتراوح بين ٨٠ و١٢٠ ألف جنيه استرليني سنوياً، أما جون فيسهم بالنقود - كنا نتحدث عن رأس مال قدره ٣٠٠ ألف جنيه - وباتصالاته في الشرق الأوسط، وبعد أيام توصلنا إلى اتفاق حول الموضوع

كانت مهمتي الأولى اقناع جماعة جينز بتسليمي وكالاتهم بالرغم من انني سأترك وظيفتي معهم، ولم يمض عليَّ سوى عشرة أشهر. لم يكونوا متحمسين لذلك ولكنني اثبت لهم بأنهم سيكونون الرابحين بالفعل. وكان إلغاء حساب مصاريفي الكبير عاملاً مساعداً: كانوا مرتاحين لتخلّصهم من المسؤولية. بعد اسبوع من المفاوضات، نجحت في اقناع المدير العام بأن ما اقترحه هو أفضل ما يمكن ان يحدث له ولجينز ووقّعنا الاتفاقية.

أعلنّا، أنا وجون، اطلاق شركة خدمات بلّفاين المحدودة، وهي شركة جاهزة اشتريتها من على الرفّ من كومبانيز هاوس (Companies House). وكانت هذه الشركة ستكون الشركة على الأرض البريطانية وتعمل في حقل الاعلان. أما لتجارة السلاح، فقد

أسست شركة بروكيورمنت آند سايلز Procurement and Sales الدولية في باناما. وقررنا اننا لسنا باجة إلى فخامة مكاتب الحي الغربي لغلاء ايجاراتها وعدم توفر مواقف للسيارات، بالاضافة إلى انك نادراً ما تلتقي بالزبائن في المكتب وإنما في البارات والمطاعم. كل ما تحتاجه هو مكان مع سكرتيرة وجهاز تلكس وتلفون، فأقمنا مكاتبنا في شقة، سكنتها لبعض الوقت في السابق، في شارع تاينماوث في كريكلوود، وهي منطقة فقيرة في شمالي غرب لندن. كانت الشقة جزءاً من دور أرضي في منزل من الطراز الادواردي. ولم تكن عنواناً يلفت النظر، غير انني جعلته يبدو أفضل عندما أبدلت عبارة 'شقة رقم ٤' بعبارة 'جناح رقم ٤' في العنوان المطبوع على ورق الرسائل الخاصة بالشركة، وكانت مناسبة لقربها من المكان الذي أسكن فيه مع نوا في شارع آبركورن على حدود هامستدّ وميلّ هيل. صرفنا ٣ آلاف جنيه استرليني على تجهيزها بالمكاتب والقرطاسية وبطاقات شخصية وأجهزة مكتبية وبدأنا العمل.

أصبح حميد الشمزي، صديق جون، ممثلنا في أبو ظبي مع تعليمات للنظر في احتياجات القوات المسلحة، ولكنها كانت كلها صفقات صغيرة. كان لديه عقد لتزويد جيش الامارات بمئة ألف حقيبة طوارىء وكانت مدة العقد قد قاربت على الانتهاء وتحتاج لتجديد. ففكرت بأن نصنع نحن حقائب طوارىء خاصة بنا ـ حقيبة تكفي الجندي لسبعة أيام ويمكن تخزينها لمدة أربعة سنوات. مضيت أجمع المواد لملئها، ولكنني كنت بالفعل أتسوق مواد غذائية. لم أستطع الادعاء بأنها نوع حياة المغامرة والمخاطر التي كنت أحلم بها عندما بدأت العمل في هذا الحقل، وكنت أتوق لإبرام صفقتي الأولى لبيع سلاح حقيقي.

أتت الفرصة نتيجة اتصالات كنت قد أجريتها عند زيارتي الأولى لمعرض هانوفر الجوي في العام ١٩٨٤، برفقة جون. كنا نقيم في فندق ماريتايم أحد أهم مراكز الاجتماعات في المدينة. المكان الذي تقابل فيه اشخاصاً يقودونك إلى أشخاص آخرين. كان المفترض ان يقوم جون بتأمين الصفقات ولذلك اتخذته شريكاً لي. كان لا يزال في هذا الوقت يتابع عملية لبنان ولكنهم في النهاية حصلوا على الأسلحة من الكتلة الشرقية. المشكلة كانت، كما اكتشفت متأخراً، ان جون، برغم معارفه في الشرق الأوسط، لم يكن قادراً على ترجمة هذه المعرفة إلى أعمال فعلية. لم يكن يتقن عملية البيع البتة، وكنت عندما سافرت إلى أميركا في العام ١٩٨٦، على وشك الانفصال عنه واخراجه من الشركة، لأنه كان مجرد هدر للمال، إذ لم يكن ينتج شيئاً ويتقاضى نصف الأرباح.

بعد معرض هانوفر، اتصل بي صديق من المانيا يبحث عن خمسين مدفع رشاش لجيش التشيلي، فأمنتها له من مخزون جاهز في سري لانكا يملكه تاجر اسلحة بريطاني، كان السعر متدنياً لأن المدافع جاءت من مخزون جاهز واستطعت ان أحقق أرباحاً جيدة من الصفقة ـ حوالي ٣٠ ألف جنيه استرليني. ولم يكن هذا المبلغ قليلاً لصفقة بهذا الحجم ولكنني كنت سأكون مزهواً حتى ولو كان المبلغ أقل بكثير لأنها كانت صفقتي الأولى من

السلاح الحقيقي. شحنت الرشاشات من سري لانكا إلى التشيلي ولم تقترب من بريطانيا أبداً - وكذلك أرباحي!

تمَّ هذا بعد حوالي ثمانية أشهر من صفقة الأحذية السعودية، وخلال هذه الفترة كنت أعمل على صفقات أسلحة محتملة أخرى. ذاعت أخباري وصرت أتلقّى حوالي ثمانية استفسارات اسبوعياً، معظمها عبر مكالمات هاتفية حذرة. واحدة من هذه المكالمات كانت من رجل ايراني يدعى رضوي. قال ان الايرانيين يريدون شراء بذلات واقية (تحمي الجنود في حرب نووية، بكتيرية أو كيماوية)، **لأن العراقيين بدأوا باستخدام الأسلحة الكيماوية. كما تحتاج إيران إلى قذائف من عيار ١٥٥ مم ومدافع وقذائف هاون.**

اتصلت ببعض الأصدقاء الذين أكّدوا ان رضوي يعمل بصورة شرعية، فبدأت البحث عن مصادر لتزويدي بهذه المعدّات. حصلت على عرض لأسعار قذائف ١٥٥ مم من شركة الخرطوش والبارود اليونانية، أما للبدل الواقية فقد حصلت على عروض من بريطانيا ومن تايوان، ولكن النوع البريطاني من هذه اللوازم هو على لائحة البضائع التي تخضع لرخصة تصدير مُسبقة لأنها تستخدم من قبل الجيش البريطاني وتعتبر «مصنفة». أخيراً حصلت على الطلبية من تايوان.

كانت قذيفة المدفع عيار ١٥٥ مم تباع بالقطعة، بسعر يتراوح بين ٢٦٠ و٢٨٠ دولاراً للقذيفة الواحدة، وكان رَضَوي يريد شراء حوالي مئتي ألف قذيفة، لكن المشكلة مع الشركة اليونانية هي مدّة التسليم. إن واحدة من العوائق في التعامل مع القوات المسلحة الايرانية، هي عدم وجود خطط بعيدة المدى لديهم، فهم لا يعملون على أساس عدد القذائف التي يحتاجونها يومياً ولكنهم ينتظرون حتى يقول أحدهم: «إننا بحاجة لقذائف، لأن مخزوننا منها يكاد ينفد». وكانوا لذلك يضطرون للشراء من مخزون جاهز بدلاً من ايداع طلبية لدى الشركات المصنّعة. في حرب كالتي كانوا يخوضونها، قدّرت انهم يحتاجون إلى ١٠ آلاف قذيفة يومياً اثناء هجوم واسع النطاق، وبالتالي استطعت تأمين ٢٠٠ ألف قذيفة كانت في مخزون جاهز في البرتغال.

كانوا يريدون أيضاً، شراء مدافع هاون مع قذائفها، فلم أتمكن من تلبية طلبهم لعدم وجود مخزون من هذا السلاح، فاشتروها من كوريا مع انني كنت قد حذّرت رضوي من رداءة نوعية الأسلحة الكورية. وبالفعل عندما بدأوا باستخدامها، اكتشفوا ان الحشوة كانت ضعيفة جداً وكانت القذائف تتساقط على خطوطهم الأمامية بدلاً من ان تصيب العراقيين. كنت لا أعرض أسلحة كورية على أي من زبائني، لأنني أؤمن بالنوعية ولا أريد أن يتحول زبائني إلى اعداء يطلبون رأسي، والنوعية، فوق ذلك، غالية الثمن، إذ تستطيع ان تشتري قذيفة هاون ٦٠ مم من صنع كوريا مقابل ٢٥ دولاراً، بينما سعر القذيفة صنع النمسا مثلاً، هو ٥٠ إلى ٦٠ دولاراً.

كنت قد أدركت في هذا الوقت، بأن هناك أموالاً كبيرة في ايران وفي هذه الحرب. ولم

يؤنبني ضميري، فالعراق بدأ الحرب وايران هي في موقف الدفاع عن النفس. في عهد الشاه اختفى آلاف من الناس أو عُذِّبوا ـ وهكذا تكون ثورة آية الله محقّة، ومن الطبيعي ان تحتاج البلد بعض الوقت لتصل إلى مرحلة استقرار. ولكن الأمر بالنسبة لي كان عملاً ولم أكن أطلق احكاماً بحق زبائني. كنت على استعداد للتعامل مع نظام تشيلي الشيوعي بقيادة الييندي كما مع الدكتاتورية اليمينية بقيادة بينوشيه ، ولكني كنت أضع خطوطاً حمراء مثلاً ولم أكن لأزوّد ثوار الكونترا في نيكاراغوا لأنهم كانوا يحاولون قلب الحكومة الشيوعية.

كما انني لا أبيع السلاح للارهابيين، لأنني لا أظن ان العالم سيكون آمناً لأي منا إذا سمح لهم بالعمل بحرية، وكل من يشجعهم هو انسان لا يتحسس المسؤولية. هذا هو الفارق بيني وبين حكومة الولايات المتحدة الأميركية، فهي تدعي انها لا تساند الارهاب ولكنها تفعل. أما أنا، فأقول: بأنني لا أبيع السلاح لارهابيين والتزم بقولي.

أود هنا ان أنبّه إلى أمر: كان من الممكن لو سألتني قبل تجربتي في نيويورك، اعتباري من مؤيدي اميركا. في الحقيقة لم تكن السياسة تعني لي شيئاً، مع انني أظنّ بأنني كنت، وحسب معظم المقاييس، رأسمالياً، لأنني أؤمن بأن يعمل كل انسان بحرية ويشق طريقه بجهوده، هكذا كنت في حياتي الشخصية. ولكنني من جانب آخر كنت أؤمن بأنه مهما كانت الاتجاهات السياسية للحزب الحاكم، فهو مخلص لعمله ويعمل للنجاح، واهتمامه ان يُعاد انتخابه إذا كان ديمقراطياً، وان يبقى في السلطة إذا لم يكن، وفي كل الحالات هناك ميّزة عملية للتعامل مع الحكومات وليس مع الميليشيات: **فالحكومات تكون عادة أقدر على الدفع.**

الشرق الأوسط: اصدقاء ومعارف

في محاولة لاستغلال معارف جون في الشرق الأوسط، قمت بزيارة أبو ظبي ودبي وسلطنة عُمان في العام ١٩٨٤! كنت برفقة صديق باكستاني يدعى عاصف محمود، أحد أبناء شقيقة الرئيس بوتو. كان طويلاً وسميناً ولكنه زير نساء من الدرجة الأولى، وعمل في الأساس قوّاداً. أثناء رئاسة بوتو، استطاع ان يحصل على عمولة جيدة من شركة اميركية في صفقة طائرات هيركيلوس لباكستان، وكان يملك شقة فخمة قرب محلات هارودز. أخذته معي لأنه كان على صلة مع رجل بارز يدعى يحيى نسيب، أصبح فيما بعد ممثلي في عُمَان. كان عاصف يدبّر النساء ليحيى وكان له بالتالي تأثير عليه.

اشتريت تذكرتين بالدرجة الأولى لندن/أبو ظبي/ دبي/ مسقط/ لندن/ باريس/ لندن: وكان قطاع باريس من الرحلة بغرض زيارة المعرض الجوي الصيفي الكبير الذي يقام هناك. أقلعت الطائرة التابعة للخطوط الجوية البريطانية في تمام الثامنة مساء بإتجاه أبو ظبي. كان جون قد أخذني إلى هيثرو بسيارته الرولزرويس السوداء، ومررنا بطريقنا لمرافقة عاصف من شقته. كنا حينئذٍ نعمل على صفقة حقائب الطوارىء مع أبو ظبي، أما في دبي

فقد كنت أفاوض على كاشفات ألغام (كاسحات) وكنت أحمل عيّنة في حقيبتي، وكانت زيارة عُمَان للاطلاع فقط.

بدا اننا اخطأنا في توقيت الرحلة: كان الوقت أثناء صيام رمضان، وكان من الصعب الحصول على مشروب. كنا قد تلقينا تحذيراً حول هذا الموضوع، فشربنا ما استطعنا من الجن الذي يُقَدَّم لركاب الدرجة الأولى على حساب شركة الطيران، ثم رحت في نوم عمَيق. كان الوقت ليلاً عندما وصلنا إلى مطار أبو ظبي الذي بدا كقلعة متعددة الألوان رائعة. كانت سمة الدخول تنتظرني فاستلمتها واتجهت لاحضار حقائبي، بما فيها «كاشف الألغام»، وخمس زجاجات مشروب متنوعة، وبالرغم من ان أبو ظبي تسمح إلى حدّ ما بالمشروب للأجانب وليست «ناشفة» كالسعودية، إلاّ انهم لا يحبّون ان يروا ذلك في الجمارك خلال شهر رمضان.

كان حميد الشمزي، صديق جون وممثلنا المحلي، بانتظارنا. رجل ربعة، مليء البنيان يلبس بأناقة عندما يكون في لندن ولكنه في بلده يرتدي ما بدا كأنه قطعة قماش تلتف حول جسمه بطريقة فضفاضة (الوزرة). إنه عربي حقيقي، يظهر الصداقة، ولكنك لا تعرف بماذا يفكر بالفعل.

عندما رأى حقائبي، سألني: «يا إلهي، ماذا تحمل معك؟»

- «كاشف ألغام» (كاسحة ألغام)

«وماذا في الحقيبة الأخرى؟»

«مشروب».

«يا إلهي!»

ذهبنا لرؤية ضابط الجمرك المسؤول في مكتبه الصغير. أصدر الضابط صوت استغراب حين اخبرته بأنني أحمل معي كاشف ألغام، وأخبرني حميد بأن عليَّ أن أحصل على إذن بإدخاله وحتى ذلك الوقت، يجب ان أتركه في عهدة الجمارك.

كان الوقت فجراً عندما وصلنا إلى فندق انتركونتيننتال: مبنى مرتفع مع موقف سيارات خاص يبعد حوالي ١٥ كيلومتراً عن المطار وعلى مقربة من وسط المدينة. ولكننا في شهر حزيران، والحرارة، حتى في هذا الوقت الباكر من الصباح، قد بلغت ٣٣ درجة مئوية، لم يكن لدي أية مواعيد لذلك اليوم، فصعدت إلى جناحي المكيّف المريح واستغرقت في النوم لحوالي ساعتين، ثم نهضت واحتسيت زجاجة بيرة من البراد الصغير الموجود في الجناح. أحسست بالجوع، فارتديت ثياب السباحة ونزلت إلى الدور الأرضي. خلال شهر رمضان، يتناول العرب وقعة قبل الفجر ثم يصومون عن الطعام والشراب والتدخين حتى العصر. وهكذا كان اثنان من مطاعم الفندق يعملان فقط.

ذهبت إلى المطعم الذي يقع بجانب حوض السباحة وتناولت طبقاً من الأرز مع الشيش كباب وكأساً كبيرة من عصير المانجو. كانت حرارة الطقس قد أصبحت لا تطاق، فقررت أن استفيد من المناسبة لأكتسب لوناً أسمر، فذهبت إلى النادي البحري على مقربة من الفندق، ومررت في طريقي بحوض لقوارب النزهة فشاهدت اليخوت الثمينة الرائعة وكانت تبدو وكأنها لم تستعمل أبداً وأغلب الظن انها كذلك. كان البار مقفلاً بسبب صيام رمضان، فنزلت رأساً في الماء التي كانت حرارتها مثل حرارة الجو. كنت كمن يسبح في حساء ساخن ولم احسّ بأي انتعاش. بعد حوالي نصف ساعة في الماء كنت أحس بالسخونة في جسمي تزداد، فعدت إلى بركة السباحة في الفندق وكان الماء فيها مبرداً، لأجد حوالي العشرين من مضيفات الطيران يستلقين حول البركة ولكن حرارة الجو كانت أعلى مما يسمح بالالتفات لهن.

بعد حوالي أربع ساعات في الخارج، عدت إلى المطعم وتناولت كأساً آخر من عصير المانجو، وفجأت احسست بجلدي ينكمش ويضيق على جسمي. كانت بشرتي بيضاء ورقيقة وقد أصبت بضربة شمس حادة. ذهبت إلى جناحي وجلست فوق فراشي لنصف ساعة، ثم نهضت في السادسة مساء وأخذت دشاً فأحسست بالتحسن. لبست ثيابي ونزلت إلى المطعم الرئيسي لأتناول طعامي، وبعد الانتهاء من عشائي أخذت المصعد إلى الدور الأعلى، فخلال شهر رمضان، تخصص الفنادق الكبيرة غرفة خاصة لغير المسلمين، يتناولون فيها الشراب. نظر إليَّ نادل باكستاني بريبة، ثم أدرك انني لست مسلماً، ففتح الباب مع بعض التردد الوقح. في الداخل كانت الغرفة تعبق بدخان السجائر، وكانت مزدحمة: كل أجنبي مقيم في الفندق موجود هناك، ومعظمهم من شركات نفط عالمية. كان الخيار الوحيد الآخر، ان تشرب وحيداً في غرفتك، وأنا أفضل الشراب في مجموعة. ولكن الوضع كان يبعث على الملل وليس لك ما تفعله سوى مشاهدة أفلام على التلفزيون. عند منتصف الليل قررت أنني نلت الكفاية.

في السابعة والنصف من صباح اليوم التالي كانت حدّة ضربة الشمس قد خفّت، ولكنني أحسست بتثاقل من جراء المشروب الذي استهلكته في المساء، عندما حضر حميد وأخذني بسيارته إلى مكتبه لمناقشة بعض الصفقات الصغيرة بما فيها صفقة «حقائب الطوارىء». العمل ينتهي هناك في الحادية عشرة والنصف صباحاً، وبعد ان انتهينا من عملنا، تحدثنا قليلاً عن النساء - لم أفعل شيئاً أثناء رحلتي أكثر من الحديث عنهن - ثم أعادني إلى الفندق لتناول الغداء بينما ذهب هو لينام، فخلال رمضان، يبدو العرب تعبين جداً بحلول الظهر.

كان عليَّ ان أقابل بعض أقارب زوجة جون بعد الغداء، فذهبت إلى نادي فندق مريديان البحري، وكان الجو مرتاحاً أكثر من الانتركونتيننتال حيث لا يسمحون لك بحمل الشراب من المطعم إلى بركة السباحة. كان مسبح المريديان يغص بالناس، أغلبهم لبنانيون. التقيت بفتاة جميلة ذات عينين سوداوين تجلس على حافة البركة وقد غطست

رجلاها في الماء. تبادلنا الأحاديث لحوالي ساعة من الزمن، وكان الانسجام بادياً علينا، فاعتقدت انه قد تسنح لي فرصة معها، ومع انني احسست بجلدي يعود إلى الانكماش، إلّا انني أقنعت نفسي ان الأمر يستحق المحاولة. عندما ظننت ان اللحظة المناسبة قد حانت، دعوتها لتناول العشاء معي في الفندق. ابتسمت وقالت: «ولكن زوجي لن يوافق!» فقررت ان اغادر المكان رأساً، معترفاً بالهزيمة.

مشيت في الشارع بحثاً عن سيارة أجرة، وأخيراً توقفت سيارة مهلهلة قذرة يقودها رجل كبير السن ملتحٍ بدا انه بدوي. كان من الجيل العتيق ولا يتكلم الانكليزية. ويقود سيارته بسرعة ١٥ كيلومتراً في الساعة. يد خارج النافذة ويد على المقود ويبصق خارج النافذة مرة كل عشرين ثانية. كان يقود السيارة وسط الشارع مقفلاً بذلك مَسَارين ويسب السائقين الآخرين. استغرقت الرحلة، التي تحتاج عادة لربع ساعة، نصف ساعة. عندما وصلنا إلى الفندق، اسرعت إلى جناحي ببرودته المريحة. واشتريت في وقت لاحق من محل في الفندق سوائل لمعالجة ضربة الشمس.

كنت قد رتّبت لقاء في اليوم التالي مع الشيخ فيصل بـن سلطان القاسمي في الشارقة لبحث صفقة اسلحة وثياب عسكرية وحقائب طوارىء ولوازم أخرى، مع انني في النهاية حصلت على طلبية وحيدة فقط. بناء على توصية الشيخ عدت إلى مركز جمارك مطار أبو ظبي لتسلم كاشف الألغام. ابتسم الضابط المسؤول هذه المرة وقال لي: «لا عليك ونحن أيضاً نحتاج لبعضها هنا، هل تستطيع ان تتقدم بعرض أسعار؟»

كان عاصف طوال هذا الوقت يعمل منفرداً ويقيم في فندق آخر، فندق «هوليداي إنّ». في المساء قبل ان نغادر إلى دبي، ذهبت برفقته إلى الغرفة المخصصة للمشروب في الهوليداي إن، حيث استهلكت حوالي عشرة كؤوس كبيرة من الجـن والصودا، ثم قال أحدهم ان هناك مرقصاً واحداً يفتح أبوابه في المدينة ـ في فندق سنترالَ. كنا في وضع يائس، فأسرعنا في سيارة اجرة إلى فندق سنترال. كان المرقص فاتحاً أبوابه بالفعل، ولكنه كان ميتاً ولم نجد أحداً هناك، وسجّلت ملاحظة لنفسي ان اختار وقت زيارتي التالية إلى الشرق الأوسط بعناية. فرمضان ليس الوقت المناسب لزيارة المنطقة.

في الوقت الذي ركبنا سيارة أجرة لنعود إلى الفندق كنت قد أصبحت في حالة سكر شديدة، فسألت سائق السيارة إذا كان يعرف عن أي «نشاط» في مكان قريب.

فسألني بدهشة: «ماذا تعني؟»

فقلت دون اكتراث وبلسان ثقيل: «مشروب، نساء!»

بدأ السائق بالصراخ، كان باكستانياً ولكن عاصف اخبرني انه من المناطق الجبلية وهو مسلم متشدد وبدا عاصف مذعوراً.

«هل تعرف ماذا سيفعله الآن؟» سألني عاصف وهو يرتجف، «سيأخذنا إلى مركز الشرطة لأننا سكارى، وسيتقاضى مكافأة كبيرة لذلك».

فجأة صحوت من السكر عندما ركزت فكري على الأخطار المحتملة. لم تكن لديَّ الرغبة في مواجهة مع شرطة أبو ظبي. كان حميد سينقذنا بسرعة ولكنني كنت أفضل ان ابتعد عن الاحراج

«كلا»، قلت لعاصف: «انه لن يفعل شيئاً من ذلك».

كنت أجلس خلف السائق، فوضعت ذراعي حول عنقه، وقلت له: «أمامك خياران يا صديقي. إما ان توقف السيارة، أو أدقّ عنقك». لم يكن هناك خيارات بالفعل فأوقفت السيارة، وركبنا سيارة أجرة أخرى وعدنا إلى الفندق.

من أبو ظبي إلى دُبَي: بحثاً عن صفقة

في اليوم التالي أقلّتنا سيارة في رحلة ساعتين إلى دبي. كنا نستطيع ان نستقل طائرة مروحية، فالخدمة متوفرة بين أبو ظبي ودبي، ولكنني فضلت السيارة لمشاهدة الطريق الصحراوية الشهيرة. كانت الأرض، على امتدادها على جانبي الطريق قفراء لا نبات فيها ولا عمران، باستثناء اكشاك متفرقة لبيع المرطبات ـ ما عدا أيام رمضان. لاحظنا وجود خمسين أو ستين سيارة محطّمة على جانبي الطريق، بعضها جديد من طراز مرسيدس ورولزرويس. وعلمت ان هذه السيارات تحطمت في حوادث سير، ربما أغلبها من جراء تصادم مع جِمال تعبر الطريق ليلاً. إن الاصطدام بجمل وأنت تقود سيارتك بسرعة ١٢٠ كيلومتراً في الساعة ليس مزحة.

كنا قد حجزنا غرفتين في فندق هيلتون دبي ـ لم يكن مستوى الشيراتون ولكنه أقرب لمكاتب المشتريات التابعة للجيش، وكنت قد رتّبت لقاء مع الرائد بارنيت، البريطاني المسؤول عن مشتريات قوات دبي المسلحة. سلمته كاشف الألغام الذي سبب لي صعوبات مع جمارك أبو ظبي، وتَمَّ اختباره من قبل الجيش الذي طلب عشرة منه بسعر ٣ آلاف دولار للكاشف الواحد. بعد الظهر كان عاصف قد دعا مضيفة المانية رائعة الجمال. ولما كنت لا أزال أعاني من خيبة أملي في النادي البحري قبل أيام، أخبرته أن يتأكد من انها لن تأتي بالبيكيني وإلاّ أصابني الجنون.

في اليوم التالي، حضرت السيارة ولكن عاصف تأخر، دون شك: سبب ما كان يفعله طوال الليل. توجهنا مباشرة إلى مطار أبو ظبي حيث طرنا إلى مسقط على متن طائرة تابعة لطيران الشرق الأوسط. كان المشروب ممنوعاً بسبب رمضان، ولكنني كنت قد أحضرت زجاجة جِـن معي وطلبت بعض الصودا. أصيب الركاب العرب بالذهول،

بعضهم لأسباب دينية، ولكن الأغلبية من الحسد. كنت أراهم يراقبونني ولكنني لم أعبأ بنظراتهم.

في مطار مسقط كان لا يزال لديَّ زجاجتا شامبانيا وزجاجة جِن ثانية كنت قد اشتريتها من المنطقة الحرّة في مطار أبو ظبي. سمع موظف الجمارك صوت ارتطام الزجاجات ببعضها ولم يستطع صبراً للايقاع بي. عندما أنكرت ان يكون معي ما أعلن عنه، صادر الموظف حقيبتي وجواز السفر وأرسلني إلى أحد المكاتب. كان عاصف يبدو قلقاً، ولكنني كنت محظوظاً لأن أميركياً أمامي في صف القادمين كان يحمل ثمانية أعداد من مجلة 'بلاي بوي' - وهي جريمة أخطر بكثير من حمل المشروب، ففرضوا عليَّ دفع غرامة قيمتها ٤٠ جنيهاً استرلينياً.

هِرمان يتذّوق «المهلّبية»

كان يحيى ينتظرنا في المطار بسيارته المرسيدس ١٠٠٠، وأقلنا إلى مسافة عشرة كيلومترات من مسقط، إلى مزرعته الغنّاء التي تبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠ ألف متر مربع ويحيط بها سور عالٍ. كان في المزرعة أشجار نخيل وبركة سباحة بالاضافة إلى ثلاثة أقفاص ضخمة للعصافير. كنت أحاول أن أحسب كم يكلفه الاحتفاظ بمنزل كهذا. كانت الحدائق فائقة الروعة. أما داخل المنزل فكان هناك قاعة بليار (سنوكر) بحجم قياسي، وجناح للضيوف، حيث كنت سأقيم، على بعد حوالي ٢٠ متراً يحتوي على صالة للألعاب السويدية مع أجهزة تمارين . . . وحمام بخار كان يبدو اضافة غير ضرورية في هذا الطقس الحار.

كان لدى يحيى ثمانية من الخَدَم وعدة سيارات من بينها جاغوار اتش إي، وسيارة المرسيدس، سيارتا رانج روفر وسيارة اكسكاليبار. كما كان يمتلك مزرعة في آستون كلنتون في بريطانيا وسيارات عديدة هناك كذلك. كان يسافر إلى جنوبي فرنسا خلال الصيف ويشحن سيارة الاكسكاليبار بالطائرة من مسقط إلى كانْ. كانت شركته، «يحيى انتربرايز» ممثلة لشركة ماركوني كما كانت له صلات عمل مع 'كوستين'، منتجي مواد تظهير الأفلام، ولذلك لا يشكو من نقص في المداخيل.

عندما وصلنا حوالي الظهر إلى المزرعة، كان يحيى يحاول ان يصوم رمضان، فذهبت إلى فراشي ونمت حتى السادسة ثم توجهت إلى بركة السباحة حيث وقف الخدم في الظل، على استعداد لتقديم المشروبات أو البطيخ الطازج. تناولنا العشاء في السابعة والنصف وكان لدى يحيى طباخان، حصل على أحدهما من مطعم في لندن أحبَّ طعامه لدرجة انه عرض على الطباخ مضاعفة راتبه مقابل الانتقال للعمل في المزرعة. كان الطعام فاخراً طوال الوقت الذي قضيته هناك. وعلى الطريقة العربية كانت المائدة تحتوي على أربعة أو خمسة أطباق رئيسية، وكانت «المهلبية» المصنوعة مع الخبز والزبدة من أشهى ما تذوقت في حياتي، واعتقد انني التهمت نصف الكمية التي قدمت على المائدة. منذ تلك الليلة كان هناك طبق كبير من المهلبية على المائدة كل يوم، وكان يحيى يقول: «ها قد حضر عشاء هرمان».

كان كبير موظفي يحيى، عقيداً بريطانياً متقاعداً، وملحقاً عسكرياً سابقاً في العراق، يُدعى جون ادكوك. قابلته باكراً في صباح اليوم التالي في مكتبه وذهبنا سوية إلى وزارة الدفاع العمانية في مسقط. كانوا بحاجة لحقائب الطوارىء ولمواد من نوع خاص لسلاح البحرية لانتاج سواتر دخانية وتحترق على درجات حرارة منخفضة. كانت البحرية العمانية تواجه مشاكل مع فرقاطاتها الحديثة المصنوعة من الالمنيوم. المشكلة ان الالمنيوم ينهار تلقائياً على درجات حرارة معينة، كما اكتشف البريطانيون عندما كانوا يتلقون ضربات صواريخ اكزوست خلال حرب الفوكلاند. والعمانيون يحتاجون خلال تمارينهم لنشر سواتر دخانية وكانوا يريدون نوعاً معيناً من المواد لا تشكل خطراً على سفنهم، وهذا النوع صعب المنال.

كنت قد عقدت اتفاقية مع شركة المانية تدعى «نيكو بايروتكنيك»، لبيع منتجاتها، وكانوا يصنِعون هذا النوع من المواد، فاتفقنا على ان أحصل لهم على عرض أسعار. حصل تأخير كبير لا مبرر له من جانب الطرفين وبالأخص بسبب تردّد السلطات الالمانية في البداية، بمنح إذن تصدير، ولكنني أنجزت الصفقة بعد عدة أشهر.

أمضيت ثلاثة أيام في مسقط، خصص أحدها للاجتماعات واللقاءات ويوم ثانٍ تناولت طعام العشاء مع أحد أعمام السلطان. فيما عدا ذلك لم يكن لديَّ ما أفعله سوى التردد إلى حمام البخار (السونا) وصالة الألعاب وبركة السباحة. كانت الرحلة كلها محبطة لأكثر من سبب، ولكنني تعلمت الكثير عن طرق التعامل مع العرب، فالتعامل معهم ليس أمراً سهلاً. في البداية، يجب ان لا تقع في الاعتقاد الخاطىء بأن العربي هو صديقك. إنك تستطيع ان تصادق العربي فقط، إذا كنت أنت عربياً. إنهم مخلصون ومهذّبون في حديثهم ولكنهم رجال أعمال دهاة ـ وأشدهم دهاء، اللبنانيون.

لا شيء في الشرق الأوسط يتم في المواعيد المحددة كما اعتدنا في الغرب. كثيراً ما رأيت أناساً يسافرون إلى المنطقة يوم الاثنين على ان يعودوا الخميس ولكن ذلك نادراً ما يحصل. إذا أردت أن تتعامل معهم تجارياً، يجب عليك ان تؤقلم نفسك مع جداول مواعيدهم. كثيراً ما تذهب مثلاً لمقابلة أحد الشيوخ، في موعد محدد، لنقل في العاشرة صباحاً. من المحتمل ان يكون الشيخ في هذه الاثناء، في الجبال يمارس هواية الصيد بواسطة الصقور ـ وهي تسلية مفضلة هناك. ولن يكون التأخير في الموعد لساعة أو ساعتين، بل ليوم أو يومين وليس لك خيار إلاّ الانتظار. إن عملية الاحتراق داخل أجسامهم تختلف عنّا.

كنت أتطلع إلى رحلة مريحة أثناء العودة، دون قيود على المشروبات، ولكنها لم تكن كذلك: شكراً لمكاتب الخطوط الجوية البريطانية في مسقط. عندما وصلت مع عاصف إلى المطار قبل منتصف الليل بساعة مع حجوزاتنا في الدرجة الأولى، أخبرونا ان الطائرة القادمة من سنغافورة واوستراليا كانت ملأى والحجوزات تفوق عدد المقاعد. أثرتُ ضجّة في المطار وأخبرتهم ان عليّ ان أكون في باريس في موعد محدّد، ولكنني كنت سأقبل اقامة على حسابهم

تلك الليلة في أحد الفنادق، عندما أمّنوا لنا مقعدين ـ في الدرجة السياحية وفي مؤخرة الطائرة، كانت الرحلة أكثر من ست ساعات، من الازعاج والقلق قضيتها في حياتي، مع ان شركة الطيران قدمت لنا مشروباً على حسابها لتعوض ما سببته من مضايقة. أخبرني عاصف في وقت لاحق انني أخيراً استغرقت في النوم وكنت أشخر طوال الوقت، احدى يدي حول رجل صيني يجلس إلى يساري والأخرى حول طفلة صينية تجلس إلى يميني، وكان كلاهما قد تجمدا من الهلع فلم ينطقا بكلمة ولم يقوما بحركة. استفقت مع صداع قوي تناثر الجِن فوق المكان برمته.

عندما وصلنا إلى لندن، ذهبت إلى منزلي لفترة قصيرة، ثم طرت في اليوم التالي برفقة عاصف إلى باريس لحضور المعرض الجوي. كنت قد حجزت جناحاً وغرفة في فندق هيلتون القريب من برج ايفل ـ وهو فندق ممتاز مع سهولة في الوصول إلى طريق المطار السريعة. عندما وصلت إلى مكتب الاستقبال قال لي الموظف هناك: «آسف يا سيدي، أنا آسف جداً». بعد تجربتي مع الخطوط الجوية البريطانية، عرفت حالاً ماذا ينتظرني. «احتفظ بأسفك لنفسك، لقد حجزت الغرف منذ ثلاثة أشهر. إنني أريد الجناح والغرفة الآن». ولكنهم قالوا بأنهم حوّلوني إلى هيلتون أورلي ـ في جهة المدينة البعيدة عن المطار. رغم احتجاجي لم يكن أمامنا إلّا القبول. وكنا نمضي ساعتين يومياً في سيارة أجرة تشقّ طريقها في زحام باريس.

كنت قد حضرت لإجراء صفقة بين شركة المانية لصناعة المحركات ورجل من أبو ظبي لا أجرؤ على ذكر اسمه وإلّا طارت عنقه. كانت دولة الامارات العربية المتحدة تمتلك ثلاثين قارب دورية سريعاً، ولسنوات كانت شركة «م ت ي» الالمانية لصناعة المحركات تحاول اجراء صفقة لابدال محركات هذه القوارب، ولم تنجح لأن المدير الالماني المسؤول عن المشروع كان إما غير قادر أو غير راغب بدفع العمولات الضرورية لإنجاح العملية، وكنت قبل ذهابي إلى عُمَان قد أجريت اتصالات مع رجل في مركز أعلى في الشركة ورتبت أمر العمولة، ولم يبق إلّا الاتفاق على التفاصيل.

رتّبت لقاء في فندق جورج الخامس، حيث كنت أقيم عادة أثناء وجودي في باريس. حضر الاجتماع في أحد أجنحة الفندق أربعة أشخاص: المدير من «م ت ي»، العميل من أبو ظبي، عاصف وأنا. وثّقنا الاتفاق كتابة: كان ثمن المحرك الواحد ١٦٠ ألف دولار، وكان هناك ثلاثون محركاً مما يجعل القيمة الاجمالية خمسة ملايين دولار. كانت صفقة ممتازة.

سار كل شيء على ما يرام في الاجتماع، وكنت قد تسلمت الرسائل التي تحدّد العمولة، ولكن الصفقة نسفت من الداخل، إذ قام موظف في الشركة الالمانية بتسريب التفاصيل إلى شركة منافسة. وعندما علم هؤلاء بأن العميل من أبو ظبي موجود في باريس، أرسلوا رجالاً لمواجهته في جناحه بالفندق، وهدّدوه بفضح أمره لدى حكومته إذا أبرم الصفقة. كان الذين في مركزه لا يقابلون رجال الأعمال إلّا في مكاتبهم، أو كأعضاء في وفد

رسمي. اتصل بي مذعوراً وقال: «لقد أخبرهم شخص ما عن وجودي هنا. كيف يمكن لأحد أن يفعل ذلك بي؟ انني سأخسر رأسي إذا انفضح الأمر. اعتقد انني أخبرتك قبلاً ضرورة ألاّ يعرف أحد بوجودي هنا». أكدت له انني لست مسؤولاً عن تسّرب الخبر وحاولت انقاذ الصفقة دون جدوى. بنتيجة ذلك، كان وجودي في باريس مضيعة للوقت فلم أحقق شيئاً في النهاية برغم رحلات الساعتين في سيارات الأجرة. في حقل عملي، كنت أتوقع الخسارة أكثر من الربح - وهذا بالطبع ما يجعل الثمرة ألذّ مذاقاً عندما تسقط من الشجرة في يدي.

الفصل الثالث

بازار في فكتوريا ستريت

لم أكن ألقي نظرة ثانية - وفي الغالب حتى نظرة أولى - على صفحات الجرائد المخصصة للأخبار الخارجية. في الواقع، لم أكن، وحتى وقت قصير، من قرّاء الصحف. كنت ألتقط معلوماتي من التلفزيون، إذا صادف وكان مفتوحاً. أما قراءاتي فتركّزت على المجلات، وبشكل رئيسي المهتمة بموضوعين: الأسلحة والسيارات السريعة.

لم يطل بي الزمن في تجارة السلاح حتى أدركت انني أحتاج لقراءة الأخبار الخارجية، كما يحتاج رجل المصارف لقراءة الصفحات الاقتصادية، والمقامر لقراءة نشرات السباق. كل قصة حرب أو نزاع بين ميليشيات، كل تقرير عن اصابات وتصريحات متشنجة لقادة الأطراف المتنافسة هو دليل إلى سوق محتملة لنوع البضاعة التي اسوّقها. وكان من المهمّ أيضاً، أن أفهم شيئاً عن المناورات الدبلوماسية خلف الحروب، ليس فقط التي تقوم بها الدول المتورطة في النزاع ولكن تلك التي تقوم بها القوى العظمى أيضاً. إذ تسمح لي هذه المعرفة بحساب «مَن» يزّود أي طرف بالسلاح، وبالأخص مَن هي الدول التي تواجه صعوبات في شراء الأسلحة عبر القنوات التقليدية: فهذه الدول هي الأكثر احتمالاً ان تكون من زبائني.

كانت ايران أكثر الدول أهمية في الفئة هذه منذ ١٦ كانون الثاني ١٩٧٩، عندما أطاح انصار آية الله الخميني «بملك الملوك» شاه ايران. في ذلك اليوم انتهت عشرون سنة من الهيمنة الأميركية (يدعوها البعض استغلالاً) على ايران. حاولت الولايات المتحدة ان تقيم علاقات شبه عملية مع النظام الجديد - أساساً، لمنع الاتحاد السوفياتي من استغلال الوضع لمصلحته - ولكنها لم تستطع ان تتغلب على إرث عتيق وقوي من العداء كهذا.

عندما قام مؤيدو الخميني، بعد عشرة أشهر، باحتلال السفارة الأميركية واحتجاز العاملين فيها كرهائن، أصبح الأميركيون اعداء ايران الألّداء، ففرض كارتر الرئيس الأميركي آنذاك، قيوداً اقتصادية مشددة على ايران وحَظَر شحن الأسلحة إليها، حتى تلك التي كانت الحكومة الايرانية قد اشترتها ودفعت ثمنها. وأدّت أزمة الرهائن، التي دامت سنة كاملة، كما يعتقد، إلى هزيمة كارتر في الانتخابات الرئاسية في العام ١٩٨٠.

أطلقت ايران سراح الرهان في يوم تسلُّم ريغان لسلطاته، وكنتيجة لذلك، تمَّ رفع بعض القيود الاقتصادية، أما الخطر على بيع الأسلحة فقد استمر - أو على الأقل هذا ما افترضه العالم في ذلك الوقت. ولكن رواية مختلفة وردت على لسان الأميرال جون بوينت

دكستر الذي خلف روبرت ماكفرلين كمستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي في كانون الأول ١٩٨٥، إذ أعلن في شهادته أمام لجنة الكونغرس التي شكلت للنظر في قضية ايران كونترا، ما يلي:

> إن سياستنا لم تكن منع الأسلحة عن ايران. إننا لا نقرر فجأة، وكأن القرار هبط علينا من السماء، فرض حظر على تسليح ايران. كان هدف سياستنا هناك، وقف الحرب الايرانية ـ العراقية. وكانت احدى الطرق التي اعتمدناها لتحقيق هذا الهدف، هي تقليص تدفق الأسلحة على ايران. وبصراحة: لم ننجح.

مهما أطلقت عليها من اسماء، تبقى الحقيقة ان القيود على مبيعات الأسلحة خلقت، وبسرعة، صعوبات للقوات الايرانية المسلّحة. فلقد ورثت هذه القوات، من عهد الشاه، ترسانة اسلحة، بمجملها أميركية الصنع، ولم تعد قادرة على الحصول على قطع الغيار اللازمة لاستمرار أداء الأسلحة والمعدات العسكرية. كانت الأوضاع في ايران بعد الثورة قد وصلت إلى حالة فوضى كبيرة لدرجة أن أحداً لم تكن له الرؤية المستقبلية، ليطلب كميات كبيرة من اللوازم للاحتياط ضد حظر محتمل. وأصبحت ايران لذلك، عميلاً مثالياً لتجّار السلاح الأفراد الذين يعملون خارج القنوات التقليدية مثلي. وعندما هاجمت القوات العراقية، في أيلول ١٩٨٠ ايران، لتبدأ الحرب المريرة الطويلة التي أشار إليها بوينت دكستر، أصبحت امكانية اجراء صفقات تجارية حقيقية يهفو لها الكثيرون، لتحقيق حلمهم بالثروة، وكنت أرغب في أن أكون من بينهم.

أنظار التجّار تتجه صوب إيران

استمّر الايرانيون، حتى أيلول ١٩٨٧، بشراء معظم أسلحتهم من الدول الغربية، من خلال المكاتب المزعومة لشركة النفط الايرانية الوطنية الكائنة في ٤ فكتوريا ستريت في لندن. كانت المقالات والنشرات الاذاعية التي تشهّر بما كان يجري في هذه المكاتب تصدر بانتظام، واعتقد ان عدد العاملين في هذه المكاتب في تجارة السلاح كان يفوق عدد العاملين في شؤون نفطية بكثير. وكانت السلطات البريطانية، عندما طردت عدداً من الدبلوماسيين الايرانيين بعد اتهامات متبادلة بين الطرفين في صيف ١٩٨٧، قد سمحت للعاملين في مكاتب شارع فكتوريا بالبقاء. لكن هذه السلطات طردتهم أخيراً عندما هاجمت طائرة حربية ايرانية في الخليج سفينة تحمل العلم البريطاني في أيلول من ذلك العام.

على أثر تلك الحادثة، قال السير جفري هاو، وزير الخارجية البريطانية آنذاك، بأن الهجوم على السفينة البريطانية في الخليج كان القشة التي قصمت ظهر البعير. يحق لنا ان نسأل هنا: لماذا سمحت السلطات البريطانية «للسيرك» في فكتوريا ستريت بالاستمرار في عمله عبر السنوات السبع الماضية، في الوقت الذي كانت هذه السلطات تعلن تأييدها للحظر المفروض على ايران؟

كانت مكاتب فكتوريا ستريت قد أقيمت في مبنى حديث مع أعمدة بيضاء في الواجهة، تعطي المبنى لمحة شرق أوسطية مناسبة ـ وان كانت مجرّد مصادفة. وكان المبنى يقع في مواجهة مؤسستين بريطانيتين شهيرتين ـ كاتدرائية وستمنستر إلى الشرق ودائرة التجارة والصناعة إلى الغرب، كما لم تكن مكاتب وزارة الداخلية تبعد كثيراً عن المكان. ولا أعتقد ان أياً من المسؤولين في هذه المؤسسات كان سيوافق على ما كان يجري عبر الشارع في المبنى رقم ٤.

كانت طريقة الوصول إلى الداخل، هي الطريقة التي تحصل بواسطتها على أي شيء تريده في الحياة ـ ان تعرف أحداً من المعنيين. في أيار ١٩٨٤، وصلت إلى مسامعي أخبار معدات لتحسين أداء الرادارات المحمولة جواً، وكنت أعرف انها ستكون مثار اهتمام الايرانيين. كانت الأجهزة متوفرة في البرتغال وجاهزة للتسليم. أجريت اتصالات مع معارفي حتى وجدت واحداً كانت له علاقة عمل مع مكاتب فكتوريا ستريت، فسألته عن الطريقة المناسبة التي يجب أن أتبعها لعرض الصفقة على المسؤولين عن المشتريات.

أخبرني ان لكل من الجيش والبحرية وسلاح الجو، دائرة مشتريات خاصة، ولما كنت أتحدث عن رادارات للطائرات، كان عليَّ أن أتصل بالمسؤول عن مشتريات سلاح الجو، وأعطاني اسمه: الرائد حمّاد. اتصلت بالرائد هاتفياً وأخبرته ان لديَّ معدات قد تهمّه. لم يكن يتوقع مني أن أضيف شيئاً آخر على الهاتف، لأن الشيء الوحيد المؤكد هو ان كل الأجهزة الأمنية لكل الدول الكبرى كانت قد بثّت أجهزة تنصّت في أجهزة الهاتف في مكاتب فكتوريا ستريت، وانها تسترق السمع إلى كل ما يقال عبر الهاتف، فاتفقنا على موعد للقاء.

على باب المبنى علّقت لافتة رثة كتبت عليها باليد الأحرف الأولى من اسم شركة النفط الايرانية الوطنية بالانكليزية، والعنوان: ٤ فكتوريا ستريت، مع شعار افترضت انه علامة شركة النفط التجارية. وراء الباب مباشرة، قام حارس بريطاني، من شركة أمنية خاصة، بتفتيشي بما في ذلك استخدام كاشف المعادن لمنع إدخال سلاح لغير المرخص لهم. لم أكن لأستغرب لو كانت هناك كاميرا مخبأة تسجّل صور الداخلين والخارجين: وربما أكثر من كاميرا واحدة.

بعد التدقيق الأمني، دخلت إلى مكتب استقبال مربّع، حيث أعطيت اسم الشخص الذي أريد مقابلته. وتأكدوا انني جئت بناء على موعد، بدون الموعد لا يمكن ان أراه. جلست في قاعة انتظار أثاثها من الخشب الأبيض البسيط، المنجّد بالأزرق وكان يبدو بالياً من الاستعمال. كان في القاعة بعض الايرانيين ـ بعضهم دون شك لمراقبة دخول وخروج الناس ـ بالاضافة إلى قلّة من رجال أعمال بريطانيين، أتوا وراء ربح سريع. زينة الحائط الوحيدة، كما في كل مكان آخر في المبنى، هي صورة آية الله الخميني، زعيم ايران الروحي والذي باسمه تجري كل هذه المفاوضات التجارية.

على المناضد، مجلات بالفارسية، لغة ايران، فقط. لم أجد شيئاً أتسلّى به ولكن ذلك لم يكن مهماً إذ أنني لم أنتظر سوى بضع دقائق قبل أن يأتي أحدهم لاصطحابي إلى الدور الثالث. كانت الممرات في كل المبنى خالية من الزينة كقاعة الانتظار، باستثناء صور الخميني.

كان الرائد حمّاد في منتصف الاربعينات من عمره وكان برفقته ضابط أدنى رتبة منه لم يقل شيئاً طوال الاجتماع. كنت سأعتاد هذا الأمر في تعاملي مع الايرانيين. ولكل مسؤول مرافق، لأنهم يخشون ان يجدوا أنفسهم في أوضاع يسهل معها اتهامهم بتسلم رشاوى. كانت مكاتب فكتوريا ستريت وحدها بين أسواق السلاح الكبرى، حيث العمولات ممنوعة إطلاقاً، على الأقل بالنسبة للعاملين في الطَرَف الايراني. (مثل قوانين المشروب في العالم العربي، قد تحصل استثناءات بالنسبة للأجانب). كان آخر شيء يمكن ان يقوموا به هو محاولة أي عمل قد يعيدهم إلى بلادهم، واعتقد ان هذا كان السبب الرئيسي لهلعهم.

كان الشباب العاملون في مكاتب فكتوريا ستريت، مكتفين بأن يبقوا في لندن، ولم يكن صعباً ادراك الأسباب: لم يكن في لندن حرب ولا قنابل متساقطة. لم يكونوا راغبين في خسارة مراكزهم والعودة إلى ايران وكل أخطارها، ولهذا كانت سلامتهم في ان لا يخاطروا بشيء وان يتعاملوا بحذر شديد مع الجميع. وهذا، على ما اعتقد، كان سبب احساسهم بالانهيار عندما اضطروا إلى مغادرة بريطانيا في أيلول ١٩٨٧، مع ان تخميني هو ان السلطات الايرانية استبدلت بسرعة موظفي شركة النفط بعسكريين لمتابعة العمل في شراء السلاح كالمعتاد.

جلسنا نحن الثلاثة ـ الرائد حمّاد ومرافقه وأنا ـ إلى طاولة اجتماعات صغيرة في الجهة المقابلة من الغرفة لمكتب الرائد. قدموا لي مشروبهم الوطني، حليب مكثّف محلّى مع الماء الساخن، ولكنني اعتذرت عن شربه، ولم أتجرأ على القول انني كنت أفضل كأساً من الجن مع الصودا، فكل الدلائل كانت تشير إلى انهم يفتقدون حسّ المرح. سرعان ما وضح لي بالرغم من اهتمام الرائد حمّاد بما عرضته وبالأسعار، ـ عشرة أجهزة بسعر ١١٥ ألف دولار للجهاز الواحد ـ اننا سنواجه الصعوبات المعتادة: انعدام الثقة المتبادلة وطريقة الدفع. كان السؤال، مَن منا يدفع للآخر أولاً. ولأنه لا يعرفني جيداً، كان حمّاد يريدني ان أبدأ الاجراءات باعطائه ضمانة انجاز قبل ان يعطيني هو كتاب الاعتماد المصرفي. لنفس الأسباب كنت أريد كتاب الاعتماد أولاً: بالاضافة إلى انني لم أكن استطيع تأمين الأجهزة من مصادرها بدون هذا الكتاب. ولكن من وجهة نظرهم، كانوا سيواجهون مأزقاً إذا أصدروا اعتماداً مصرفياً ولم أتمكن أنا من انجاز الصفقة، ولهذا كان عليهم أن يكونوا حذرين.

اقترحت كتاب اعتماد مسبق ـ وهو تعهد ملزم من المصرف الذي يمثلهم يقضي بأن يقوم المصرف بفتح اعتماد، عندما يتسلّم كفالة انجاز مني، ولكنهم رفضوا الاقتراح وبعد

ان تبادلنا المقترحات لبعض الوقت بدا اننا لن نستطيع اجتياز هذه العقبة. عُدت إلى مكتبي واتصلت بصديق ايراني في لندن وشرحت له الموقف، فساعدني في حل الاشكال، معرضاً نفسه للمسؤولية في حالة حدوث أي خطأ، إذ أكّد لحمّاد بأنه تعامل معي سابقاً وبأنني انسان موثوق وانه يعرف ان المعدات جاهزة للتسليم في البرتغال.

قَبِل الايرانيون تأكيدات صديقي لأنهم كانوا بحاجة ماسّة إلى معدّات الرادار، ووافقوا على اصدار كتاب اعتماد مسبّق للمصرف الذي أتعامل معه، مصرف كريدي ليونيه في جنيف. ولكنهم كانوا يتحركون بحذر. قاموا بفحص الأجهزة في البرتغال، ولكنهم رفضوا إبرام الصفقة قبل تجربة هذه الأجهزة، ولكن ذلك كان يعني تركيبها على رادارات محمولة جواً لتستطيع التأكد من سلامة أدائها، ولذلك كان الاعتماد المصرفي ينصّ على دفع نصف القيمة عند التسليم، والنصف الآخر بعد تجربة الأجهزة وقبولها.

مضى ثلاثة أشهر على اجتماعنا الأول حتى أصبحنا في وضع يسمح بإبرام الصفقة، فشحنت المعدات إلى طهران بعد ثلاثة أسابيع من توقيع الاتفاقية، وتمّ دمجها بوحدات رادار عاملة. أثبتت التجارب ان الأجهزة صالحة وقام الايرانيون بدفع المبلغ كاملاً. وكانوا دائماً يدفعون ما عليهم إذا ما وافقوا على صفقة ما، بعكس اعدائهم العراقيين الذين تعاملت معهم - بالرغم من ان معظم أسلحتهم كانت من صنع الكتلة الشرقية.

أما اتصالي الثاني بمكاتب فكتوريا ستريت فلم يسفر عن نتيجة. كان لديَّ كمية من قذائف ١٥٥ مم - ٥٠ ألف قذيفة - متوفرة في اليونان. وبما انها خاصة بالجيش، عرّفني الرائد حماد على زميله المسؤول عن مشتريات الجيش ولكن الصفقة لم تتم، فالدولة في حالة حرب تنتقي أولوياتها، وكان لدى ايران في هذا الوقت كميات كافية من قذائف المدفعية. ولكنني كنت أتلقّى دروساً من كل فشل. تعلّمت من فشل صفقة القذائف بأنني أحتاج إلى مصادر معلومات أفضل مما لدي فيما يتعلق باحتياجات الزبائن.

كانت عمولتي على صفقة الرادارات ١٠٪ - أي ١٥ ألف دولار، ثمن واحد من الأجهزة. لم يكن المبلغ ثروة، إلاّ انني كنت أحس بالرضى لأن بدء العمل مع الايرانيين كان بالغ الصعوبة. وعلى المدى الطويل، افترضت ان التسليم السريع للأجهزة وحسن أدائها، سيفتح الباب لفرص أخرى في ما كان أكبر سوق للسلاح في ذلك الوقت. لقد تعاملنا نحن الاثنين بطريقة تجارية نموذجية ولم نخرق أي قانون، وكانت علاقاتنا ستتطور وتزدهر، لو لم يقرر الأميركيون تغيير سياستهم وتزويد الايرانيين بالسلاح. لقد أخلّ قرارهم الجديد بالوضع القائم في السوق وهدّد بحرمان التجار الذين يعملون، مثلي، خارج القنوات الرسمية - إلاّ اذا استطعنا ان نكون جزءاً من لعبة واشنطن.

* * *

سوق السلاح والإرهاب:
إدارة ريغان تدخل وتتنصّل

لم يكن للأميركيين أي سبب يدعوهم لمساندة أي من الطرفين في حرب الخليج. كان العراق يحظى بدعم الاتحاد السوفياتي، وهو بنفس الوقت أحد الدول الأشد عداوة لاسرائيل، حليف الولايات المتحدة الرئيسي في المنطقة. أما بالنسبة لايران، فبالاضافة إلى مسألة الرهائن المؤلمة، كان هناك قناعة متزايدة، بأن معظم أعمال الارهاب في الشرق الأوسط، وبالأخص في لبنان تتم بمعرفة النظام الايراني الذي ربما كان يقدم دعماً قوياً لمفجّري القنابل والخاطفين. بعد انتهاء أزمة الرهائن، أعلن الرئيس الأميركي ريغان موقفاً مشدداً ضد الارهاب ووضع ثقله لمنع أي تعامل مع الارهابيين، فضلاً عن عدم تزويدهم بالسلاح. وكانت استراتيجية الأميركيين الرئيسية ضمان حرية الملاحة في مضيق هرمز للأميركيين وغيرهم بالرغم من القتال الدائر هناك.

ومع هذا، تعرّض الرئيس ريغان منذ بدء ولايته الأولى في العام ١٩٨١، لضغوط من أعضاء في ادارته، تطالب بإعادة النظر في سياسة أميركا المتعلقة ببيع السلاح لايران، وكانت أولى هذه الضغوط من مسؤولين هالهم تعاظم نفوذ السوفيات في الشرق الأوسط. إن السجل اليومي بتسلسله الزمني، والذي أعدّه أرشيف الأمن القومي لتطور سياسة أميركا نحو ايران، والتي أدت فيما بعد إلى فضيحة ايران/كونترا، يظهر ان أول أعمال الكسندر هيغ، وزير خارجية ريغان، كانت الموافقة على نقل قطع غيار للطائرات المقاتلة من اسرائيل لايران، والتي لولاها لكانت هذه الطائرات غير قادرة على العمل، ويبدو ان الشحنات أصبحت تتم بانتظام بعد هذه الموافقة الأولية.

ولكن تزويد ايران بمعدات اميركية كان يخالف السياسة الأميركية المعلنة، وهو إذ يخرق قرار الحظر (إذا كان هناك قرار) فهو يخالف القانون. وكانت السلطات تقوم من وقت لآخر على اعادة تأكيد هذا القانون، بالادعاء على الذين يخرقونه. ففي أيلول ١٩٨٢، واجه ايان سمولي، وهو تاجر سلاح بريطاني يقيم في تكساس تهمة التآمر، مع رجلين آخرين، لبيع ايران مئة دبابة من طراز م ـ ٤٨ و٨٣٠٠ صاروخ مضاد للدبابات من طراز 'تاو' (تاو هو الاسم المكون من الأحرف الأولى للكلمات الانكليزية TOW التي تعني: يطلق من انبوب، يتابع بالنظر، يوجَّه بواسطة سلك وهو صاروخ موجّه خفيف الوزن يطلق من انبوب ومناسب لطبيعة الأرض الوعرة حيث كانت المعارك دائرة بين العراقيين والايرانيين. كان هذا الصاروخ من الأسلحة الأساسية في الحرب واحتاج الايرانيون إلى كميات كبيرة منه).

جرى اعتقال سمولي نتيجة لمكيدة شبيهة ببعض جوانبها من المكيدة التي أوقعت بي بعد أربع سنوات. لسوء حظي اني لم أسمع بها إلّا بعد فوات الأوان: وإلّا كنت أخذت

حذري. أطلق سراح البريطاني في شباط ١٩٨٣ لأن المحلّفين لم يثقوا بشهادة مخبر - لم يكن المخبر في هذه الحالة سايروس هاشمي، بل تاجر سلاح يدعى غاري هوارد، والأهم ان جزءاً من مرافعة محامي الدفاع كان الادعاء بأنه قد تمّ اقناع التاجر البريطاني بأن الصفقة نالت موافقة الحكومة الأميركية.

في العام ١٩٨٣، بدأت وزارة الخارجية الأميركية عملية «ستونش» Staunch، وهي عبارة عن حملة لاقناع دول أخرى بالالتزام بالحظر الأميركي ضد ايران. (إذا صحّ ما ادعاه بوينت دكستر بأنه لم يكن هناك قرار بالحظر، تكون الولايات المتحدة قد خدعت حلفاءها ومن بينهم بريطانيا والمانيا). ولكن العملية «ستونش» لم تلاقِ نجاحاً يذكر كما ذكر تقرير في مجلة التايم في تموز من ذلك العام. وقد كشف التقرير ان معدات عسكرية اميركية بمئات ملايين الدولارات كانت تباع لايران سنوياً من خلال دول أخرى أو تجار مستقلّين، وقد وصف التقرير بالتفصيل احدى هذه الصفقات التي تورط بها رجل، كنت سأتعرف إليه بعد ثلاث سنوات.

شركات «واجهة» تدخل البازار

كان سايروس وبالانيان هاشمي، وهما شقيقان من ايران قد أسسا شركات «واجهة» للعمل في تجارة السلاح. كانت احدى الشركات تتظاهر بإدارة محلات لبيع السجّاد العجمي في ستامفورد - كونكتيكت، وفي لندن، بينما كانت الأخرى والتي أسسها سايروس شركة تجارة عامة تدعى «زوومر فلاي المحدودة»، مقرها لندن أيضاً. بعد نشر المقال جرت محاكمة الشقيقين هاشمي وادانتهما بالاتجار غير المشروع بالسلاح بالرغم من ان سايروس كان يقيم آمناً في بريطانيا.

في أواخر العام ١٩٨٣ (مع ان الأمر لم يكشف حتى عام ١٩٨٧) تأسست شركة اخرى غير مرتبطة بآل هاشمي، لعقد صفقات بيع سلاح لايران. وكان أحد مظاهرها غير العادية انها ضمّت مسؤولين في الحكومة الاميركية، فحسب تقرير نشرته صحيفة نيويورك تايمز، أسس العقيد رالف برومان العامل في إدارة تابعة لوزارة الدفاع الأميركية في باريس وبول كتّر وهو دبلوماسي كانت له ارتباطات مع وكالة المخابرات المركزية، شركة «يوروبيان ديفنس اسوشيتس».. كان للشركة مكاتب في الولايات المتحدة وفرنسا، وحاولت بيع الايرانيين أسلحة تقدر قيمتها بمئات ملايين الدولارات وتضمّنت هذه الأسلحة دبابات وصواريخ وغواصات وطائرات مقاتلة. كما ورد في التقرير اسمان أصبحت الآن على معرفة بهما - برنارد فييللو، وهو تاجر سلاح فرنسي حاول ان يؤمن بعض المواد لصفقة ايفانز، ومانوشهر غوربانيفار، الوسيط الايراني والذي برز اسمه في التحقيق حول عملية اوليفر نورث المعروفة باسم «ايران كونترا» - فضيحة ايران - غيت.

في تشرين الأول ١٩٨٣، شنّ ارهابيون هجمات بالمتفجرات ضد السفارة الأميركية وثكنة مشاة البحرية الأميركية في بيروت، دارت شكوك حول تورط ايران. وفي كانون الثاني

١٩٨٤، ندّدت الحكومة الاميركية بشدة بإيران كنصير للارهاب الدولي وشددت من اجراءات الحظر ضدها. وفي وقت لاحق تمّ اختطاف عدد من الأميركيين ورعايا دول أخرى في بيروت ـ أيضاً مع احتمال ضلوع ايران في الأمر. كان أحد الأميركيين هو وليام بُكلي، رئيس محطّة المخابرات المركزية في العاصمة اللبنانية. فحاول العقيد اوليفر نورث من لجنة الأمن القومي تأمين دفع فدية للافراج عن بكلي ـ الذي مات في الأسر في النهاية. وعندما فشل، بدأت تتكون عند أعضاء اللجنة فكرة مبادلة الأسلحة بالرهائن: كانت الفكرة تقضي بأن تسمح الحكومة الأميركية ببيع اسلحة لايران مباشرة أو من خلال فريق ثالث إذا ما أخلي سبيل الرهائن الأميركيين.

السلاح مقابل الرهائن

إن التفاصيل الكاملة للعملية لا تزال مثار جدل، ولكن الظاهر ان غوربانيفار (الذي يعتقد الآن انه عميل لاسرائيل) هو أول من حاول بجهد تسويق فكرة هذا التبادل لدى ثيودور شاكلي، أحد مسؤولي وكالة المخابرات المركزية سابقاً، خلال اجتماعهم في هامبورغ في تشرين الثاني ١٩٨٤. كانت وجهة نظره هي انه بالاضافة إلى اتفاق محتمل حول الرهائن، فإن السماح بتزويد ايران بالسلاح قد يدعم تأثيرات المعتدلين الذين يناصرون الغرب على آية الله الخميني. ولكن السلطات الأميركية تلقّت هذه المقترحات ببرود بادىء الأمر، جزئياً لأنهم كانوا يعرفون إدعاءات غوربانيفار منذ أزمة رهائن السفارة الأميركية في ايران في العام ١٩٨٠، ولم يكونوا مقتنعين بأنه قادر على انجاز ما يعد به. وعندما أخضعوه لجهاز كشف الكذب (بوليغراف)، تبين انه كان يكذب حول أكثر من نقطة هامة، بما فيها عمق اتصالاته مع مسؤولين في ايران. وبالرغم من هذا، فقد استمر الاميركيون باستخدامه، لعدم وجود وسيط آخر. في هذه الأثناء كان وسطاء ايرانيون آخرون يعملون على صفقات سلاح إما مقابل المال أو في بعض الحالات مقابل معلومات حساسة عن نفوذ الاتحاد السوفياتي لدى النظام الايراني.

في صيف ١٩٨٥، أعطى تقرير لوكالة المخابرات المركزية، تقييماً قاتماً لأمل الأميركيين في اكتساب أي تأثير في ايران بعد موت الخميني، مما جعل الخبراء في لجنة الأمن القومي يسارعون لوضع مسودة خطة سياسية تقضي بأن تقوم الولايات المتحدة بحثّ حلفاء لها ـ اشارة واضحة لاسرائيل ـ على «مساعدة ايران على استيراد احتياجاتها الضرورية» وتضيف المسودة ان هذا الاستيراد «يتضمن تأمين معدات عسكرية مختارة وتحدد في كل حالة على حدة». عارض كل من جورج شولتز، وزير الخارجية وكاسبر واينبرغر، وزير الدفاع، هذا الاقتراح، وكان واينبرغر بالأخص شديد اللهجة في معارضته، ولكن هذه المعارضة لم تثنِ نورث أو رئيسه روبرت ماكفرلين، مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي، عن المضي في الخطة.

أوليفر نورث في الميدان

في رواية مليئة بالشخصيات الغريبة الأطوار وأخرى غير عادية، كان نورث أشدها غرابة. إنه بالنسبة لي يمثّل بضعة من أفضل صفات الأميركيين وكثيراً من أسوأها. كان نورث عقيداً وسيماً متميزاً، نال عدة أوسمة لشجاعته في فيتنام، وأمضى معظم أوقات عمله بعدها، في إدارة عمليات فائقة السرية لصالح أجهزة الأمن الأميركية، وكان رجلاً حازماً وصاحب مخيّلة غير عادية. يأتي بأفكار خطط كأنها من كتب مغامرات للأطفال. كانت احدى هذه الخطط، التي وضعها بعناية واتقان لتحرير واحد من الرهائن الأميركيين المحتجزين في بيروت، تتضمن استخدام أوراق نقدية لدفع الفدية تكون معالجة كيميائياً بحيث تتحلّل بعد أيام من تسليمها للخاطفين ولكن الخطّة لم تنفذ ومات الرهينة بعد ذلك.

عندما أدلى نورث بإفادته أمام جلسات الكونغرس لبحث قضية ايران ـ غيت، صوّر نورث نفسه على انه الوطني السوبر، المخلص والمستعد للقيام بأي عمل لمصلحة بلده، وأثار هذا ردود فعل حماسية واسعة لدى الرأي العام الأميركي، حسب ما أوردته استقصاءات الرأي، ووصل الأمر ببعضهم لدرجة مطالبته بأن يخوض معركة الانتخابات الرئاسية. ولكن بدا واضحاً ان نورث أراد ان يقرر بنفسه ما كان في صالح أميركا وما لم يكن، حتى لو تعارض ذلك مع وجهات نظر الكونغرس وكبار المسؤولين. كانت قناعاته الجازمة بأن على أميركا دعم الميليشيات التي تقاتل حكومة نيكاراغوا حتى تنقذ نصف الكرة الغربي من الشيوعية، تملي عليه معظم تحركاته. ومع ان الكونغرس رفض تبني فكرة هذا الدعم على النطاق الذي طلبه الرئيس ريغان، إلاّ ان هذا لم يهزّ قناعات نورث بضرورته وحتميته.

اعتبر نورث مبيعات الأسلحة لايران وسيلة لتحقيق الغاية التي ورد ذكرها، فلم يلق بالاً لمعارضة وزيري الخارجية والدفاع لخط العمل الذي اعتمده، بالرغم من انه كان يقع في دائرة مسؤوليتهما. كان إذا آمن بصحة شيء ما، يقوم بتنفيذه بدون حياء وبغض النظر عن آراء الغير، واعترف في جزء من إفادته أمام الكونغرس بأنه قام، في وقت ما بعد انكشاف تفاصيل ايران كونترا، باتلاف وثائق هامة متعلقة بالموضوع بينما كان المحققون من مكتب المدعي العام يبحثون عن الأدلة في مكاتب لا تبعد سوى أمتار قليلة عن مكتبه.

* * *

ايران ـ غيت: فضيحة الصفقات

أثار تحويل الأرباح الطائلة المتأتية عن صفقات السلاح لايران (كان الايرانيون يدفعون أسعاراً مضاعفة) لمساعدة ثوار الكونترا، عندما تم فضح الأمر، ضجة أكبر من الضجة التي أثارتها الصفقات نفسها. ومع انني لا أؤيد سياسة الحكومة النيكاراغوية، إلاّ انني لا أعتقد ان من حق أية دولة أخرى ان تدعم محاولات الاطاحة بها ـ بالأخص دولة، يحدث رئيسها ضجة كبيرة في تنديده بالارهاب. إن هذا مجرّد رياء.

أثار نورث في جلسات الكونغرس نقطتين لهما علاقة بقضيتي. **النقطة الأولى**: قوله بأن الرئيس ريغان لم يعرف بأمر تحويل الأموال إلى ثوار الكونترا حسب علمه، ولكنه، أي الرئيس ريغان، وقّع وثيقة تصرح ببيع السلاح لايران - وانه قام بذلك قبل اعداد الاتهامات المزعومة. **والثانية**: قوله بأن اد ميز، المدعي العام آنذاك، دعم خطة تحويل الأموال إلى ثوار الكونترا. كما ان ميز نفسه، أخبر المحققين من أعضاء الكونغرس في ٢٨ تموز، ١٩٨٧، بأن العقيد نورث استشاره حول صفقات السلاح السرية لايران في كانون الثاني ١٩٨٦ - أي قبل اعتقالي بمدة ثلاثة أشهر. ولم يكتف ميز آنذاك بالقول انه كان يحبذ تلك الخطط ولكنه أضاف بأنه يعتقد بأن اخفاء أمر المبيعات عن الكونغرس كان مشروعاً ولا يخالف القوانين. ومع هذا كان ميز، بصفته مدعياً عاماً، على رأس السلطة المختصة بإتخاذ الاجراءات القانونية في الادعاء عليَّ وعلى الآخرين. وكنت أتساءل دائماً: ما دام ميز يعرف بأن نورث يقوم بما اتهمني به، فكيف استطاع ان يبرّر الاختلاف في طريقة معاملتنا؟

في ١٤ حزيران ١٩٨٥، برزت مسألة الارهاب إلى الواجهة مقدماً عندما أقدم اثنان (من الشيعة) من لبنان، على اختطاف طائرة تابعة للخطوط الجوية عبر العالم (TWA) أثناء رحلتها من أثينا إلى روما، واجبارها على الهبوط في مطار بيروت، حيث قتل راكب اميركي واختطف ثلاثة عشرة آخرين. كان الخاطفون من انصار الخميني، وأدّى تدخّل هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس الشورى آنذاك، بناء على ضغوط أميركية، إلى اطلاق الرهائن بعد ستة عشر يوماً. وكشف النقاب لاحقاً بأن الرئيس ريغان بعث برسالة شكر إلى رفسنجاني مع انه، أي ريغان، وبعد بضعة أيام من اطلاق الرهائن، القى خطاباً يندد فيه بايران «كشريك في مؤسسة قتل دولية جديدة».

كيف دخل الاسرائيليون على الخطّ؟

كان الاسرائيليون في هذه الأثناء، يبدون رغبتهم في بيع أسلحة اميركية لايران بإذن من الولايات المتحدة وبالتزام منها بتعويض هذه الأسلحة بشحنات من الأسلحة الأميركية الحديثة. وقد أثار دافيد كمحي، أمين عام وزارة الخارجية الاسرائيلية، هذا الموضوع مع ماكفرلين أثناء اجتماعهما في البيت الأبيض في ٣ تموز، وفي وقت لاحق من ذلك الشهر توجه كيمحي إلى هامبورغ لبحث موضوع صفقات السلاح هذه مع غوربانيفار وخاشقجي وآخرين. وأفادت التقارير بأن شخصين أميركيين حضرا تلك اللقاءات، ومع انه لم يتم الكشف عن هوية الرجلين، إلاّ ان المعتقد بأنهما كانا يمثلان لجنة الأمن القومي.

كان دور خاشقجي تمويل الصفقات الاسرائيلية/الايرانية وكان هذا ضرورياً لانعدام الثقة المتبادل بين الاسرائيليين والايرانيين. أعطى الاسرائيليون خاشقجي رقم حساب مصرفي لايداع ثمن الأسلحة وقام هذا الأخير بدفع المبالغ المتفق عليها (ادعى لاحقاً بأنه اقترض هذه المبالغ من رولاند «الصغير») فبدأ الاسرائيليون عملية تزويد ايران بالسلاح. وعمد غوربانيفار إلى تسليم خاشقجي كتاب اعتماد مصرفي قابلاً للتحصيل بعد استلام

وفحص الأسلحة في ايران. كان خاشقجي مجرد «سندوق رهان مستعد للوثوق بالطرفين، وكنت دائماً أفكر بأنه لو توفر من يقدّم لي نفس الخدمات، لهان الكثير من مشاكلي.

بحلول شهر آب ١٩٨٥، كانت الصفقة قد تحددت بوضوح. كان الايرانيون بحاجة لخمسمئة صاروخ 'تاو' من اسرائيل، وتعهدوا مقابل ذلك، باطلاق واحد من الرهائن. (كان بكلي الذي يريد الاميركيون استرجاعه بالحاح لعلاقته مع وكالة المخابرات المركزية قد قتل في حزيران، ولكن الأمر بقي طي الكتمان حتى تشرين الأول). كان واضحاً ان الاتفاقية هذه قد نالت الموافقة على أعلى المستويات في البيت الأبيض، مع ان أمر معرفة الرئيس ريغان بالموضوع في هذه المرحلة المبكرة لا يزال مثار جدل. في أواخر آب، وبعد ترتيبات شحن أعدت بعناية من خلال البرتغال، تمَّ تسليم الدفعة الأولى - ١٠٠ صاروخ - باستخدام طائرة تابعة لوكالة المخابرات المركزية، ودفع الايرانيون للاسرائيليين مبلغ مليون دولار ثمناً للشحنة عبر خاشقجي، وكان هذا المبلغ أكبر بكثير مما دفعه الاسرائيليون للأميركيين.

في أيلول تمَّ تسليم ٤٠٨ صواريخ «تاو» أخرى، وانتقل مبلغ ٣ ملايين دولار من يد ليد. بعد يومين تم اطلاق القس بنجامين وير في بيروت، وسمح له بالعودة إلى وطنه. أثبت الكشف بأن بعض الصواريخ غير صالحة فتم استبدالها، ولكن هذا لم يؤثر في رضى الطرفين عن الصفقة.

في ٧ تشرين الأول ١٩٨٥، شدّ انتباه العالم، عمل ارهابي آخر، عندما قام خمسة فلسطينيين باختطاف السفينة آخيل لورو، خارج مياه مصر الاقليمية. قتل راكب اميركي، وقامت الادارة الأميركية كعادتها بالتنديد بالارهاب الدولي - بينما كانوا يعقدون الصفقات السرية مع دول يفترض انها تساند الارهابيين. استسلم الخاطفون بعد يومين على ان يجري نقلهم بأمان في طائرة مصرية: ولكن المقاتلات الأميركية اعترضت الطائرة وأجبرتها على الهبوط في جزيرة صقلية، حيث قامت السلطات الايطالية باعتقال الخاطفين. كان العقيد نورث ومساعد الاميرال بوينت دكستر، اثنان من المسؤولين عن عملية اعتراض الطائرة المصرية، فلاقاها الأميركيون بالاستحسان وأدت إلى ارتفاع كبير في شعبية الرئيس ريغان.

ولكنها لم تثن العقيد نورث وشركائه عن المضيّ في مناقشة صفقات أسلحة - مقابل - رهائن مع الايرانيين، وكانت الخطة في المرحلة التالية تقضي باطلاق سراح بقية الرهائن الأميركيين، وعددهم خمسة، مقابل حصول ايران على ١٢٠ صاروخ أرض - جو من طراز هوك. كان الايرانيون يحتاجون هذه الصواريخ لردع طائرات الاستطلاع السوفياتية التي تطير على ارتفاعات عالية - ٧٠ ألف قدم - فوق الحدود الايرانية السوفياتية. ولكن صاروخ هوك في شكله الرئيسي اي دون تطوير، فعّال فقط ضد طائرات على ارتفاعات منخفضة ومتوسطة، فأصيب الايرانيون بخيبة أمل من أداء الدفعة الأولى من ١٨ صاروخاً تسلّموها في تشرين الثاني، وبالأخص عندما اكتشفوا كتابات بالعبرية عليها.

وصف العقيد نورث ردة فعل الايرانيين في مذكرة كتبها لمساعد الاميرال بوينت دكستر بقوله: «خلقت هذه الشحنة جواً غير عادي من عدم الثقة لدى الايرانيين»، مضيفاً ان غوربانيفار اتّهم الاسرائيليين والايرانيين بأنهم يلعبون «لعبة خداع».

لاعادة الثقة، أعد نورث، خطة صفقة تتضمن تزويد ايران بخمسين صاروخاً من طراز «هوك» جرى تسليم هذه الصواريخ على مراحل تترافق مع اطلاق رهينة مقابل كل حمولة طائرة تصل إلى ايران. ولما انتشرت أخبار هذه الخطط بين مسؤولي البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية، عبّر البعض عن قلقه من مخالفة هذه الخطط الواضحة للقانون وللتأكد من إضفاء الشرعية على هذه الخطط، كان من المفروض التصريح بها رسمياً عبر ما يُسمّى «استنتاج رئاسي»، يعطي رئيس السلطة التنفيذية الحق في اتخاذ قرارات معينة في سبيل الصالح القومي.

مخرج «الاستنتاج الرئاسي»:
ريغان يعطي الضوء الأخضر

وضع مسؤول في وكالة المخابرات المركزية نصّ مسودة «الاستنتاج الرئاسي» الذي تضمن هذه العبارة: «يمكن تزويد معدات عسكرية وذخائر إلى حكومة ايران التي بدأت باتخاذ خطوات نحو اطلاق سراح الرهائن الأميركيين». وحسب ما جاء في شهادة بوينت دكستر في جلسات الكونغرس، فقد وقّع الرئيس ريغان صيغة القرار في كانون الأول، كما حضر الاجتماع الذي نوقشت خلاله الخطة، وأصرّ شولتز وواينبرغر على موقفهما المعارض لمبادلة الرهائن بالسلاح. وبناء على هذه المعارضة، توقف تنفيذ الخطة.

بالرغم من كل هذا، كان بين أعضاء لجنة الأمن القومي مَن يرغب باستمرار محاولة تحرير الرهائن مقابل السماح باستمرار تزويد ايران بالسلاح. وفي نفس الوقت، كان غوربانيفار يضغط بدوره من أجل صفقات جديدة، مركزاً على ان تزويد ايران بالسلاح سيدعم موقف العناصر المعتدلة في الجيش الايراني بمنحها القدرة على الانتصار على العراق. وبرز هذا الاتجاه في مسودة استنتاج رئاسي» جديد عرضت على الرئيس ووقّعها في ٦ كانون الثاني ١٩٨٦، وكانت تتضمن العبارة التالية:

> ان الولايات المتحدة ستعمل على تسهيل جهود يبذلها طرف ثالث ودول أخرى لإقامة اتصالات مع عناصر معتدلة داخل وخارج الحكومة الايرانية، عبر تزويدها بالأسلحة والمعدات والمواد الضرورية لدعم مصداقية هذه العناصر عند محاولتها المجيء بحكومة جديدة تكون أكثر ارتباطاً بحكومة الولايات المتحدة وذلك بإثبات قدرتها ـ أي قدرة العناصر المعتدلة ـ في الحصول على احتياجاتها للدفاع عن بلادها ضد العراق وضد أي تدخل من قبل الاتحاد السوفياتي.

كانت هذه بالضبط هي النقاط التي أثرتها في أقوالي أمام المحكمة في حزيران. لم أكن بالطبع قد رأيت مسودة «الاستنتاج»، ولكن التشابه الغريب مع ما قلته كان دليلاً واضحاً على دقة المعلومات التي سُرّبت إلينا قبل ان نتورط بالصفقة، عن سياسة اميركا غير المعلنة، وكانت تظهر بأننا لم نكن نعمل صدفة ضمن أطر هذه السياسة، بل كنا نعي ذلك.

في ١٧ كانون الثاني ١٩٨٦، وقّع الرئيس ريغان «استنتاجاً» آخر، كثير الشبه بما سبقه ولكن مع اختلاف بارز: لم تكن اسرائيل لتستمر كاحدى قنوات تسليم السلاح لايران، وعوضاً عن ذلك يتم التسليم مباشرة من قبل الولايات المتحدة، فتقوم وكالة المخابرات المركزية بطلب ٤ آلاف صاروخ «تاو» رسمياً من وزارة الدفاع وتسلمها لايران، وهكذا صرّح الرئيس بمبيعات سلاح أميركي، مباشرة لايران، للمرة الأولى منذ الحظر الذي فرض على أثر نشوب أزمة الرهائن في العام ١٩٨٠. وكتب الرئيس في مفكرته جملة مقتضبة: «لقد وافقت على بيع صواريخ 'تاو' لايران» (أحضرت «لجنة تاور للتحقيق» المفكرة على انها أحد الأدلة القانونية). وكان الرئيس بذلك يقوم بختم موافقته الرئاسية على نفس العمل الجرمي الذي اتهمت به بعد مضي ثلاثة أشهر على ذلك. الفرق انني أمضيت مدة سبعة أشهر في السجن بينما استمر هو في مركزه المريح في البيت الأبيض.

هنا، وبعد ان أعطى الرئيس الضوء الأخضر، جدد نورث محاولاته لتزويد ايران بكميات اضافية من الصواريخ. كما أضيف عنصر جديد إلى الصفقة يقضي بتزويد ايران بمعلومات مخابراتية عن العراقيين كتشجيع اضافي في سبيل اطلاق الرهائن. وكانت ستجري لقاءات بين مسؤولين اميركيين وايرانيين، تمَّ احدها في طهران وآخر في فرانكفورت خلال شهر شباط.

كان نورث وشريكه سيكورد من بين الأميركيين الذين حضروا اجتماع فرانكفورت. وحسب ما ورد في شهادة نورث في جلسات الكونغرس المخصصة للتحقيق في القضية.

كان هذا الاجتماع الذي اقترح غوربانيفار خلاله، وكان يعرف بجهود نورث لمساعدة ثوار الكونترا، أن بعضاً من المداخيل الفائضة من الصفقات الايرانية يمكن ان يستخدم لشراء السلاح للثوار. هنا يقول نورث ان الاقتراح ورد خلال مناقشة جرت في غرفة الحمام في جناح أحد الفنادق. كان هذا يبدو غريباً لدرجة ان كثيراً من المعلّقين لم يصدقوه، ولكن نورث أصرَّ على صحته، معلقاً بالقول: «لقد كانت فكرة نظيفة».

في ذلك الشهر قام خاشقجي بتأمين مبلغ ١٠ ملايين دولار كجسر تمويلي للصفقة الجديدة، أودعها في حساب مصرفي محدّد في كريدي سويس في جنيف. في ١٤ شباط، تمَّ ارسال الدفعة الأولى المكونة من ألف صاروخ «تاو» إلى اسرائيل التي كانت ستبقى همزة وصل مع ان هذه الصفقة الجديدة كانت ترتيباً مباشراً بين الأميركيين والايرانيين، ووصلت الصواريخ إلى طهران بعد اسبوع. (خلال هذه الأشهر الأولى من العام ١٩٨٦، كان سايروس هاشمي يحاول الايقاع بي وبالمتهمين الآخرين. في حالتي باعترافي عبر مكالمات

هاتفية مراقبة بأن الأسلحة التي كنت سأبيعها لايران هي أميركية الصنع. كان يحاول اثبات ارتكاب مخالفة قانونية).

كان الاتفاق يقضي بأن يطلق سراح الرهائن الأميركيين بعد هذه الشحنة الأولى، على ان تتبعها شحنة تبلغ ٣ آلاف صاروخ. بالاضافة إلى تأمين لقاءات بين مسؤولين ايرانيين وأميركيين على مستويات أرفع، في محاولة لتحسين العلاقات بين البلدين، ولكن الايرانيين رفضوا قيمة الرهان: طلبوا ان يتم تسليم كمية ٥٠٠ صاروخ أخرى قبل اطلاق الرهائن، فتمّ تسليمها ولكن الرهائن بقيت مكانها.

في آذار ١٩٨٦، رفع الايرانيون قيمة الرهان مرة أخرى: كانوا يريدون هذه المرة صواريخ جو-جو من طراز «سفنكس» لاستخدامها في طائرات ف-١٤ الاعتراضية، بالاضافة إلى صواريخ «هاربوون» لمهاجمة السفن. رفض الاميركيون هذه المطالب، وتعثرت الصفقة طيلة شهر آذار. زار غوربانيفار طهران وعقد لدى عودته اجتماعاً مع نورث وشركائه دام طوال الليل، تجدّدت خلاله المفاوضات وتم الاتفاق على جدول زمني جديد، يتزامن فيه اطلاق الرهائن مع تسليم اسلحة جديدة.

رحلة ماكفرلين الفاشلة
وافتعال حادثة خليج «سرت»

وتمت ترتيبات زيارة يقوم بها روبرت ماكفرلين، مستشار الرئيس الأميركي لشؤون الأمن القومي والذي كان قد تقاعد مؤخراً، إلى طهران على متن طائرة تنقل أيضاً بعض الأسلحة الموعودة. ولكن انعدام الثقة بين الطرفين كان بادياً للعيان واستمر الايرانيون في موقفهم المتأرجح فيما إذا كان عليهم ان يطلقوا سراح الرهائن قبل تسليم كامل كمية السلاح المتفق عليها أو جزء منها، كما كان الاميركيون بدورهم يؤجلون قرارهم حول امكانية تضمين الصفقة اجهزة رادار حديثة تعتبر من المعدات العسكرية الشديدة السرية.

تصاعد التوتر في الشرق الأوسط خلال شهر آذار، عندما أرسل الاميركيون ثلاث حاملات طائرات إلى خليج سرت خارج المياه الاقليمية الليبية. كان الدافع، كما ظهر لاحقاً، هو إثارة ردود فعل ليبية تبرّر غادة جوية يقصد بها معاقبة ليبيا. في ٢٤ آذار أطلق الليبيون النار على السفن الأميركية فردت أميركا بغارة ثأرية دمرت باخرتين ليبيتين خلالها، دعا الرئيس الليبي معمر القذافي إلى اعلان الحرب على أميركا ولكن الحادث لم يتفاعل بسرعة.

لكن، وفي ٤ نيسان، قتل جندي أميركي وأصيب آخرون من جراء قنبلة دمّرت ملهى لابيل في برلين الغربية. وجّه الأميركيون الاتهام بسرعة ضد ليبيا، مع ان الأدلة اثبتت لاحقاً بأن سواهم كان وراء العملية، وبعد عشرة أيام قامت الطائرات الأميركية بقصف أهداف ليبية مما ألحق أضراراً جسيمة بمدينة طرابلس وأوقع الكثير من القتلى من بينهم طفلة

قيل إنها ابنة القذافي. (ألقت دلائل أخرى بعض الشكوك على صحة هذه الرواية). كان أحد أهداف الهجوم، كما قيل، هو قتل القذافي نفسه، مما أثار شكوكاً جديدة لدى الايرانيين حول نوايا اميركا الحسنة في صفقة اسلحة ـ مقابل ـ رهائن، وأدى إلى اعدام أحد الرهائن الأميركيين في بيروت، إذ قتل بيتر كيلبيرن، من قبل محتجزيه انتقاماً للغارة على ليبيا.

في أواخر نيسان، لم تكن المفاوضات قد حققت أي تقدم يذكر، وكانت المحاولات لجمع مسؤولين اميركيين وايرانيين كبار، تفشل باستمرار في آخر لحظة، فقرر الأميركيون التخلي عن المشروع إذا لم يحصل تطور ملحوظ خلال الاسبوعين او الثلاثة التالية. في نفس هذه الفترة، كان خاشقجي يعرض على رولاند «الصغير»، رجل الأعمال البريطاني، فكرة ان يقوم هذا الأخير بتمويل الصفقة الجديدة مؤكداً له انها تلقى دعم كبار المسؤولين الأميركيين كما قام المسؤولون الاسرائيليون بتأكيد ذلك. ولما لم يكن رولاند متأكداً بعد، فقد سأل تشارلز برايس، السفير الأميركي في لندن عن الموضوع. قال برايس انه لا يعرف شيئاً عن الموضوع ولكنه استفسر من بوينت دكستر الذي أبلغه بأن هناك بعض الصحة في الأمر، إلّا ان رواية خاشقجي لم تكن دقيقة بمجملها، فرفض رولاند طلب التمويل، وفي ٥ أيار كتب اوليفر نورث في مذكرة إلى بوينت دكستر يقول: «إننا لا نعتقد بأن «الصغير» لا يزال على علاقة بهذه الجهود». استطاع خاشقجي ان يحصل أخيراً على وعد بالمساعدة من رجلي أعمال كنديين، ولكنني في هذا الوقت كنت أتمتع بضيافة الدائرة الاصلاحية في الولايات المتحدة.

* * *

عود على بدء : مصداقية سمسار

هكذا تطورت سياسة أميركا المتعلّقة بمبيعات الأسلحة إلى ايران، حسب ما ورد في تقرير لجنة تاور التي شكلت في أواخر عام ١٩٨٦ للتحقيق في الملابسات التي كانت قد كشفت في وقت سابق، وبالأخص دور لجنة الأمن القومي. كما ظهرت تفاصيل أخرى في جلسات الكونغرس المخصصة للتحقيق في القضية خلال صيف ١٩٨٧، عندما أدلى نورث بشهادته. في الوقت الذي كشفت كل التفاصيل للرأي العام الأميركي، كنت قد أمضيت ستة أشهر ونصف الشهر في مركز متروبوليتان الاصلاحي وعُدتُ إلى لندن بعد ان أخلي سبيلي بكفالة. في الوقت الذي تم اعتقالي، كنت بالكاد أعرف أياً من هذه التفاصيل مع انني كنت أعرف الاطار العام لسياسة الخداع الأميركية، وليستطيع القارىء ان يفهم الدوافع التي دفعتني إلى القيام بهذا العمل، أجد من الضروري ان أذكر الحقائق كما عرفتها في ذلك الوقت وكما أطلعني عليها سام ايفانز فيما بعد. ان بعض التفاصيل في الفصل التالي تتعارض مع الرواية الرسمية، وبالأخص في وصف سام لدور روي فيرمارك. أما سايروس هاشمي، الشخصية الرئيسية في قضيتي، فلم يحظ إلّا بذكر عابر في تقرير لجنة تاور ولم يُسَمَّ

بالاسم في كل جلسات الكونغرس، على الأقل في التقارير التي نشرت عن وقائع هذه الجسات.

إن الحقيقة الكاملة للقضية قد لا تعرف أبداً، ولكن ما يبرز بوضوح في الفصل التالي هو ان سام وبعض شركائه كانوا على اتصال وثيق بأشخاص داخل الادارة الأميركية، وكان هؤلاء الأشخاص يطلعونهم على التحول في مواقف لجنة الأمن القومي بدقة لا يمكن ان تأتي إلاّ من معلومات داخلية مباشرة، ومع هذا عندما أعلنت هذه الاداعاءات في قاعة المحكمة في نيويورك، قبل ان تكشف صفقات الاسلحة الأميركية لايران، صبَّ الادعاء هزءه وسخريته على رأسي. ليس غريباً ان يحاولوا تجريدي، وزملائي المتهمين الآخرين، من مصداقيتنا، لأننا لو استطعنا اثبات موافقة الادارة الأميركية على عملنا، كما كنّا ندرك آنذاك، لما استطاعوا اتهامنا بالتورط في عمل جرمي مقصود.

يحتلّ مكتب المدعي العام لولاية نيويورك، مركزاً متدنياً في هرم وزارة العدلية، وأنا أؤمن انهم لم يكونوا في الحقيقة يعرفون بأمر الصفقات السرية مع ان ادوين ميز كان بالتأكيد يعرف. إذ قال في جلسات الكونغرس بأن تحقيقاته حول مبيعات الأسلحة حتى تشرين الثاني ١٩٨٦، عندما كشفت القضية للرأي العام للمرة الأولى، أدّت به إلى الاستنتاج بأنه «لم يكن هناك أي دليل على ارتكاب مخالفات قانونية في عقد الصفقات مع ايران» وهكذا أعيد السؤال: إذا لم يكن بيع السلاح لايران من قبل نورث عملاً جرمياً، فلماذا يصبح كذلك في حالتي، أو في حالة سام ايفانز والبقية منا؟ بالأخص واننا كنّا على يقين ـ بينما لم تكن جهة الادعاء كذلك ـ بأن هذه السياسة نالت موافقة رأس السلطة التنفيذية والاجرائية في الادارة الاميركية.

الفصل الرابع

تعليق «الطعم» على الصنّارة

كان صباحاً رطباً، سَكَنت ريحه في أول اسبوع من تشرين الأول ١٩٨٥. قدت سيارتي باكراً إلى مكتبي في كريللوود مُعتزماً قضاء اليوم في محاولة دفع أكبر صفقة أعمل عليها حالياً إلى الأمام - بيع طائرتي «بفالو» صنع كندا من السودان بمبلغ ٢٤ مليون دولار. بعد نصف ساعة من وصولي اتصل بي سام ايفانز هاتفاً. دهشت قليلاً لأنني لم أر سام خلال شهرين. دخل سام في الموضوع مباشرة دون الالتفات إلى المقدمات العادية.

- «هرمان، من الضروري ان أتحدّث إليك. لقد استجدّ أمر ولا أريد بحثه عبر الهاتف. هل تستطيع ملاقاتي على الغداء في نادي السفراء؟»

لم أكن أنوي الذهاب إلى الحي الغربي ذلك اليوم، ولكنني أخبرته انني استيطع ذلك اذا كان الأمر ملحّاً، وكنت قد أحسست من نبرات صوته التي لم يستطع ان يكبت الاثارة فيها أن الأمر كذلك. كان سام من أكثر الرجال الذين عرفتهم اتزاناً وبعداً عن الاستثارة، فالأمر إذاً كبير وهام.

أضاف سام: «ليكن اللقاء في وقت مبكر. قابلني في النادي في الثانية عشرة والنصف».

وصلت في الوقت المحدّد، وطلبت من البواب ان يوقف سيارتي الجاكوار. كان النادي لا يفتح أبوابه قبل منتصف النهار ولم يكن أحد قد وصل بعد، إلاّ ان سام كان بانتظاري في قاعة المكتبة التي تكسو جدرانها ألواح خشب البلوط. أحضر النادل شرابنا بسرعة، وأخبرني سام، للمرة الأولى، بأمر سايروس هاشمي. ومع ان هذا الاسم سيبقى في ذاكرتي منذ اللحظة الأولى للقائي معه، إلاّ ان سام الحريص لم يسمّه خلال هذا اللقاء ولفترة طويلة لاحقة. كان يشير إليه بمجرد عبارة «الزبون الايراني». وحتى بعد ان بدأت مفاوضاتي مع هذا الزبون لم يسمح لي بالاطلاع على اسمه الحقيقي، وطُلبَ مني ان أخاطبه باسم **'الدكتور'**.

بعد بعض الوقت اكتشفت ان سام التقى هاشمي في أوائل ١٩٨٥ من خلال أحد عملائه، روي فورمارك، وهو رجل أعمال من نيويورك كان صديقاً لوليام كاسي المتوفي، والذي كان آنذاك رئيساً لوكالة المخابرات المركزية. قال فورمارك لسام بأنه علم من كاسي بأمر يصعب تصديقه في ذلك الوقت: كان الأميركيون ولبعض الوقت، يشجعون مبيعات سلاح سرية لايران. كان فورمارك يعرف ان سام يعمل لعدنان خاشقجي وبأن الثري

السعودي متورط في تجارة السلاح. وكان فورمارك شريكاً لسايروس هاشمي، وهو ثري ايراني وابن عم هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس الشورى الايراني في ذلك الوقت.

بدأت شراكة فورمارك وهاشمي حول صفقة نفط محتملة، إذ كان هاشمي قد اطلع فورمارك بأنه يستطيع الحصول على عقود لبيع ١٠٠ ألف برميل من النفط الايراني الخام يومياً، وكانت الفكرة ان يقوم الاثنان ببيعها من سماسرة نفط معروفين، ويقوم هؤلاء ببيعها بدورهم من احدى شركات النفط الكبرى. ومع الفوضى في صناعة النفط الايرانية التي نشأت بعد سقوط الشاه، كانت هذه هي الطريقة التي تجرى بها الصفقات النفطية. وكانت أرباح فورمارك وهاشمي المتوقعة طائلة ٢٠ سنتاً على البرميل الواحد، أي ٢٠ ألف دولار يومياً، ما دام النفط مستمراً بالتدفق.

كان سام قد قام باتمام الاجراءات القانونية لهذه الشركة، وطلب فورمارك منه أن يعرّف هاشمي بخاشقجي. كانت الفكرة ان يتعاون الرجلان في صفقات سلاح مثمرة، وسام هو الممثل القانوني لخاشقجي وشركته «ترياد غروب» لأكثر من عشر سنوات، ولكنه لم يتورط أبداً بصفقات السلاح، وفي مذكرة قدّمها للمحكمة في نيويورك بعد اعتقالنا، يقول سام عن تعامل خاشقجي بالأسلحة:

> «كان التعامل بهذه النشاطات بالتحديد، مقصوراً على خاشقجي نفسه، أو خاشقجي بمساعدة بعض من خلصائه العرب أو خاشقجي بالتعاون مع شركته الخاصة بالتسويق ـ وهذه الأخيرة عندما يتعلق الأمر ببيع أجهزة دفاعية من صنع لوكهيد، نورثروب أو شركات أميركية متخصصة في مقاولات الأجهزة الأمنية. كانت الشركة الخاصة بالتسويق، شخصية مستقلّة، لها جهازها الخاص من العاملين يتضمن المستشارين القانونيين (لم أكن أنا بينهم) ولم تكن لي أية علاقة من أي نوع بأي من نشاطاتها».

قام فورمارك بتعريف سام إلى هاشمي، وأعجب سام، كما أخبرني في وقت لاحق بثراء هاشمي البادي عليه، كانت قمصانه مصنوعة من الحرير الطبيعي وكذلك بعض بدلاته، وكانت الساعات والمجوهرات التي يرتديها فخمة غالية الثمن. قام سام بتعريف هاشمي وفورمارك بخاشقجي، وفي نيسان ١٩٨٥ اتفق الثلاثة على تأسيس شركة مساهمة باسم «المجموعة التجارية العالمية» المكوّنة من ثلاثة شركات رافدة متخصصة للعمل مع ايران: واحدة لتوزيع معدات زراعية، وواحدة لتجارة النفط والأخرى لتزويد الأسلحة، وأصبح هاشمي المدير التنفيذي للمجموعة وسام ايفانز مستشارها القانوني.

في حزيران ١٩٨٥، ذهب الأربعة إلى هامبورغ، حيث التقوا مانوشهر غوربانيفار، وهو أحد أصدقاء هاشمي من ايران وسيكون له دور في قضية ايران ـ غيت. في الشهر الثاني، حسب رواية سام، ذهب خاشقجي وهاشمي إلى اسرائيل حيث اجتمعا مع شمعون بيريز، رئيس وزراء اسرائيل آنذاك، لبحث موضوع تزويد ايران بأسلحة اميركية

عبر اسرائيل. (نفى الاسرائيليون امر الاجتماع). وكان انطباع سام، عندها، ان الصفقات قد نالت موافقة أميركا الضمنية مع ان هذه الأخيرة لا يمكنها تبني الصفقات علناً.

ولكن سرعان ما نشب خلاف بين خاشقجي وهاشمي، وكانت تقارير تفيد بأن خاشقجي يعاني صعوبات مالية في ذلك الوقت، ولم يستطع تأمين الأموال اللازمة لتنفيذ دوره كمموّل للمجموعة. ولكن هذا الأمر لا ينطبق على حقيقة ان خاشقجي وغوربانيفار، كما أظهرت تحقيقات لجنة تاور، قد زارا هامبورغ في تموز، دون ان يرافقهما هاشمي، لمناقشة احتمالات تزويد ايران بالسلاح مع دايفيد كمحي من الخارجية الاسرائيلية - واحد من الاجتماعات الأولية في صفقات ايران - غيت.

في آب، اشترى هاشمي حصة خاشقجي في المجموعة التجارية مع ان أياً من شركاتها لم تكن قد انجزت أية صفقة حتى ذلك الوقت، وبعد بضعة أسابيع، طلب هاشمي من سام ان يأخذ دوراً في صفقات السلاح المقترحة، ليس كمستشار قانوني، ولكن مقابل ١٠٪ من قيمة هذه الصفقات، واستأجرا لهذا الغرض في نفس المبنى في بلغراف الذي يضم مكاتب سام.

لم يطلعني سام على أي من هذه التفاصيل عندما دعاني للقائه في نادي السفراء في تشرين الأول، ولكنه قال: إن «الزبون الايراني» كان يستكشف احتمالات شراء أسلحة ويريد أن يعرف ما هو متوفر في السوق، وبأن الايرانيين يرغبون في أسلحة جديدة من صنع أميركي، وانهم في هذا الوقت يعملون على خطة لشحن طائرات مقاتلة غير مستعملة من طراز ف - ٤ إي، مباشرة من الولايات المتحدة إلى ايران. أكّد لي سام بأن الزبون له نفوذ كبير في الحكومة الايرانية وأصرّ على القول بأن الصفقة ستتم بموافقة الحكومة الأميركية. ولكن هذا لم يخفف من شكوكي.

سألت سام:

> «هل تصدق ذلك، يا سام؟ أقصد بأننا جميعنا نعرف بأن أميركا تبيع السلاح من الايرانيين عبر اسرائيل، ولكنني لا أتصورك تؤمن حقاً بأنهم سيشحنون السلاح مباشرة من الولايات المتحدة؟ لا تنس ان هناك حظراً ما لا يزال قائماً، لأنهم يعتبرون ايران مسؤولة عن أكثر أعمال الارهاب في الشرق الأوسط. فكرّ بالاحراجات السياسية للأميركيين في حال انكشف الأمر - ومن المؤكد انه سينكشف في النهاية فأصدقاؤنا الأميركيون لا يجيدون حفظ الأسرار».

أذكر ان سام، قال شيئاً عندها اعتبرته أنا غير قابل للتصديق وبأنه يبدو خيالات كلية.

ـ «ان الصفقة هي الآن على مكتب [نائب الرئيس] جورج بوش في البيت الأبيض، ويبدو انها ستحصل على الضوء الأخضر».

وأخبرني سام ان مصدر معلوماته رجلان فرنسيان غامضان كان قد التقاهما، ويبدوان مطّلعين ولهما صلات ممتازة في واشنطن، وربما مع وكالة المخابرات المركزية. كان الرجلان جون وبرنار فييلّلو. وكانت قصتهما تفيد بأن الأميركيين راغبون في اجراء الصفقة بدقّة لأنهم يعتقدون ان لإيران تأثيراً قوياً على المجموعات الارهابية اللبنانية التي كانت تحتجز الرهائن الأميركيين، وكانت الصفقة تتضمن عقد اجتماع بين ممثلي البلدين لبحث استئناف العلاقات الطبيعية بينهما.

بدأت القصّة تقترب من الواقعية ولكنني لم أكن قد اقتنعت بعد. وبالرغم من استعدادي، في بعض الحالات، لسلوك القادوميات ومط الثغرات القانونية لحدودها القصوى، كي استطيع المرور خلال هذه الثغرات وابرام الصفقات، إلاّ انني لم استسغ فكرة مواجهة حكومة الولايات المتحدة، وكنت أدرك انني في صراع سأخرج، في أغلب الظن، خاسراً.

أبديت اعتراضي قائلاً لسام: «لا يمكنني ان أتصور انك ستحصل على موافقة أميركية على صفقة كهذه. إذا كان الأميركيون يريدون بيع أسلحة من ايران، فهم إما ان ينتقوا معدّات مستعملة أو يعملون عبر بلد ثالث، وإذا كان الأمر فوق الشبهات، فلماذا يحتاجون وسطاء مثلنا؟

فقال سام موضحاً بأن العملية يجب ان تجري تحت غطاء من الكتمان، وعبر وسطاء، حتى تستطيع الحكومة الاميركية إنكار معرفتها بالأمر، إذا انكشفت الحقيقة. ثم قال بأن هناك عقبات قد تعرقل إبرام الصفقة ولهذا يريدني أن أحدّد مصادر لمقاتلات مستعملة، والأفضل ان تكون من طراز ف ـ ٤ إي، في حال لم يكن بالإمكان شراء طائرات جديدة من الولايات المتحدة.

ـ «إبحث في السوق وأخبرني ما هو متوفر لديك»، حثني سام. انهم يريدون ـ أي الايرانيون، معدات أميركية الصنع، ولديهم ملياران ونصف المليار دولار مودعة في «كميكال بنك» في نيويورك لتمويل مشترياتهم من هذه المعدات، وسيكون هناك المزيد إذا أثبتنا لهم بأننا قادرون على الانجاز».

وكدت أقضم طرف سيجاري، فالمبلغ كان هائلاً، حتى في تجارة باهظة التكاليف كتجارة اللوازم العسكرية. وبين جرعات الكونياك، بدأت أعمل على حساب عمولتي. ولهذا وافقت رأساً عندما اقترح سام ان يؤمن لي لقاء مع 'الزبون'. لم أكن على هذه الدرجة من الاهتمام، لو أخبرني سام تفصيلاً مهماً واحداً عن الايراني. لا أعتقد ان سام تعمّد اخفاء الأمر عني: ومن المحتمل انه هو نفسه لم يكن يعرفه، وحتى لو سمح لي بالاطلاع على

اسم الزبون، لم أكن لأعرف عن ماضيه، والذي جمعت خيوطه من خلال استقصاءاتي وأبحاثي في وقت متأخر: متأخر جداً.

تثبت وثائق حصلت عليها نشرة 'اكزكيوتيف انتلجينس ريفيو' اليمينية، بموجب 'قانون حرية المعلومات' الأميركي، أن سايروس هاشمي عرض نفسه على ادارة الرئيس كارتر في كانون الأول ١٩٧٩، كوسيط في محاولة اطلاق الاثنين وخمسين رهينة أميركية التي تمّ احتجازها في السفارة في طهران الشهر السابق. وكان أحد الشروط هو استئناف تزويد قطع غيار للمعدات العسكرية التي في حوزة القوات المسلحة الايرانية. وقد حُددت أطر الصفقة في مذكرة قدمها ستانلي بوتنغر، مساعد المدعي العام، والذي كان على صلات وثيقة مع هاشمي، إلى وزارة الخارجية. لم تتم الصفقة، ولكن مكتب التحقيق الاتحادي (أف بي آي) قام خلال مناقشتها بالتحقيق في موضوع هاشمي ووضع أجهزة تنصت لمراقبة هاتفه.

وبهذه الطريقة اكتشف الأميركيون ان هاشمي وأخويه كانا يعدان لتزويد ايران بالسلاح مما يشكّل خرقاً للحظر المفروض. كانت الأسلحة التي تضمنت صواريخ أرض ـ جو ومنصّات اطلاق، قد شحنت عن طريق بريطانيا وسويسرا، وساعد المصرف الذي يتعامل معه هاشمي ـ «ذا فيرست غلف بانك آند ترست» ـ باجراء الترتيبات المالية. في العام ١٩٨٢، تمّت إدانة الأشقاء الثلاثة وشريكهم سايروس دافاري سراً في احدى المحاكم الأميركية ـ ولكن معظمهم كانوا في هذا الوقت قد انتقلوا إلى لندن ما عدا أحد الأشقاء، رضا، الذي أوقف في الولايات المتحدة. حكم على رضا بالسجن وصدرت مذكرات توقيف بحق كل من شقيقيه وشريكهما دافاري، الذي كان سابقاً، ضابط مشتريات يعمل من لندن. لم يكن بالامكان محاكمتهم في لندن، لأن جريمة الاتجار غير المشروع بالأسلحة لا تشملها اتفاقية تبادل المجرمين المبرمة بين الولايات المتحدة وبريطانيا ـ وهو الأمر الذي سيجلب لي الاطمئنان لاحقاً.

* * *

الصفقات تتمّ رغم ملاحقة «السلطات»

في مطلع ١٩٨٣، وقعت جريمة قتل، على نسق جرائم المافيا، في نيويورك، إذ تمّ العثور على جثة جورج بيري، وهو رجل أعمال أميركي، في قعر بحيرة في ولاية نيويورك، وقد تمّ ربطها بالأثقال لاغراقها. كان من المعروف ان بيري قد تورّط في صفقات أسلحة مع هاشمي، وفي آب ١٩٨٥، أعلن وليام فون راب، مفوض الجمارك الأميركي ان سايروس هاشمي هو على لائحة العشرة الكبار من تجار السلاح الذين ترغب الادارة الاميركية في اعتقالهم. في الدوائر التي أعمل ضمنها، كانت هذه شهادة تعريف من الدرجة الأولى، طيلة ما استطاع الشخص أن يبقى «مطلوباً»، وان لا يقع في أيدي السلطات التي تطلبه.

كان هاشمي في هذا الوقت قد أنشأ المجموعة التجارية الدولية مع خاشقجي وفورمارك، وبحث سام موضوع صفقات السلاح لايران مع أحد أصدقائه، نيكوس ميناردوس، وهو رجل مرح من مواليد اليونان يلعب أدواراً بسيطة في أفلام تلفزيونية ويعيش في كاليفورنيا. كان ميناردوس قد قام ببعض الأعمال التجارية بالتعاون مع خاشقجي، ومن هنا بدأت صداقته مع سام، وقام ميناردوس بتعريف سام على فييلّلو ودو لا روك اللذان أخبراه بأنه من الممكن ان تنال صفقات السلاح لايران موافقة رسمية قريباً، ولم يخبرهما سام انه سمع هذه المعلومة من فورمارك.

سمع هاشمي أيضاً بالأمر من فورمارك، ولكنه كان حذراً فأراد التأكد من الموضوع قبل أن يمضي في الصفقة. فالرهان بالنسبة له كان عالياً، لأنه لو قام بمخالفة القوانين الأميركية مرة، فستنعدم فرصته في الحصول على اذن بالعدوة إلى اميركا، فطلب إلى محاميه في نيويورك ان يقوم بالتحقيق في الأمر وعندما لم تؤد هذه إلى نتيجة، بدأ هاشمي بإعادة النظر في استراتيجيته.

لا يمكن أبداً معرفة ماذا كانت خطوته التالية، ولكن الافتراضات الأكثر شيوعاً، هي انه اتصل بدائرة الجمارك الأميركية وعرض استعداده للتعاون في نصب فخّ لسام ايفانز وبقية مجموعتنا مقابل تخفيف الاجراءات في الدعوى التي كانت لا تزال قائمة ضده. وتثبت سجلّات المحكمة انه أجاب بأنه 'غير مذنب' على اتهام المحكمة له بجريمة الاتجار بالسلاح، فأطلق سراحه بكفالة قيمتها ١٠٠ ألف دولار وشروط مخفضة استثنائياً: سُمح له مثلاً، بالسفر بحرّية خارج الولايات المتحدة، حيث يستطيع ان يُعد لصفقات أسلحة مختلفة بالتواطؤ مع دائرة الجمارك الأميركية.

مكائد ومصائد: مباركة البيت الأبيض

ولكن لديَّ أنا نظريتي الخاصة. إنني أعتقد بأن اتفاق هاشمي الأولي، لم يكن مع دائرة الجمارك، إنما مع العقيد اوليفر نورث، أو غيره من مجموعة موظفي البيت الأبيض التي كانت تعدّ سراً لبيع أسلحة من إيران. وبموجب الاتفاق، سمح لهاشمي بالتجوال في انحاء العالم، لعقد صفقات حقيقية، كما اعتقد، لتأمين السلاح لايران بمباركة البيت الأبيض، وكان هاشمي بأي حال قد اقترح الشيء نفسه قبل ست سنوات من ذلك التاريخ. هناك دليل على صحة هذه النظرية في تصريح أدلى به أليوت ريتشاردسون المدّعي العام في عهد الرئيس كارتر، أثناء مقابلة أجراها معه التلفزيون البريطاني في تشرين الثاني ١٩٨٦، إذ قال بأنه أوصى بهاشمي، أحد زبائنه في مكتب المحاماة، لوكالة المخابرات المركزية كقناة لتمرير صفقات الأسلحة. وأعتقد أيضاً انه فقط عندما أصبح هاشمي عقبة في طريق صفقات نورث الأخرى الأكثر تحقيقاً للأرباح، تقرر التخلي عنه وتسليمه لدائرة الجمارك الأميركية التي جنّدته عندها ليكون محور المكيدة التي كانت تعّدها.

عندما أعيد النظر، أجد أن أحد ملامح القضية التي تثير جنوني، هو انها كانت تتطور ولوقت طويل كما يبدو، دون مساعدتي. إذ كان الظاهر، بعد ذلك اللقاء الأول مع سام في تشرين الأول، بأن القضية ستصنّف كواحدة من فئة كبيرة من الصفقات التي لم تتم - جعجعة بدون طحن: لقد بحثت في أسواق السلاح ووفقت فيها اعتقدت بأنه صفقة متكاملة تناسب الايرانيين جداً: كان سلاح الجو المصري يريد التخلص من ١٥ مقاتلة من طراز ف - ١٤ إي، صنعت في العام ١٩٧١ وكان المصريون يتحولون إلى معدات حديثة، بينما يستخدم الايرانيون هذا الطراز من المقاتلات وقد بنوا نظامهم اللوجستي [السوقيّات] على هذا الأساس، وكانت هذه الطائرات ستباع كجزء من صفقة متكاملة تتضمن عشرة محركات احتياطية وكمية كبيرة من قطع الغيار، وأجهزة للتدريب و٢٠٠ صاروخ «سايد وايندر».

كما حصلت من مصادر أخرى على عروض أسعار لمعدات تتضمن: ٣٠ دبابة م ٤٨، و١٤٠ محركاً لهذه الدبابات (صنع بموجب ترخيص خاص في اسرائيل) و١٥ صمام تقوية تيار من طراز ف أ ١٤٥ إي - وهذا الصمام هو جزء من جهاز الرادار الذي تستخدمه مقاتلات ف - ٤ إي. بلغ اجمالي ثمن كل المعدات ٣٢٠ مليون دولار. اتصلت بسام هاتفياً لأنقل له الأخبار وتوقعت ان يبدي حماساً، ولكنني قابلت بروداً غريباً. افترضت انه لا يزال يعمل على النظرية غير المعقولة بأن الأميركيين سيوافقون على بيع طائرات جديدة. اكتشفت في وقت متأخر جداً، بأنه كان يتابع هذه الصفقة وصفقات أخرى عبر تجار مختلفين، وبأنه عاد إليّ بعد عدة أشهر، عندما بدا بأن مصادره الأخرى، بمن فيهم فييلّلو ودو لا روك، لم تستطع انجاز ما وعدت به.

سماسـرة ووسطـاء اسرائيليـون

كنت بالعادة أتحدث مع سام عبر الهاتف يومياً، لحثّه على اتمام صفقة الطائرات ولكن ما حدث هو انني وجدت مشترياً آخر لها - أو بالأحرى نفس المشتري ولكن عبر قنوات أخرى. فقد اتصل بي رجل اسباني يقيم في لندن، بعد قليل من مباحثاتي مع سام، وقال إن لديه أصدقاء في اسرائيل مهتمون بتأمين السلاح للايرانيين. أجرينا مفاوضات أولية، وبعد عدة أيام، في أوائل كانون الأول، عرّفني الاسباني على أحد أصدقائه الاسرائيليين في فندق رويال لانكستر في شارع بايزووتر، ولما أكن قد سمعت شيئاً من سام، لم يكن لديَّ تحفظات نحو تقديم فاتورة شكلية لبيع نفس طائرات ف ١٤ إي، التي كنت قد عرضتها على سام، إلى الاسباني والاسرائيلي.

أخبرني الاسرائيلي بما كنت أعرفه سلفاً - بأن اسرائيل، ولسنوات، كانت تبيع السلاح من ايران، ولكنه أضاف المعلومة الاضافية بأن معظم الصفقات كانت تُعدّ من قبل رجل يدعى سام هكت، وهو اسرائيلي مقره زوريخ، وله صلات تجارية مع الولايات المتحدة وكذلك مع اسرائيل. (وفكرت لنفسي بكثرة اسماء سام في هذه التجارة).

قال الاسرائيلي: «إننا نرى ان نذهب إلى زوريخ، حيث يمكننا مقابلة «هكت» وبحث الأمر معه. إن التوقعات جيدة إذا كان بإمكانك فعلاً انجاز أمر تسليم الطائرات، لا يبقى إلّا موضوع تأمين التمويل والحصول على اعتماد مصرفي من ايران».

وفكّرت في نفسي: صحيح، لا يبقى إلّا أمر التمويل ـ قلب الصفقة النابض، والنقطة التي قد ينهار كل شيء عندها! رغم ذلك كنت أعرف ان أي تاجر سلاح طموح يرغب في الدخول إلى أكبر سوق للسلاح في حينه ـ ايران. ولم تكن صفقة اجهزة الرادار التي أجريتها في مكاتب فكتوريا ستريت، قد فتحت الأبواب في وجهي كما أملت: كان التعامل مع العسكريين، بالنسبة لي، مضنياً، ولهذا قبلت الدعوة إلى زوريخ بسرور وأخذت شريكي جون معي. نزلنا برفقة الاسباني والاسرائيلي في فندق هيلتون حيث انتظرنا طوال اليوم الأول بينما انشغل الوسيط الاسرائيلي على الهاتف باستمرار، ثم أعلن في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم بأنه أمّن موعداً في مكتب هكت في تمام الساعة الثامنة مساء.

أقلتنا سيارة اجرة إلى مركز اوليمبيا، وهو مجمّع مكاتب تجارية حديث. كان جناح «هكت» في الدور الأرضي، وكان هو في أوائل الأربعين من عمره، رشيقاً لوّحت بشرته الشمس مع شعر أسود وقد ارتدى بدلة رسمية بلون أزرق غامق لاحظت وثائق تكوّمت على طاولة مكتبه، واسترقت النظر فاستطعت ان أتعرف عليها ككتب اعتماد مصرفية من ايران لشراء معدات عسكرية، وأمامه كانت الفاتورة الشكلية التي قدّمتُها للطائرات والدبابات.

الموساد على الخطّ

قبل أن نبدأ الحديث، دخل شخص، بدا ظاهراً انه ايراني، إلى الغرفة بهدوء وجلس في أحد جوانبها. لم يقم هكت بتعريفنا إليه وجلس صامتاً طوال مدة الاجتماع. فأضاف وجوده الصامت جواً من الغموض والشعور بالتآمر إلى مجريات المفاوضات. أُخبرت لاحقاً، بأنه ايراني فعلاً وبأنه مسؤول عن مشتريات السلاح وأراد أن يتابع عن كثب أية صفقات محتملة ـ لاعباً نفس الدور الذي يلعبه 'المرافقون' في مكاتب فكتوريا ستريت. كما أُخبرت بأن هكت لعب دور الوسيط في كثير من صفقات السلاح الأميركية/ الاسرائيلية/ الايرانية، **ولم أكن لأستغرب لو علمت، انه على علاقة بجهاز المخابرات الاسرائيلية ـ الموساد.**

بدا هكت مسروراً بالفواتير التي قدمتها وقال إنها سترسل إلى ايران، وإذا وافق الايرانيون على المضيّ، فسيفتحون اعتماداً مقابل مبالغ مودعة في مصرف «كريدي سويس» لهذا الغرض. انتهى الاجتماع حوالي التاسعة والنصف وعدنا نحن الأربعة إلى الهيلتون لتناول المشروب. كان البار يغصّ بالغانيات ولكننا لم نعر التفاتاً لمحاولاتهن بيع رفقة بثمن مرتفع. أنا، بالأخص، لم أكن بحاجة إلى مثيرات فقد كنت مشغولاً بتفكيري بالصفقة.

* * *

رحلة إلى فادوز

استفقنا في صباح اليوم التالي باكراً، واستأجرنا سيارة مرسيدس لتقلنا في رحلة تستغرق تسعين دقيقة إلى فادوز، المدينة الجبلية، عاصمة امارة ليختنشتين الألبية حيث كنا على موعد مع أحد رجال المصارف. كان من الصعب إيجاد المصارف المستعدة لاجراء الترتيبات المالية الملتوية المعتادة في تجارة السلاح، وكانت المبالغ، المتوقع تبادلها كبيرة لدرجة انها تثني رجال المصارف المعتادين على صفقات أكثر قرباً للواقع.

فادوز بلدة صغيرة مع شارعين رئيسيين متوازيين، وبضعة طرق متقاطعة معهما مليئة بالمصارف والمطاعم ومباني مكاتب مع مئات الاسماء على لوحات نحاسية في مداخلها: المكاتب المسجلّة رسمياً في الامارة لأسباب تتعلق بالضرائب. تناولنا طعام الغداء وذهبنا بعد ذلك إلى المصرف. كنا نأمل ان يستطيع المصرف تمثيلنا وإدارة الشقّ المتعلّق بنا من الصفقة، ولكن المسؤول عن الحسابات بالعملات الأجنبية هزّ رأسه بأسف عندما علم بالمبالغ التي تشملها الصفقة قائلاً:

- «إن المصرف ليس كبيراً لدرجة أن يتسلم حسابات بهذا الحجم»، وهكذا كانت رحلتنا، مع انها أمّنت لنا التمتع بالمناظر الجميلة في جبال مكلّلة بالثلوج، هدراً للوقت فيما يتعلّق بأعمالنا، وكان علينا ان نجرّب مكاناً آخر. في الصباح التالي سافر الاسرائيلي عائداً إلى اسرائيل، وعدنا نحن الثلاثة إلى لندن لانتظار التطورات.

لم أُعلم الاسباني والوسيط الاسرائيلي بأمر الصفقة المقترحة مع سام ايفانز، فلم يقدّر لهم ان يعرفوا انها عادت إلى الواجهة قبل يوم أو يومين من رحلة زوريخ. كان قد مضى عدة أسابيع منذ سمعت من سام آخر مرة، فافترضت ان العملية فشلت. ولكنه اتصل وقال: إن الوقت قد حان لمقابلة 'الزبون الايراني'، وطلب مني أن أتوجه إلى مكاتبه في «غروفنر غاردنز» حوالي ظهر اليوم التالي. في حوالي الثانية عشرة والربع وصل رجلان ايرانيان، ولكنني لم أكن حتى هذا الوقت قد عرفت اسميهما. وبما ان الوقت كان ظهراً، اعتقد انهما كانا يتوقعان دعوة إلى الغداء، لأن أول شيء قالاه عند وصولهما انهما جائعان، فأرسل سام في طلب ساندويشات.

كان الرجل، الذي سأعرفه لاحقاً على انه سايروس هاشمي، يتحدث بصوت خافت ويبدي بعض الحياء، ولكنه، مع ذلك، يعطيك انطباعاً بقوته وثرائه، بحث تفاصيل الصفقة المقترحة وكأنها أمر واقع، ولكنه كان ثابتاً في موقفه حول نقطة واحدة: كان مهتماً فقط بالأسلحة الأميركية الصنع، وكانت الأموال المودعة في «كميكال بنك» قد خصصت من قبل رؤسائه لشراء معدات اميركية ولا شيء غير ذلك. ومع انني لم أقل شيئاً، إلّا انني شعرت بغرابة اصراره على هذا الأمر. لأن الدولة التي تخوض قتالاً في سبيل البقاء وتجد صعوبة في الحصول على السلاح بوسائط تقليدية، ليست في موقع من يستطيع

الاختيار. كان منطقياً انهم يحتاجون قطع غيار للمعدات الأميركية التي حصلوا عليها في عهد الشاه بهلوي، لأنهم بدون هذه المعدات سوف يخسرون الحرب، ولكنهم إذا كانوا بحاجة لقذائف من عيار ١٥٥ مم، فليس مهماً من أين تأتي. إن القذائف من هذا النوع المصنوعة في اليونان، مثلاً، تناسب مدفعيتهم وقادرة على إلحاق نفس الأذى كالقذائف المصنوعة في أميركا، كما انهم يبدون قانعين باستخدام صواريخ من صنع الكتلة الشرقية.

صادف انني قد تلقيت عرضاً لمعدات أميركية قبل أيام، مع اننا لا نستطيع تصنيفها كأداة حرب: مستشفى ميداني كامل مع ٥٠٠ سرير، صنع قبل ١٥ عاماً، ولكنه لم يستعمل أبداً، وكانت كل أجزائه لا تزال في صناديقها الأصلية. كان سعره جديداً يبلغ ١٨ مليون دولار، ولكنني استطيع بيع المتوفر مقابل ٢,٥ مليون دولار. رفض هاشمي العرض لأنه، كما قال، يهتمّ فقط بالسلاح، ولكنه عرض عليَّ ترضية: إذا استطعت أن أؤمن له احتياجاته التي كان يسعى فعلاً وراءها، فسيوافق على شراء المستشفى الميداني.

أخبرته بأنني سأقوم بعملية استكشاف لأرى ماذا استطيع ان أفعل، فقال لي ان هناك أشخاصاً في أميركا مستعدون لمعاينة البضائع عندما أخبره عن مكانها. كانت تلك مخاطرة كبيرة، فأنا لم أكن على استعداد لاعطائه اسماء مصادري لأنني لم أكن متأكداً من أنني استطيع الوثوق به، وحتى لو استطعت، فإن أخبار معاينة الأسلحة على أرض أميركية قد تتسرّب إلى أشخاص غير مطّلعين على سياسة أميركا السرية المتعلقة بهذا الموضوع.

فأجبته بحذر: «قد لا نضطر لذلك». عندما غادر الايرانيان، قلت لسام: «ان هذا الرجل يبدو لي غريباً بعض الشيء».

فأجاب سام: «هذه هي طريقته. لقد عرفت الرجل لسنوات ويمكن الوثوق به».

فقلت له: «حسناً، إذا كان ذلك رأيك فيه، فسأحضر عروضاً بالأسعار وسنرى ما يحدث».

ضغوط ومناورات ... وكذب على الهاتف

أعددت فاتورة شكلية، لنفس الطائرات والمحركات والذخائر وصمامّات التقوية التي عرضتها على هكت. حسب قانون الاحتمالات، كما يعمل في تجارة السلاح، إن الأمل في نجاح صفقة من اثنين ضعيف جداً، فكيف عندما تتحدث عن نجاح الصفقتين. كان العرض مشابهاً للعرض الذي قدّمته لهكت: ٣٢٠ مليون دولار، ولكنني أضفت ١٥٪ كعمولة. كان الايراني يريد ٥٪ كحصة له، و٢٪ لسام، مما يبقى لي ١٠٪، أي ٢٥ مليون دولار، كان مبلغاً، يثير الأمل في الحصول عليه رجفة في جسمي. عندما سلّمت الفواتير لهاشمي في أوائل كانون الثاني، لمعت عيناه وبدا عليه هو أيضاً التأثر الشديد. وافق على اللائحة والأسعار المعروضة في تلك اللحظة، وأراد ان تتُمّ صفقة المحرّكات رأساً.

- «أين نستطيع ان نعاين هذه المعدات؟ إن جماعتي في أميركا ينتظرون الفرصة لرؤيتها».

- «اهدأ قليلاً»، حذّرته، «ليست هذه هي الطريقة التي نستخدمها في مثل هذا العمل. إنني بحاجة إلى كتاب اعتماد مصرفي، أو على الأقل إثبات، بأن التمويل متوفر، بواسطة تلكس من مصرفك لمصرفي».

بدا ان الأمر أقلق هاشمي للحظة وجيزة.

- «إنك تعلم اننا انشأنا شركة، **غالاكسي** تريد انكوربورتيد، في نيويورك لإدارة هذه الصفقة، وقد أودعنا نصف مليار دولار في حسابنا في «كميكال بنك» فقط. لقد أخبرتك بهذا سابقاً».

«أعرف ذلك. ولكن هذا لا يثبت وجود المال، إن اثباته يتمّ بين المصرفين اللذين نتعامل معهما».

كانت هذه بداية لسلسلة احداث طويلة وفي بعض الأحيان سخيفة وفي النهاية غير مثمرة. كنت أحاول الحصول على إثبات بأن التمويل متوفر وبأنني سأقبض ثمن البضائع التي سأؤمنها، بينما رفض هاشمي ان يلتزم بأي شيء كتابة. حتى انني اتصلت بدايفيد فيث، نائب رئيس كميكال بنك في نيويورك على الهاتف، وكان هاشمي قد أعطاني اسمه. عندما سألت فيث لماذا لا يرسل بواسطة التلكس إثباتاً بوجود التمويل، حاول التهرب من الاجابة وقال انه على استعداد للحديث عن الموضوع مع مسؤول مصرفي فقط. ظهر أخيراً ان مسؤولي الجمارك، ضغطوا على فيث ليقول بأن الحساب «الشبح» موجود ولكن المصرف كان ملتزماً بأخلاقيات المهنة - أو خشية انفضاح الأمر - فرفض ان يسجل كتابة أي ادعاء كاذب يطلب منه. إنه نظام أخلاقي غريب هذا الذي يسمح لك بالكذب - فقط عبر الهاتف.

بعد يومين أو ثلاثة، اتصل هاشمي بسام في محاولة لكسر الجمود، وأخبره عن ملايين الدولارات التي قد نخسرها بموقفنا المبالغ فيه حول إثبات وجود التمويل.

قال هاشمي: «أعتقد انك تتوقع ان تجني ١٥ مليون دولار من هذه الصفقة». فضحك سام.

ولكنني، حتى لو شئت، لما استطعت ان أمضي قُدُماً في الصفقة بدون اثبات مناسب لوجود التحويل، فلن يوافق أي من مصادري على تسليم الأسلحة دون دليل لا يرقى إليه الشك بأنه سيتمكن من استيفاء ثمنها. كان المشكل الثاني، انني وحتى هذا الوقت، لم أكن قد وجدت المصرف الذي يتمكن من ادارة عملية التبادل، وحتى استطيع ايجاد مثل هذا المصرف لم أكن أستطيع عمل شيء فكان عليَّ ان أماطل هاشمي. لقد رفض المصرف الذي

أتعامل معه عادة، كريدي ليونيه في جنيف، القيام بالعمل، فعدت مرة أخرى إلى فادوز لأواجَه بنفس الجواب الذي سمعته في المرة الأولى.

عندما عدت إلى غرفتي في الفندق في فادوز، قررت أن أتصل بكل معارفي في هذا الحقل، حتى أجد المصرف المناسب، ولكن الفندق كان من طراز قديم ولم تكن لديه خدمة الهاتف المباشر. عندما انتهت نوبة عامل البدّالة المنهك في الثانية عشرة والنصف صباحاً، قام بتحويل الخط إلى غرفتي، وصادف ان كل المكالمات التي تلقيتها كانت لي.

أتى أحد معارفي باسم «بنك بروكسل لامبرت» في بروكسل. في الصباح اتصلت هاتفياً وأمّنت موعداً للقاء، ثم ركبت الطائرة من زوريخ إلى بروكسل في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم نفسه. وبينما كنت أتسلّم غرفتي في الهيلتون، في حوالي الثامنة والنصف مساء، أتتني مكالمة من هاشمي، فتحدثت إليه من أحد أكشاك الهاتف قرب مكتب الاستقبال. كنت سأتلقى من هاشمي مكالمات هاتفية عديدة في الأسابيع التي ستلي، وكان ما يميزها كلها، سوء الاتصالات. وجدت من الصعب بشكل غير عادي سماع ما يقوله. صحيح انه يتكلم بصوت خافت ولكن هذا لا يفسّر التداخل والأصوات القريبة التي كنت أسمعها، واختفاء الصوت أحياناً لدرجة انني لم أكن أميّز الكلمات. كنت سأكتشف لاحقاً السبب ـ كانت المكالمات تمرّ عبر نيويورك حيث كان عملاء الجمارك يراقبونها. عندما أعيد النظر، أفكر بأن هذه الاتصالات الرديئة كانت من بين الأحداث التي كان يجب ان تجعلني أكثر ريبة بالصفقة، كما كنت أحسه بالفعل.

ما برح هاشمي يعرف عن نفسه عبر الهاتف على انه 'الدكتور'، واستمر في ذلك حتى بعد ان عرفت اسمه الحقيقي. كان هذا يضفي لمسة تآمرية. كان أول ما فعله عندما اتصل بي هذه المرة، أن أنّبني بسبب اتصالي بمساعد رئيس كميكال بنك».

قال لي بأن فيث: «كان جد منزعج لتلقيه مكالمة من شخص غير عامل في مصرف. هل أمّنت كل شيء الآن مع مصرفك للاتصال به؟»

أجبته: «هذا هو سبب وجودي في بروكسل، وسأكون غداً في الحادية عشرة والنصف صباحاً بتوقيت بلجيكا في المصرف . . . والأمر سهل عليهم، كما تعرف».

كان هاشمي يصاب بالتوتر عبر الهاتف، إذا بدت تحركاتي بطيئة. فقال غاضباً: «لقد أعطينا اسمي مصرفين لجماعتنا في نيويورك ولم ينجح الأمر. إنني أرى ان تعمل بالتأكيد على ان يتصل المصرف بكميكال بنك في نيويورك وينهي هذا الأمر الذي تعرفه».

المعاينة وشهادة الإثبات

كرّرت على مسمعه بأنني أعتقد ان المصارف تفضّل التعامل كتابة، بواسطة التلكس، ولكن هاشمي كان مصرّاً على ان مكالمة هاتفية قد تكفي. كان يعارض تبادل رسائل التلكس جيئة وذهاباً في وضع كان يعتبره ذا حساسية خاصة.

ـ «إن كميكال بنك، كما تعلم، هو من أكبر المصارف في العالم. إن اثبات وجود التمويل هو ان يقول هذا المصرف: نعم، التمويل موجود هنا، إن لدينا التمويل الكافي لهذه العملية، بالاضافة إلى حساب مفتوح، غير مستغل، لها. هذا إثبات كافٍ».

فأخبرته بأنني سأعرض الأمر على المعنيين في المصرف عندما أقابلهم في اليوم التالي، وأضفت: «سأدعو المدير إلى غداء كبير بعد ذلك، وسأحاول اقناعه بالاتصاف بكميكال بنك بعد الظهر، إذ يكون الوقت صباحاً في نيويورك».

قبل ان ينهي المكالمة، أثار هاشمي نقطتين، كلتاهما محرجة لي. أصرّ بأن عليَّ، حالما اقتنع بوجود التمويل، ان أعد ترتيبات سريعة لمعاينة محركات الدبابات من قبل ممثليه في الولايات المتحدة، (أعتقد، في ضوء ما حدث لاحقاً، ان هؤلاء كانوا سيكونون عملاء جمركيين). وسأل، كما فعل ذلك مراراً، عن شهادة إثبات الطرف المشتري.

«أرجو ألا نواجه مشاكل فيما يتعلّق بهذه الشهادات، وإنك قد حصلت عليها في هذا الوقت».

فقلت مطمئننا: «لا تقلق حول الشهادات، إذ لا يوجد مشكلة من هذه الناحية».

في الواقع كانت هناك مشكلة من الحجم الملوكي، لأنه لم تكن لدي أية فكرة عن كيفية الحصول على شهادات تثبت هوية الطرف المشتري، مزورة بدقة قد تخفى عن أعين السلطات الأميركية، ولم أكن قد أجريت أية ترتيبات أو اتصالات بهذا الشأن، لأن سام دأب على تطميني بأن السلطات الأميركية سوف توافق على الصفقة، ولن نحتاج إلى عمل أي شيء في سبيل تزوير شهادات اثبات ـ وانني لو احتجت لشهادات كهذه، فسيتمّ اعدادها بالتواطؤ مع المسؤولين الأميركيين، ولهذا لم يكن ضرورياً تزويدها بدقة.

كانت مسألة معاينة الأسلحة أكثر تعقيداً، لأن محركات الدبابات لم تكن في اميركا ولم أكن بعد متأكداً من أين ستأتي. لقد حددت مصدرين في اسرائيل وفي مصر، من مصانع متخصصة في تقليد محركات تمّ تصنيعها في مكان آخر. لم يكن أي من المصدرين اميركياً، ولكنني اعتبرت انه لما كانت المحركات تقليداً لمحركات اميركية، فلم تكن هناك مشكلة ـ وبالطابع لن تكون مشكلة لو كان هاشمي يريدها حقاً، بدلاً من نصب فخ لي.

لم أنهِ موضوع المصدر، لأنني بصراحة كنت أشكّ في نجاح الصفقة ولم أكن أريد إضاعة وقتي. كان ترتيب أمر المصدر، عقبة نجتازها لاحقاً عندما ننتهي من أمر إثبات وجود التمويل. في هذه الأثناء كان من الضروري أن أعطي هاشمي شعوراً بالثقة والقدرة على التحقيق الكاملتين.

في اليوم التالي توجهت، بسيارة أجرة، إلى «بنك بروكسل لامبرت» في جادة مارنيكس، في مبنى مهيب من الطراز الكلاسيكي مع داخل مُزَيَّن بطريقة مدهشة. كنت على موعد مع جان ـ ماري دوفايز، مدير دائرة الاعتمادات. قادتني سكرتيرة بوجه بشوش

إلى مكتب يوحي بأنه مكان عمل جاد حيث قابلت جان ـ ماري، رجل لطيف في الخميسنات. دعوته إلى مطعم صغير قرب زاوية المبنى بناء على اقتراحه. إن بروكسل تضم أحسن المطاعم في العالم وقد تناولنا غداء رائعاً. اخبرته بأن الصفقة تتعلّق ببيع طائرات (دون ان أخبره عن نوعها)، ولم يبد عليه التردد بسبب حجم الصفقة، ولكنه أصرّ على ان الطريقة الصحيحة الوحيدة لاثبات وجود التمويل هي رسالة تلكس، ورفض الاتصال بكميكال في نيويورك للحصول على اثبات.

ـ «إننا لا نعمل بهذه الطريقة في حقل المصارف. إنني مندهش لأن كميكال بنك يعتقد بأننا يجب ان نقبل بها. لا أجد سبباً يدعوني للاتصال بهم، أشك في ان يطلعوني على شيء عبر الهاتف».

عدت إلى لندن، وتلقيت قبيل منتصف الليل بقليل مكالمة أخرى من هاشمي. أخبرته بما قاله دوفايز وان على كميكال بنك ان يبعث برسالة تلكس، وانفجر مجدداً، وادّعى ان نفس المصرف البلجيكي كان قد قبل في السابق اثبات وجود تمويل على الهاتف ومن مصرف في كاليفورنيا، لا يضاهي كميكال بنك.

ـ «إنك لا تتعامل مع مصرف من الدرجة الثالثة أو الثانية. إنكم تتصلون مع مصرف هو، كما تعلم، من أهم مصارف العالم . . . لا يوجد سبب على الاطلاق يحمل صديقك في بلجيكا على الادعاء بأنهم لن يصرّحوا بالمعلومات المطلوبة».

اقترحت، لحل هذا الاشكال، أن يقوم مدير مصرفه في نيويورك بالاتصال هاتفياً بدوفايز، فوافق على ان ذلك قد يكون ممكناً وأعطيته رقم الهاتف. ثم انتقلنا إلى مناقشة تفاصيل الصفقة، وبالأخص مسألة معاينة المعدات الشائكة. كنت لا أزال أطمئنه على ان الأمر يمكن ترتيبه خلال أربعة أو خمسة أيام من تسلم اثبات كافٍ لوجود تمويل من مصرفه، مع انه لم تكن لديّ فكرة عن كيفية القيام بها. اخبرته انني كنت على اتصال مع جماعتي في الولايات المتحدة (لم يكن لهم أي وجود) وبأنهم سيحضرون إلى لندن في الاسبوع التالي للبدء في اجراءات الصفقة، كما ألمحت إلى انه بإمكانهم تزويده بعشرين إلى خمسين دبابة كاملة، بالاضافة إلى المحرّكات المئتين.

قلت له إنني أعمل على ان يتم التسليم في شهر نيسان، وبدا هاشمي مسروراً بذلك وأخبرني بأنه قد يحتاج إلى معدّات أخرى. كانت لعبة مُعدّة بعناية. كنت من ناحيتي أحاول ان أحافظ على اهتمامه بي، بإغرائه بمعدّات إضافية والتي كنت بالتأكيد أستطيع الحصول عليها مع انني لم أكن وقتها قد حدّدت المصدر في رأسي. وكان هو من ناحيته يستدرجني بردود مثيرة للحماس دون التزام مؤكد منه. كان الأمر يبدو كطقوس غريبة للغزل. مرة أخرى أثار هاشمي المسألة الشائكة المتعلقة بشهادات اثبات المشتري.

ـ «ما هي الشهادات التي أعددتها حتى الآن؟»

- «انها شهادات من احدى دول الناتو». طمأنته بخفة، كنت أكذب وأُلفّق الأخبار وأنا أحقّق بعض التقدم، حتى وصلت إلى مرحلة تزيين الكعكة: «إنها شهادات ممتازة ولا يرقى إليها الشك. ولكننا، فور تسلّمنا الاعتماد المصرفي منك، سندفع حصة لرجل في مركز عالٍ جداً جداً. أيرضيك هذا؟»

- «نعم، بالتأكيد».

وركزت على النقطة في محاولة لادخالها في رأسه: «إن الحصّة التي أتحدث عنها ليست قليلة. ولكن كما تعرف، للانسان خياران في هذا العمل: إما أن تحصل على الشيء رخيصاً، ولا تعرف إذا كان سيعمل، أو أن تدفع غالياً لأنك تعرف انه سيعمل. إن صديقنا ألمح إلى نسبة تبلغ خمسة أو ستة بالمئة - ولكنه، قبل ان يقوم بالعمل، يريد ضمانات بأنه سيقبض المبلغ».

بدا ان هاشمي تقبّل الفكرة، ولكنه أثار عندها مسألة امكانية قيامي بزيارة نيويورك، لأقابل برفقة مصادري هناك شريكه الذي يجب ان يوافق على الصفقة والذي يعمل ضمن بعثة ايران إلى الأمم المتحدة ويقيم في نيويورك. ولما لم أكن راغباً في الذهاب إلى الولايات المتحدة في هذا الوقت، ومصادري في أميركا من بنات خيالي، لم أشجّعه على الفكرة.

- «إن جماعتي غير مستعدين لكشف أنفسهم في هذا الوقت»، أخبرته مضيفاً: «وعليك أن تدرك بأن صفقة كهذه تكون ممكنة فقط إذا كانت بمباركة مسؤول كبير في قمة الهرم».

قبل ان أنهي المكالمة، طلبت منه 'خدمة صغيرة'. سألته إذا كان قد التقى، في أي وقت، ببريطاني يدعى بريان فودّر؟

فأجاب: «كلا، أبداً».

«إذا التقيته، كن حذراً».

«لماذا؟ مَن هو هذا الرجل؟»

«إنه رجل بريطاني كان يعمل مع سكوتلاند يارد، وهو الآن . . . يتلاعب . . . إنه في الحقيقة مُخبر».

- «حسناً»، قالها بسرعة، «لا تدعه يقترب من عملياتنا».

«أبداً، ولهذا اخبرتك بأن تكون حذراً إذا سمعت عنه أو إذا حاول الاتصال بك».

- «شكراً لهذه المعلومات. سأبقى على اتصال معك إذا جدّ أي أمر».

إن احساسي بالقلق تجاه هاشمي هو الذي دعاني لتبادل هذا الجزء الأخير من الحديث معه. كنت لا أزال أحاول ان أزِنَ هاشمي، لم أكن أثق به، وكنت أحاول ان أكشف أمره بالحصول على أكبر قدر من المعلومات منه. كنت قد اكتشفت ان رجلاً يدعى فودّر، كان يعمل مخبراً سرياً للسلطات الأميركية (ذكرت سكوتلانديارد في حديثي للتضليل). كان بعض الأشخاص قد اعتقلوا أثناء محاولة اخراج معدات الكترونية بصورة غير شرعية من الولايات المتحدة، بناء على اخبارية من فودّر. لو اعترف هاشمي بأنه يعرف الرجل، لكانت شكوكي قد تضاعفت، ولكنه بدا وكأنه لا يعرف الرجل، فأحسست ببعض الطمأنينة.

ثم أحسست ان الوقت قد حان للتطرق إلى موضوع آخر. طيلة فترة تعاملي معه، لم أستطع معرفة اسمه، إذ رفض هو وسام ذلك. ولكن طبيعة الصفقة كانت تفرض ان أعرف الأشخاص الذين أتعامل معهم. فاتصلت هاتفياً بأحد مصادري في فكتوريا ستريت.

سألته: «هل تعرف رجلاً يدعو نفسه 'الدكتور'؟» ثم وصفته له.

فأجاب: «يبدو انه سايروس هاشمي».

«وماذا تعرف عنه؟»

«لحدّ علمي، انه رجل شرعي وموثوق».

عندما فكرت بالأمر لاحقاً، افترضت بأن هاشمي كان يصرّ على إخفاء هويته لتدعيم صورته وموقفه أثناء المفاوضات. كان سام يعرفه ويعرف بقضية إدانته لجرائم تتعلق بمبيعات اسلحة، ولكنه كان مقتنعاً بأن الصفقة هذه شرعية وكان هاشمي قد أكدّ له، بأنه لن يكون هناك أي شحنة سلاح قبل لقاء بين ممثّلي الولايات المتحدة وايران، وهكذا لم يجد ضرراً باحترام رغبة هاشمي في عدم إفشاء هويته للأشخاص الذين يتعاملون مع سام.

في آخر الحديث الهاتفي في كانون الثاني، قلت لهاشمي: «لم أسمع اسمك الحقيقي حتى الآن. لا منك ولا من سام. اعتقد انه . . . اسم يبتدأ بالحرف هـ ا».

فوافقني: «صحيح، صحيح».

«هل استطيع ذكر اسمك على الهاتف؟»

«في الواقع إذا أردت ان تطلبني في مكتب البعثة في نيويورك يمكنك ان تدعوني 'الدكتور'».

«الدكتور؟» رددت وراءه.

- «بالضبط».

اتصل بي هاشمي في الاسبوع التالي، يوم الخميس في ٦ شباط، إلى منزلي حوالي السابعة والنصف مساء. أحسست، من ردة فعله على سؤالي عن صحته، بأنه غاضب لأمر ما.

«لست بحالة جيّدة، في الواقع انني مستاء بعض الشيء».

وأخبرني بأن دايفيد فيث من كميكال بنك، اتصل بدوفايز في بروكسل، وأبلغه باستعداده لكشف تفاصيل حساب شركة غالاكسي، ولكن مكالمته قوبلت ببرود، وردَّ عليه دفايز بأنه لم يقابلني سوى مرة واحدة وانني لم أطلب منه الحصول على أية معلومات.

كنت في الواقع قد اتصلت بدوفايز في ذلك اليوم وروى القصة بشكل آخر: إذ أخبرني بأنه توافق في الرأي مع فيث، بأن الطريقة الصحيحة لإثبات وجود التمويل، هي بواسطة رسالة تلكس وليس على الهاتف. وبدا ان لا مجال للتقدم نحو ابرام الصفقة.

جَعجَع هاشمي لفترة حول سمعة كميكال بنك، وعن مدى سخافة البلجيكيين عندما يرفضون الأخذ بكلام جماعة كميكال حول المبالغ المودعة في حساب «غالاكسي»، ثم هدّد بإيقاف المفاوضات نهائياً.

- «لقد وصلنا إلى نقطة حيث أريد أن أتأكد حقاً بأنك قادر على تأمين البضاعة واننا لا نضيع وقتنا معك. فأنت تعرف دون شك ان لدينا خيارات أخرى، وأنا لا أستطيع، من وجهة نظر حكومتي، متابعة الأمر إلى ما لا نهاية».

أحسست بأن عليَّ بأن أجيب بنفس القوة، لأجعله يدرك لماذا أحتاج لاثبات كتابي، وأثناء هذا، قمت مرة أخرى بتزيين الحقائق إلى حد معين:

- «حاول ان تفهمني، أرجوك. لو كانت البضائع مكدّسة في مخازني، لاكتفيت بإثبات عبر الهاتف من مصرفك. ولكنني أطلب إليك أن تقدّر موقفي، إنني أتعامل مع حكومة. إنني أعمل من ضمن خطة شديدة الحساسية . . . لقد تحدثت إلى الوزير البارحة فقال لي: 'هرمان، كل ما نطلبه هو رسالة تلكس تفيد بأن قيمة المشتريات متوفرة في المصرف'، وهكذا ترى أن المشكلة هي مشكلة الطرفين معاً، فأنا وسام قد علقنا في وسط اللعبة بينهما».

حوّل هاشمي مجرى الحديث، معلّقاً على قولي بأنني أتعامل مع حكومة ما، وذكرني بأنني أخبرته بأن محركات الدبابات موجودة في اميركا، ولهذا لن تكون هناك حكومة اخرى معنية بأمر تسليم هذه المحركات، فلماذا لا أقوم بفتح حساب مع «مصرف اميركا» حتى تسوّى جميع الأمور من ضمن النظام المصرفي الأميركي؟

فماطلته وقلت بأنني سأبحث الأمر مع 'جماعتي' ومع سام حول الموضوع، وألقيت امامه 'بجزرة' الوعد بأسلحة أخرى أستطيع تأمينها إذا ما استطعنا ايجاد طريقة لانهاء هذه الصفقة.

وطمأنته قائلاً: «إنني لا أراوغ أو أي شيء من هذا القبيل. إنني أعرف بأن البضاعة موجودة، وأعرف انه بالامكان انجاز العملية. إن المسألة كلها تتوقف على هذه الخطوة الأولى، فمتى تمَّ انجازها نستطيع ان نتقدم للخطوة الثانية وهي كفالتي لحسن الانجاز. هذا ما يجب ان ننهي خلال عشرة أيام، أو خلال أسبوع إذا أمكن ذلك».

انتقل هاشمي عندها إلى مسألة معاينة المحركات التي كان يعتقد انها موجودة في الولايات المتحدة. لماذا لا نستطيع الانتهاء من الأمر حالاً. وأضاف: «إن لدي خبراء مؤهلون».

التسويف والمماطلة والإلهاء

لم أكن قد قررت حتى هذه اللحظة كيفية اطلاعه على حقيقة ان المحركات ليست في أميركا، فحاولت إلهاءه بطريقة أخرى. كان هاشمي قد أظهر اهتمامه بصمّامات فاريون للرادارات، فاقترحت ان نفصل الصفقة إلى اثنين، وحاولت ان أحرز تقدماً في موضوع الصمّامات على ان نترك أمر الدبابات والمحركات معلقاً حتى نستطيع ان نحل مشكلة إثبات وجود التمويل. كنت قد بحثت الأمر مع سام ووافقني على انها فكرة جيدة، ولكن هاشمي لم يبدِ اهتماماً بالأمر، وقال إنه سيخسر مصداقيته أمام زملائه إذا كان كل ما يحصل عليه هو بعض صمامات للرادارات بعد ان تمَّ إيداع مبالغ هائلة لمدة طويلة في نيويورك لغرض شراء أسلحة أخرى. وردّد أكثر من مرة أن مصيره سيكون على كفّ عفريت، ملمحاً إلى هول ما يمكن أن يحدث له إذا لم ينجح في إتمام الصفقة، ولكنه أخذ اقتراحي على محمل الجد، واستعمله لاحقاً لاغرائي بالذهاب إلى نيويورك.

في محاولة أخرى لاقناع المصرف البلجيكي، طلبنا من سام ايفانز ان يكتب رسالة لدوفايز تثبت ان الايرانيين لديهم مبالغ مودعة في كميكال بنك في نيويورك، ولكن دفايز لم يقبل بأقل من رسالة تلكس من المصرف الأميركي. فاقترح هاشمي عندها أن أقوم أنا، أو أحد شركائي في أميركا، بالذهاب إلى نيويورك وزيارة مصرف «كميكال بنك» شخصياً. فكّرت جدّياً، بأن أذهب أنا في تلك الليلة بالذات، إلاّ انني لم أتمكن من الحصول على تأشيرة دخول في الوقت المناسب. سألني هاشمي عندها، إذا كان تعاملي يتم مع مصنّعي المحرّكات مباشرة، فأجبته بأنني لا أستطيع شرح الأمر عبر الهاتف لأنني أعتقد ان حديثنا مراقب: كانت امرأة قد اتصلت بي في الليلة السابقة من أميركا، وأعلنت انها من «شركة الهواتف» وسألتني عن الشخص الذي كنت أتكلّم معه مساء الخميس. لم أعطها المعلومات، ولكن المكالمة جعلتني أشك في الأمر، فطمأنني هاشمي بأنه يتكلم من مكتب البعثة الايرانية وان الأمر مأمون كلياً.

خديعة المعاينة

كانت قناعتي بأن الصفقة لن تتمّ، تترسّخ يوماً بعد يوم. فسرعان ما سأكون مضطراً لاطلاع هاشمي على سبب عدم قدرته على معاينة محركات الدبابات في أميركا. وبدأت اقترح معدات جديدة يمكن ان يشتريها. كان لديَّ عرض لخمسين مدفع هاوتزر و٥٠ ألف قذيفة ١٥٥ مم. وكان سؤال هاشمي الأول كعادته: «هل هي أميركية الصنع؟» ـ كلا، انها يونانية ـ إذن لا مجال لشرائها.

لم أذهب إلى نيويورك في اليوم التالي، ولكنني تحدثت مع هاشمي ثانية على الهاتف. كنت قد قررت الاعتراف بأن المحركات ليست في المكان الذي قلت انها موجودة فيه. كانت محادثة صعبة.

قلت له: «لم أكن في الواقع صادقاً معك منذ البداية حول مسألة المحركات. انها ليست في الولايات المتحدة».

قاطعني هاشمي بحدّة: «حسناً، أين هي إذاً؟ أقصد هل هي في أوروبا أو في مكان آخر؟»

«إنها في أوروبا، وقد صنّعت هناك بموجب ترخيص خاص».

عندما بدأ هاشمي بتكرار موقفه بأنه غير مخوّل بشراء أسلحة غير أميركية، أجبته بقولي، انه لما كانت المحركات قد صنعت بموجب ترخيص من المصنع الأميركي، فإنها ستكون بنفس المواصفات. ولكنها في الواقع لم تكن نفس الشيء بالنسبة لهاشمي الذي كان يريدني ان اشترك في مؤامرة لبيع أسلحة أميركية، بغرض اثبات حصول جريمة لدى السلطات الأميركية. فاتصل بسام في اليوم التالي وأخبره بأنه يغلي غضباً على خديعتي له بشأن محركات الدبابات.

ـ «إنني لا أصدق كلمة يقولها»، أخبر سام، «ليست لديَّ ثقة به وأعتقد بأنه يحاول أن يلعب لعبة قذرة معنا».

بعد هذه الحادثة، انقطع اتصالنا لمدة شهرين. في الحقيقة أحسست بالارتياح. كنت ربما قد تشاطرت قليلاً، ذهبت بعيداً في التزامي بإنجاز أمر لم أكن أستطيعه ـ على الأقل ليس بالطريقة المستغربة التي أرادها هاشمي. كانت توقّعات عمولة بملايين الدولارات مغرية، وكان مؤلماً أن أراها تتلاشى بعيداً عن قبضتي، ولكن من الجهة المقابلة كنت دائماً أحسّ بأن الصفقة كانت رمية بعيدة لأن الرهان كان عالياً لهذه الدرجة. كان لديَّ زبائني الآخرين ـ أقل ثراء بالتأكيد، ولكن أسهل وصولاً. وهكذا لم أجر أية محاولة للاتصال بهاشمي لمعاودة تحريك الصفقة.

لو عرفت باتصالات هاشمي مع تجار السلاح في هذه الفترة وقبلها، لكنت بقيت بعيداً عنه للأبد. كان سام يعرف قليلاً أكثر مما أعرف، ولكنه كمحام، اعتاد الكتمان ولم يتبرّع أبداً بإعطائي معلوات لم أكن بالفعل احتاجها ـ نفس السبب الذي دعاه لابقاء هوية هاشمي سراً عليَّ لمدة طويلة. ولكن سام لم يكن يعرف أيضاً بعشرات المكالمات التي اجراها هاشمي مع تجار آخرين ـ وكلها كما ظهر لاحقاً، كانت مراقبة من قبل الجمارك الأميركية. كان هاشمي يركز في جميع هذه المحادثات على ثلاثة أمور: (١)، الأهمية القصوى لكون هذه المعدات من صنع أميركي، (٢)، استحالة موافقة الولايات المتحدة على هذه الصفقات، و(٣)، الحاجة إلى شهادات مزورة لاثبات هوية المشتري.

كانت دوافعه وراء هذه المطالب هي التالية: ان بيع أسلحة غير أميركية، لا يعتبر عملاً جرمياً في الولايات المتحدة، ومن الطبيعي ان لا يكون العمل الذي يحظى بموافقة السلطات عملاً جرمياً، أما الحصول على شهادة اثبات هوية مشتري مزورة فسترقى إلى محاولة تحايل على السلطات. لقد أثار هاشمي موضوع هذه الشهادات ستاً وثلاثين مرة على الأقل بين كانون الثاني ونيسان، وبرغم ذلك، لم يؤمن له أي تاجر بمن فيهم أنا، شهادة واحدة. لم أكن أنا معنياً بمعظم هذه المكالمات، وقد عرفت بأمرها من مجريات المحاكمة، ولكنها دليل على طبيعة ومدى عملية «المكيدة» التي أوقعت بي وبالآخرين.

في ٣ كانون الأول، ذهب سام وهاشمي إلى فندق رافاييل في باريس، لمقابلة فييلّلو ورجل وامرأة قيل انهما من جهاز الاستخبارات الفرنسي. كان هاشمي يحمل معه جهاز استماع صغير مع مسجّلة، لتسجيل وقائع الاجتماع لصالح ادارة الجمارك الأميركية، مع انه كان من الصعب فهم التسجيل الموجود على الأشرطة التي حصل عليها بنتيجة هذه المحاولة. كرر فييلّلو اثناء الاجتماع ادعاءه، بأن صفقات الأسلحة الاميركية تحظى بموافقة واشنطن، وأعلن ان مصدر معلوماته هذه هو الجنرال بي. اكس. كلّلي، قائد سلاح مشاة البحرية الأميركية، والذي قيل انه كان زميل دراسة لدو لا روك، شريك فييلّلو (الذي لم يكن حاضراً). وكان كلّلي قد حصل على معلوماته، حسب ما قال فييلّلو، من كاسبر واينبرغر، وزير الدفاع الأميركي.

إدارة الجمارك الأميركية تراقب المكالمات

منذ تلك اللحظة، بدأت إدارة الجمارك الأميركية بمراقبة مكالمات هاشمي الهاتفية. في كثير من الحالات قبل ذلك، كان هاشمي يسعى إلى نزع فكرة ان السلطات الأميركية ستوافق رسمياً على الصفقات، من أذهان تجار السلاح. ولكن في أول مكالمة سجّلت في ٩ كانون الأول، أخبر سام هاشمي، بأن موافقة الولايات المتحدة لن تعلن رسمياً، ولكن «الموافقة أمر أكيد أو ان الصفقات لن تتم». وأضاف، «إذا لم يكن الأمر كله من وهم الخيال . . . فمن الضروري ان يكون خاضعاً لسياسة الحكومة على مستوى غير رسمي».

في الأيام التي تلت الاجتماع، اتصل هاشمي أكثر من مرة بفييلّلو الذي أخذ على عاتقه أمر ترتيب شحنة كبيرة من الأسلحة تتضمن ٣٩ طائرة مقاتلة جديدة من طراز ف ـ ٤ إي قيل انها في صناديقها في أميركا بانتظار التسليم. وفي مكالمة جرت في ١٧ كانون الأول، وصل الأمر بفييلّلو إلى حد قوله بأنه تحدّث شخصياً مع واينبرغر الذي أكّد له بأن قرار الموافقة على مبيعات السلاح أصبح الآن في يده، كما أشار إلى انه مقابل هذه الموافقة الرسمية، طلب من الايرانيين البدء في محادثات تهدف إلى تحسين العلاقة بين البلدين وإظهار حسن نيّتهم بإعطاء الأميركيين الرقم التسلسلي لدبابة سوفياتية الصنع، غنمها الايرانيون في الحرب، وكذلك أسماء الموفدين الروس إلى اجتماع يعقد في طهران، وفي أواخر كانون الأول، كان سام وفييلّلو يطمئنون هاشمي بأن الوثائق الرسمية التي تعطى الإذن بإجراء الصفقة هي على مكتب جورج بوش، نائب الرئيس الأميركي، بانتظار التوقيع عليها.

كان هاشمي لا يصدّق بالطبع ان أية موافقة ستتم، كما لم تكن اشارات مصادره المتكررة إلى هذه الموافقة، أثناء مكالمات تقوم الجمارك بتسجيلها، لتخدم اغراضه، لأنها كانت تجعل من الصعب على السلطات الأميركية ان تدّعي بأننا كنا نتعمّد القيام بأمر غير مشروع. وهكذا أعدّ هاشمي لاجتماع ثانٍ في فندق رافاييل في باريس، في ٧ كانون الثاني، واصطحب معه عميلين خاصين تابعين لادارة الجمارك: جوزيف كين، وإد روميو. قدّمهما هاشمي على انهما عميلا مخابرات متقاعدين، ويعرفان بأمر سياسة أميركا حول الموضوع. حالما بدأ فييلّلو الحديث عن الوثائق على مكتب جورج بوش، سارع كين، وروميو إلى القول بأن هذا الأمر ليس صحيحاً، وبأن الطريقة الوحيدة لانجاز الصفقة هي بخرق القانون وبتزوير شهادات اثبات هوية المشتري. أسْموا هذه الطريقة 'الخيار الثاني'. أما 'الخيار الأول' فكان الطريقة القانونية التي قالوا انها غير عملية. بالرغم من هذا التأكيد الذي بدا انه من مصادر عليمة، أصرَّ فييلّلو بأن مصادره كانت موثوقة جداً، وبأن 'الخيار الأول' يبقى الخيار الأساسي.

عميلان لوكالة الأمن القومي

لم يتّضح حتى الآن مَن كان فييلّلو ودو لا روك فعلاً، وما هي ارتباطاتهما بالبيت الأبيض. إن قناعتي بأنهما عميلا مخابرات أميركية حقيقيان، تثبتها، كما يبدو، طريقة اختفائهما عن الأنظار منذ اعتقالنا في نيويورك وعدم مثولهما أمام المحكمة للادلاء بأقوالهما في القضية. لقد سمّي الاثنان في بعض مذكرات الاتهام التي وُجّهت إلينا في بداية القضية، ولكن اسميهما لم يردا في مذكرات لاحقة. كان يستعملان جوازي سفر دبلوماسيين، واعتقد انهما كانا يعملان لوكالة الأمن القومي في عملية تزويد ايران بالسلاح من وراء الستار، كجزء من مبادرة حكومة الولايات المتحدة غير المعلنة.

كان واضحاً ان الرجلين يمتلكان معلومات وافية عما كان يجري في واشنطن، لأن

تقرير لجنة تاور اثبت انه في نفس اليوم الذي عقد فيه اجتماع باريس في ٧ كانون الثاني، اجتمع الرئيس ريغان لمدة ثمانين دقيقة مع كل من: بوش، واينبرغر، شولتز وكبار مستشاريه الآخرين لبحث موضوع المبادرات تجاه ايران ووافق المجتمعون بأغلبية ضئيلة على المضي قدماً فيها، وبعد أيام قليلة تمَّ التصريح ببيع أول ألف صاروخ تاو من ايران.

كان هاشمي في مكالماته اليومية مع سام وآخرين، خلال الأسابيع التالية، يصرّ على ابداء شكوكه حول رواية فييلّلو، وعلى محاولة التركيز على 'الخيار الثاني'. ـ «اننا نريد ان نسرع بشحن هذه المعدات»، قال هاشمي لسام بعد يوم من **الاجتماع**، «وإلاّ خسرنا مصداقيتنا نهائياً».

ولكن مصادر السلاح كانت لا تزال تركز على 'الخيار الأول'، لأنهم لم يكونوا راغبين أبداً في خرق القانون، إلاّ اذا لم يكن هناك بديل آخر اطلاقاً. وعندما أعلن سام بأن موافقة المسؤولين ضرورية، أجابه هاشمي: «نحن، أنت وأنا، نعرف ان الأمر لم يحصل على موافقة حتى الآن أو على تصديق، وأنا بكل صدق لا أعتقد، من الطريقة التي شرحوا الأمر بها، أنهم سيحصلون على الموافقة. السؤال المهمّ، كما تعرف، هو هل بإمكانهم انجاز العمل أم لا؟ أحسّ أنهم يتلاعبون بنا».

اتصل هاشمي بسام في اليوم التالي وسأله بالتحديد عن امكانية الحصول على شهادة اثبات هوية المشتري. وفي اليوم الذي بعده اتصل بفييلّلو الذي أخبره ان بعض المعدّات لا يمكن تأمينها من خلال «الخيار الثاني» والذي سيكون، بأية حال، أكثر كلفة بكثير، من 'الخيار الأول'. ولكنه ذكر مع ذلك، امكانية الحصول على شهادة مزورة من احدى دول أميركا الجنوبية.

كما تراجع فييلّلو عن عرضه لتأمين ٣٩ طائرة ف ـ ٤ إي. قد يكون هناك الآن حوالي عشر أو ثلاث عشرة طائرة متوفرة في هذا الوقت، وادّعى ان بإمكانه الحصول على طائرات ميراج فرنسية عوضاً عن الأميركية، ولكن هاشمي رفض العرض، مكرراً بأنه ليس مخوّلاً لشراء أي شيء بخلاف المعدات الأميركية الصنع.

في أواخر كانون الثاني، كان سام قد بدأ يقتنع بفكرة هاشمي بأن موافقة أميركية رسمية ومعلنة على الصفقة، غير واردة في الوقت الحاضر على الأقل «ولكنهم على استعداد للسماح بتمرير الصفقة بناء على شهادات إثبات مزورة، والتي سيعرفون طبعاً انها كذلك». وأصبح هاشمي الآن أكثر اصراراً على ان الصفقة يجب ان تتم على أساس غير شرعي. مردّدا أقوال «مصادره المخابراتية» جو وإد (جوزيف كنغ واد روميو اللذان رافقاه إلى باريس) بأنه لن يكون بالامكان الحصول على موافقة حكومية، وحثّ سام على المضيّ في 'الخيار الثاني' و«لا تخبرنا ثانية بقصة موافقة حكومة الولايات المتحدة، لأنها ليست صحيحة». ثم بدأ بإعطاء تحذيرات مبطّنة عما يمكن ان يحدث لهما إذا لم يتمّ تسليم الأسلحة في النهاية: «إنني أقف على شفير الخطر، وأنت كذلك». ثم اتصل بعد يومين غاضباً، ليقول لسام:

«كفاني هذا الهراء، انني أريد أن أري شهادة اثبات هوية المشتري». ومع ان أشرطة التسجيل تظهر بأن سام أصبح أكثر قلقاً عند إثارة موضوع الموافقة الرسمية خوفاً من ردات فعل هاشمي الغاضبة، فإنه كان لا يزال يتلقى تقارير مؤكدة ومقنعة من فييلّلو ودو لا روك حول الأوضاع المطمئنة في البيت الأبيض. وفي ٧ شباط شرحا بدقة مواقف المعنيين من كبار المسؤولين الأميركيين: كان جورج بوش يحبّذ اجراء صفقات سلاح مع ايران بينما كان شولتز يعارض ذلك ولكنهم «بالرغم من ذلك مستعدون للاستمرار في الأمر»، وان الرئيس ريغان وقّع بالفعل في هذا الوقت، ١٧ كانون الثاني، وثيقة تصرح ببيع ٤ آلاف صاروخ تاو من ايران.

في هذا الوقت كان هاشمي يبدو غاضباً أكثر وأكثر اثناء محادثاته مع تجار السلاح. في ٧ شباط ثار في وجه فييلّلو قائلاً: «إننا نتعامل معك منذ شهرين ونصف، وبصراحة، أنا مستاء ومحرج وحزين . . . إذا كانت المعدّات متوفرة لديك، إذا كنت تستطيع الحصول على البضاعة، وأنا لا أبالي بأية طريقة، أعطنا إياها ونحن على استعداد لدفع مبلغ أكبر من أجل الحصول على شهادة إثبات هوية المشتري المزورة. ولكن، بحق الله، كفانا هذا . . . أحضر البضاعة ودعنا نشحنها».

رفض فييلّلو ان يستثار بهذه الثورة من الغضب، وأشار إلى ان نجاح 'الخيار الأول' سيكون له تأثير مفيد على العلاقات بين الولايات المتحدة وايران في المدى الطويل. وكانت تقارير ميناردوس تتضمن أفكاراً متفائلة مشابهة مبنية على مصادره الخاصة داخل الادارة الأميركية. (كان صديقاً لماكسويل راب، السفير الأميركي في روما).

لا حاجة هناك لبحث الموضوع مع «الماما»

بحلول شباط، كان هاشمي قد استقر في نيويورك، بعد ان انهى اشكالاته مع السلطات الأميركية حول قضية تهريب الأسلحة التي كانت لا تزال قائمة ضده، وشغل جناحاً في بيكمان تاور حيث وضعت ادارة الجمارك، كاميرات فيديو خفية وأجهزة استماع وتسجيل. زاره سام وميناردوس هناك حيث تابعا مناقشة امكانية موافقة السلطات الأميركية على الصفقة، بالرغم من ان الموضوع كان يثير غضب هاشمي. كانت معظم الأسلحة ستأتي من اسرائيل، وقال ميناردوس: «سايروس، اننا لا نريد ان تقوم بأمر مخالف، بوضوح، للقانون. وأنا شخصياً لا أعتقد بأن وزارة الدفاع الاسرائيلية ستقوم بعمل كهذا دون بحث الموضوع مع «الماما». إنني أكيد ان حكومة الولايات المتحدة على اطلاع كامل بما سيجري». ألقي القبض على أربعة اسرائيليين مع سام في برمودا، في نفس اليوم الذي ألقي القبض عليَّ في نيويورك، وكان من بينهم ابراهام بار ـ عام، وهو جنرال اسرائيلي متقاعد، وكان اسرائيلي آخر يدعى وليام نورثروب، قد سعى سابقاً لاطلاق أربعة سجناء اسرائيليين في لبنان كجزء من الصفقة.

أما بالنسبة لمصدر السلاح، فقد ظهر بأنني لم أكن الوحيد الذي لم يكن يخبر الحقيقة كاملة لهاشمي، حول إذا ما كانت الأسلحة ستأتي من أميركا. في أوائل نيسان، حاول البرت فليرموي، تاجر سلاح بريطاني صغير اعتقل في نيويورك بنفس الوقت الذي القي القبض عليَّ، إقناع هاشمي بالموافقة على شراء صواريخ سوينغفاير البريطانية بدلاً من الأميركية، وعندما أخبره هاشمي بأن عقده ينص على ان يؤمن اسلحة أميركية، ردّ فليرموي بالقول بأنه من الممكن بسهولة وصفها في الوثائق على انها أميركية لارضاء الجماعة التي كان هاشمي يتعامل معها. فنصحه هاشمي بألاّ يفعل ذلك، «فأنا لا أستطيع التلاعب مع حكومتي». بأي حال، اقتنع فليرموي بالذهاب إلى نيويورك في ٢١ نيسان، وعند وصوله اعترف بأن ليس هناك أية أسلحة أميركية للبيع، وبأنه يشك بأن يستطيع هاشمي الحصول على أية أسلحة اميركية بسبب القيود الحكومية.

«لا أحد يجرؤ على نقل أسلحة أميركية في هذا الوقت». إن فكرة ان تمر شهادات اثبات مزورة على السلطات الأميركية دون التدقيق فيها، كانت تبدو سخيفة لأي انسان يعرف أبسط قواعد هذه اللعبة.

* * *

عودة إلى الصفقات المتفرّقة

بعد انقطاع اتصال هاشمي بي في شباط، تابعت العمل على الصفقات الأخرى ـ طائرات البفالو للسودان، السواتر الدخانية لعُمان، مدافع رشاشة وكاشفات الغام للتشيلي، بالاضافة إلى حقائب الطوارىء والخيام لبعثة التشيلي القطبية. (كان العائق هنا، تأمين التمويل وبالأخص ان سمعة التشيلي المالية لم تكن الأفضل!) من خلال اتصالاتي الأولية مع سام هكت، كنت قد بدأت باحراز تقدم ملموس نحو بيع ألف صاروخ مضاد للدبابات من طراز ميلان ـ وكان هذا الصاروخ مطلوباً بكثرة وتمّ تطويره بتعاون بريطاني ـ الماني ـ فرنسي. كانت الصفقة قد قاربت الانتهاء، وكنت قد أمضيت ثلاثة أيام في ماربيلا في منتصف نيسان، مقيماً في فندق بيتش كلوب، لوضع اللمسات الأخيرة وتوقيع الاتفاق.

عدت من رحلتي هذه يوم الخميس في ١٧ نيسان، لافاجأ بسكرتيرتي ونْوا تخبرانني بأن هاشمي أقلق راحتها بمكالماته الهاتفية. وفي ليلة وصولي، اتصل بي حوالي العاشرة والنصف.

بدأ حديثه بالقول: «لم أسمع منك منذ فترة، وكنت أتساءل عما حدث». فأجبته بأنني اتساءل أيضاً عن سبب انقطاع اتصاله بي، ولكنه لم يُضِعِ الوقت في التفسيرات بل تقدّم بعرض محدّد لكسر الجمود حول اثبات وجود التمويل. وكان العرض يتطلب وجودي في نيويورك بأسرع ما يمكن، حيث سيقوم هاشمي وشريكه بدفع مبلغ ١١٥ ألف دولار نقداً ثمن واحد من صمّامات فاريون، بالاضافة إلى اعتماد مصرفي، بقيمة ثمن الصمامات

الأربعة عشرة الأخرى، قابل للتحصيل عند تسليم الصمام الأول. كان طُعماً مغرياً. كان بإمكاني الحصول على مبلغ نقدي، ولكن المشكلة هي انني كنت مضطراً للذهاب إلى البرتغال خلال عطلة نهاية الاسبوع، لترتيب عملية معاينة صواريخ ميلان للصفقة الأخرى. كانت البرتغال مكاناً مناسباً لتخزين المعدات العسكرية لأن لشبونة هي مرفأ حر، ولذلك تحفظ الأسلحة في مخازن «قيد الاستيداع» حيث يستطيع الزبائن معاينتها قبل الشحن. بعد لشبونة كنت أخطّط للعودة إلى زوريخ لابرام الصفقة.

سألت هاشمي اذا كان بالامكان تأجيل زيارة نيويورك لمدة اسبوع، ولكنه قال ان ذلك غير ممكن، لأن الأموال المودعة في مصرف كميكال بنك، يجب ان تعاد إلى ايران في موعد اقصاه الاربعاء القادم، إذا لم يتم استعمالها. سألته لماذا لا يمكن ان تتم العملية في لندن حيث نقيم نحن الأثنان، فأخبرني ان الشخص المخوّل بالتوقيع معه، لا يستطيع مغادرة نيويورك بسبب مهمته الدبلوماسية في الأمم المتحدة، وبأن هذا الشريك حريص على مقابلتي شخصياً، لازالة بقايا الشكوك الذي تساوره حول حسن نيتي، إذ انهم كانوا يعرضون اعتماداً مصرفياً، دون ان اضطر لاصدار كفالة حسن انجاز بالمقابل، وناشدني هاشمي بالقول: «أقلّ ما يمكنك عمله، أن تأتي إلى نيويورك لتوقيع الاتفاقية». ولاضافة السكّر إلى الطُعم. تحدّث هاشمي عن امكانية بحث صفقات جديدة لتأمين معدات أخرى. أخبرته بأن رحلة البرتغال كانت قد أُعدت منذ بعض الوقت وطلبت إليه أن يتصل بي في اليوم التالي في البيت.

كان من المفروض ان يثير اتصال هاشمي، بعد انقطاع دام عشرة أسابيع، شكوكي. ولكن على المرء الذي يتعامل مع الايرانيين ان يتعلّم مع الوقت توقّع غير المتوقع. اتصلت رأساً بسام لأستشيره في الأمر، فأخبرني بأن هاشمي يواجه مشاكل في ايران لأن صفقة سابقة كان قد بدأها، لم تؤد لنتيجة، وكان لذلك حريصاً على ان يحصل على بعض الأسلحة لايران قبل اعادة الأموال إلى ايران يوم الاربعاء المقبل. كما أخبرني سام بأنه يعدّ ترتيبات مع مصادر اسرائيلية لتوقيع عقد صفقة اخرى مع هاشمي، مع انهم سيتوجهون إلى برمودا للاجتماع هناك، لأن الاسرائيليين يعتقدون ان توقيع مثل هذه الصفقة داخل الولايات المتحدة وهي ما زالت مخالفة للقانون، من ناحية قانونية فنيّة على الأقل، قد يسبّب احراجات دبلوماسية. وافترضنا، سام وأنا، بأن هاشمي استطاع، بعد كل المناقشات الطويلة المتعلقة بطريقة الدفع، اقناع شريكه بدفع مبلغ نقدي على أساس الامانة لأن الوضع اصبح ملحاً ويائساً.

عندما اتصل هاشمي في اليوم التالي، سألني مباشرة: «هل اعددت ترتيبات زيارتك إلى نيويورك؟»

- «هناك مشكلة، إذ يجب ان أكون في البرتغال يوم الاثنين».

«إذا لم تستطع الحضور، فسنضطر آسفين لنسيان الموضوع برمّته».

خطرت لي فكرة فسألته: «هل ترضون اذا أرسلت شريكي في العمل؟»

كان جون سوندرز لا يزال شريكي مع ان انطباعاتي عنه كانت تسوء باستمرار، وكنت أبحث عن طريقة للتخلص من الشراكة. تردّد هاشمي قليلاً، ثم قال بأن ذلك سيكون كافياً.

قلت له عندها: «سأكلّمه هذه الليلة، لقد عاد لتوه من بيروت».

فاقترح هاشمي: «قد يكون من الأفضل ان ترسله إلى البرتغال، وتأتي أنت إلى نيويورك».

وعدته بأن «أحدنا سيحضر إلى نيويورك، هل يوافقك ذلك؟».

وختم هاشمي بالتأكيد بحرارة على «ان الأمر لن يستغرق أكثر من يوم أو يومين».

في ذلك المساء كنت أشارك صديقاً قديماً وموثوقاً الشراب، وذكرت له أمر الرحلة المقترحة إلى نيويورك.

أسرّيت له بأن «شعوراً غريباً يخامرني، ان الأمر استغرق وقتاً طويلاً ولديَّ شعوري داخلي حوله».

«لو كان هذا شعوري، لما ذهبت». أجابني، فقلت أنني سأفكر بالأمر.

اتصل هاشمي بي إلى البيت ثانية مساء الأحد، فأخبرته بأن واحداً منا سيحضر بالتأكيد إلى نيويورك، وبأنني اعتزم تأمين حجز على احدى الطائرات المسافرة إلى نيويورك، حالما أصل إلى مكتبي في صباح اليوم التالي، وطمأنته إلى انه يستطيع الاعتماد على جون والوثوق بمقدرته.

ـ «لقد عرفته منذ ست سنوات، وهو شريك كامل في عملي، ولكنني آمل انه عندما يأتي أحدنا فلن يعود خاوي اليدين».

أعاد هاشمي شرح أُطُر الترتيبات ـ دفعة نقدية تغطي ثمن واحد من الصمامات، واعتماد مصرفي باجمالي ثمن ١٤ صماماً آخرين.

«إننا سوف نثق بك عند تسليم الصمّام الأول»، ثم ذكّرني، في حالة انني كنت لا أزال بحاجة للتشجيع، بأن «كل المبالغ سيعاد تحويلها إلى ايران قبل يوم الخميس، عطلة نهاية الاسبوع في ايران، وفي ذلك الوقت تكون الصفقة قد ابرمت».

فقلت: «سنتحدث غداً، إمّا شخصياً أو عبر الهاتف. ولكنني مضطر للعودة يوم الثلاثاء».

فأعاد تأكيده بأنني «سأكون في لندن يوم الاربعاء، سأتصل بمكتبك لأعرف تفاصيل الرحلة. سنستقبلك في المطار ونحجز لك غرفة في أحد الفنادق».

الرحلة التي قادتني إلى المصيدة!

لم استطع اقناع جون القيام بالرحلة. وعندما اتصل هاشمي ظهراً، كنت غريزياً أعمل على مماطلته، فأخبرته انني قررت تأجيل الرحلة حتى يوم الثلاثاء، وبأنني حجزت على طائرة تغادر لندن في الحادية عشرة صباحاً، وتصل إلى نيويورك في الثانية عشرة والنصف».

فعلّق هاشمي بالقول، ان هذا يجعل توقيت العملية مضغوطاً لدرجة كبيرة، مشيراً إلى ان وقت وصولي إلى المدينة سيكون قريباً من موعد اقفال المصارف، فقلت له بأن هناك رحلة في السادسة والنصف من مساء اليوم نفسه وسأحاول ان أجد مكاناً على الطائرة.

«سيكون هذا أفضل، لأنك ستتمكن من قضاء ليلة مريحة، وتتابع العمل في الصباح».

ذكرته بأن: «يكون كل شيء جاهزاً لأنني سأغادر نيويورك في نفس اليوم ثانية، وأضفت: «سأتصل بك لأطلعك على موعد وصول الطائرة، سأحاول أن أسافر هذه الليلة».

اتخذت أخيراً، قراراً حاسماً بالذهاب. كنت أعتزم ان أقنع نفسي مرة وللأبد بقدرة هاشمي على انجاز ما يقول انه يستطيع ـ أو عدم قدرته. وكنت أرغب في معرفة إذا ما كانت الدفعة النقدية وكتاب الاعتماد متوفرين في المصرف. وقررت كذلك انني، بغض النظر عن الاغراءات، لن أتسلم النقود والاعتماد المصرفي خلال وجودي في نيويورك، وبهذا لن أرتكب أمراً جرمياً على الأرض الأميركية، وبدلاً من ذلك كنت سأطلب تحويل النقود وكتاب الاعتماد إلى المصرف الذي أتعامل معه في بلجيكا، وافترضت بأن ذلك سينقذني من أية مكيدة مُعدّة لي. لم أكن أعرف ان القوانين الأميركية، خلافاً لقوانين معظم الدول، تسمح بتقديم أشرطة مسجلة كدليل في المحكمة، ولا ان هناك تهمة بالتآمر تعني انهم يستطيعون النيل منك لمجرّد الحديث عما تنتويه، حتى ولو لم تقم بالعمل. كان عليَّ ان أطلب مشورة محامٍ أميركي قبل أن أغادر.

عندما كنت أهم بالخروج من مكتبي في طريقي إلى المطار، قمت بعمل مخالف لطبيعتي: أفرغت حقيبة أوراقي من كل ما يتعلّق بصفقاتي الأخرى، ولم يبق فيها بالفعل سوى دفتر أرقام الهاتف، ثم قدت سيارتي مخرج اقلاع الطائرات رقم ٤ في مطار هيثرو حيث أوقفت سيارتي في موقف موقت.

الفصل الخامس

سجين «فولي سكوير»

إن المشكلة مع ضباط الأمن الأميركيين، هي انهم يشاهدون كثيراً من الأفلام. إنهم يعتقدون بأن عليهم التصرف بقسوة وفظاظة على طريقة سلفستر ستالوني. إنهم لا يتكلمون مع السجناء، بل يصرخون في وجوههم بتلك النبرة القاسية المثيرة التي يستخدمها رجال الشرطة وهم يصوّبون مسدساتهم ويحذّرون ضحاياهم بألاّ يتحركوا. كان واضحاً ان رجال الجمارك الذين قاموا باعتقالي، يستمتعون بما يفعلون، وبالأخص أحدهم المدعو دنيس دويل، الذي علمتُ فيما بعد انه قام بأغلب الترتيبات على الأرض، بما فيها وضع أجهزة التنصت على المكالمات الهاتفية، تحت إمرة جوكنغ. أما المرأة التي كانت مسؤولة عن ترتيب الأمور بعد اعتقالي فلم يكن لها دور في التحقيق.

الوقوع في الفخ . . . والتوقيف

كانوا يقومون بعملهم حسب نهج لا يتغيّر. أخذوني من بار الفندق إلى غرفتي حيث اخبرتني المرأة بأن من حقّي ان أبقى صامتاً. ثم وقعت عينا دويل على حقيبة أوراقي الغالية الثمن، فتناولها بحماس وفتّش محتوياتها. لم أكن أعرف الكثير عن القانون الأميركي، ولكنني كنت متأكداً بأنه لا يستطيع ذلك دون مذكرة تفتيش، ولكنني لم أجد الوقت مناسباً للاحتجاج لأنني لم أكن قادراً على منعه، كما أحسست بشيء من التشفي لرؤية وجهه وقد بدت عليه علامات الخيبة عندما تفحص المحتويات؛ ولم يجد سوى فواتير فنادق قديمة، وبعض الأوراق البيضاء وتذكرة السفر ودفتر أرقام الهاتف: لا عقود ولا فواتير أسلحة، والأهم لا شهادات اثبات هوية المشتري.

كنت محقاً فيما يتعلق بمذكرة التفتيش، إذ قام دويل لتصحيح الوضع، باستصدار واحدة بتاريخ سابق، بعد تفتيش الحقيبة بعدة أيام. كانت المذكرة تنص على «انهم يبحثون عن أدلة وأدوات جريمة تآمر لبيع أسلحة أميركية لايران . . . بما في ذلك وثائق تتعلق بالشحن، ومواصفات الأسلحة وترتيبات سفر، بالاضافة إلى عقود وفواتير شكلية وشهادات إثبات هوية المشتري وكتب اعتماد مصرفية ودفتر عناوين وايصالات ايداع نقدية. ولكن في الوقت الذي استغرقه اصدار المذكرة، كانوا يعرفون بأنهم لم يجدوا أية أدلة على عمل جرمي.

عندما وصلنا إلى مكتب ادارة الجمارك في مبنى المركز التجاري الدولي قام مسؤولو الجمارك بأخذ صور لي وطبع بصماتي، ثم صعدنا إلى غرفة اجتماعات في الطابق الخامس،

حيث تلت المرأة عليَّ حقوقي للمرة الثانية وجعلتني أوقّع نموذجاً كانت كلماته مألوفة من الأفلام:

- «من حقك أن تبقى صامتاً.
- كل ما تقوله قد يستعمل ضدّك في المحكمة أو في أية اجراءات أخرى.
- من حقّك ان تطلب مشورة محام قبل استجوابك وان يبقى برفقتك أثناء الاستجواب».

وتحت هذا الكلام كان هناك نص تنازل عن هذا الحق: «إنني لا أريد محامياً في هذا الوقت. إنني أدرك وأعرف ماذا أقوم به. لم أتلق أية تهديدات أو اغراءات ولم تستعمل القوة ضدي أو يمارس ضغط عليّ، وأنا هنا أقرّ بإرادتي انني أتنازل عن حقوقي ومستعد للادلاء بإفادتي والاجابة على الأسئلة التي تطرح».

مع انني كنت مضعضعاً وقلقاً، إلاّ انني احتفظت بما يكفي من الفطنة لأدرك ان عليَّ ألاّ أوقّع النموذج. ولا بأية طريقة. لأن هذا سيعني ان الاستجواب لا يمكن ان يخرج عن إطار ما اسمته المرأة بتعبير غريب: معلومات سلالية، وكأنني حصان سباق. سألوني عن: عنواني وعنواني السابق، أسماء والديْ، أسماء شقيقي وشقيقتي، أية علامات فارقة، طولي، لون عيني، وشعري، سجلّي الوظيفي، عنوان المصرف الذي أتعامل معه ـ كل شيء.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً، عندما أعادوني إلى السيارة، والقيد ما زال في يدي، ونقلوني إلى مكتب المدّعي الاتحادي حيث التقيت، لأول مرة، لورنا سكوفيلد، المرأة التي ستنغّص عليَّ حياتي للأشهر الستة التالية. بعد الانتهاء من الاجراءات الشكلية الأخرى، نقلت إلى المكان الذي سيكون بيتي لتلك الفترة، المركز الاصلاحي المديني، وهو سجن حديث لاحتجاز المتّهمين حتى موعد المحاكمة، يجاور مبنى المحكمة الاتحادية ومركز شرطة نيويورك الرئيسي.

أخذوا بصماتي وصوروني مرة أخرى، ثم وضعوني في ما اسموه «غرفة التوقيف» في الطابق الثالث. كانت الغرفة عارية، تخلو إلاّ من مصطبة من الاسمنت المغطّى بالبلاستيك تمتد حول الغرفة كلها. بقيتُ هناك حتى حوالي الخامسة مساء، عندما أخذوني إلى غرفة ضيقة بشكل اسفين تحتوي على سرير قابل للطيّ مثل الكرسي الذي يُستخدم على الشاطىء. من الطبيعي انني لم أكن في حالة عقلية تسمح بالنوم. بعد حوالي الساعة والنصف أعادوني إلى غرفة التوقيف.

في هذا الوقت بدأوا باحضار اشخاص آخرين إلى الغرفة. كان هناك مجموعة من الايطاليين، افترضت رأساً ان لهم علاقة بالمافيا، ثم دخل رجال ثلاثة جلسوا على المصطبة في مواجهتي، وتبعهم هولندي جلس بجانبي. اكتشفت انه يتقن الالمانية وبدأنا بالحديث.

بعد كل ما حدث، ولما كنت لم أذق طعم النوم لفترة طويلة، لم أكن في أفضل حالة

نفسيّة في الأساس ـ ولم تساعد المحادثة في تحسين حالتي. قال الهولندي انه محتجز لأنه باع شاحنات عسكرية اميركية، وقد مضى عليه ثمانية أشهر بانتظار المحاكمة. ثمانية أشهر؟ كنت مصمماً ان أخرج خلال ثمانية أيام ـ بل قل: ثمانية ساعات، إذا أمكن. وقفت وبدأت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

عندما وصلت إلى طرف الغرفة الآخر، لاحظت ان الرجال الثلاثة، الذين بدوا محبطين مثلي، كانوا يتكلمون الانكليزية. ولكنهم لم يبدو اميركيين ـ ما عدا واحد يرتدي بدلة مهلهلة من الحرير، وسمعته يذكر اسم سام.

ـ «مهلاً»، قلت لنفسي، «سام . . . إنني اتساءل». ثم مشيت عائداً إليهم.

ـ «عفواً»، قلت للرجل، «لقد سمعتك تذكر اسم سام. هل يمكن ان تقصد سام ايفانز؟

نظر ثلاثتهم إليَّ وكأنني شَبح.

«أنت أيضاً؟» قال أحدهم.

فأجبته: «يبدو الأمر كذلك». وهكذا وقعت عينيَّ لأول مرة على ثلاثة من شركائي في المؤامرة بحسب الادعاء ـ رالف كوبكا، البرت فيلرموي (وكان يحب ان يدعى لاري) ونيكوس ميناردوس. وهكذا أدركت لأول مرة كم هو عدد الذين أوقع بهم هاشمي وادارة الجمارك في الفخ، وبدأ الكابوس الذي رافقني خلال الاثنتي عشرة ساعة الماضية يتخذ معنى ينذر بالشر.

جلست على المصطبة بجانبهم وبدأنا نتبادل أخبار تجربتنا. كانوا كلهم قد أوقفوا، مثلي، في اليوم السابق بعد ان أغراهم هاشمي بالحضور إلى نيويورك: ذبابات إلى مصيدة ذباب. وصل كوبكا وفيلرموي معاً من لندن. كان فيلرموي، أكبر المجموعة سناً، رجلاً بريطانياً ضخماً في الستين من عمره، تورط في عمليات بيع أسلحة خفيفة من روديسيا أثناء الحظر البريطاني على نظام البيض العنصري هناك، ولكنه أوقف نشاطه في حقل تجارة السلاح منذ فترة، ويعيش على مداخيل من نشاطات تجارية مختلفة من بينها سلسلة من صالونات تصفيف الشعر النسائية تدعى «بارباريلا». وكان يبدو انه انضم إلى مجموعة سام من تجار السلاح حبّاً بالمغامرة أكثر من أي احتمال بأنه يستطيع ان يؤمن أياً من المعدات التي يطلبها الايرانيون. أكثر من معظم المتعاملين في هذا الحقل، كان لسانه يمتد إلى أطول من باعه ـ والكلام دون روية كلّفه حريته.

كان لكوبكا، وهو رجل الماني في أوائل الخمسين من عمره، علاقات عمل مع فليرموي. عمل في وقت من الأوقات مدير مبيعات في مصنع شاحنات، ولكنه تقاعد مبكراً لأسباب صحيّة. أحضره فليرموي كمستشار قانوني في العقود لخبرته في هذا المجال، وفي حال نجاح صفقة ما.

كان في استقبال الاثنين، كما جرى في حالتي، على مطار كنيـدي، رجل ادّعى انه سائق هاشمي، أخذهما إلى «بيكمان تاور» لمقابلة الايراني. بعد اجتماعهم ـ الذي تم تسجيله سراً على شريط فيديو كما حصل معي ـ أخبرهما هاشمي بأنه حجز لهما غرفـاً في فندق فيستا في مبنى المركز التجاري الدولي. (مناسب لقربه من مقر إدارة الجمارك). عندما وصلا إلى الفندق، لم تتوقف السيارة أمام المدخل بل استدارت ودخلت موقف السيارات في الطابق السفلي تحت مقر الجمارك حيث ألقي القبض عليهما.

كان ميناردوس أكثر الثلاثة جاذبية وثرثرة. وميناردوس هذا من مواليد اليونان، طويل القامة، وسيم لوّحت الشمس بشرته ويبدو عليه الاهتمام بالأمور الدنيوية. عمل سابقاً في تمثيل أدوار صغيرة في مسلسلات تلفزيونية ويعيش في بيفرلي هيلّز. (كان مغروراً وشد ما آلمه في القضية إصرار الصحف على دعوته 'بالممثل الصغير'). أدخله سام في العملية لأنه كان على علاقة عمل مع خاشقجي. وهو رجل طيّب من النوع الذي ادعوه عادة 'رجل حفلات'، وكان بالفعل يدعى إلى كثير من الحفلات. كان يعمل كقوّاد لخاشقجي، ولم يكن تاجر سلاح ولكنه طمع بأوهام العمولات الكبيرة.

لو كنت أعرف ان أناساً مثله ومثل فليرموي وكوبكا متورطون ـ هواة بالأساس ـ لبقيت بعيداً عن الصفقة كلها. اكتشفت فيما بعد ان هاشمي، أي ادارة الجمارك، دفع ثمن تذاكر سفرهم. (لم يعرضوا دفع ثمن تذكرتي لأنهم يعرفون انني لن أرضى. هل تتخيل انك في الطريق لصفقة بمئات ملايين الدولارات ولا تستطيع دفع بدل تذكرة سفر؟)

الجانب الاسرائيلي من الصفقة

كان ميناردوس مجرّد عابر في نيويورك، في طريقه إلى برمودا، وكان سام قد أخبرني قبل مغادرني لندن، بأن اجتماعاً سيُعقَد هناك مع مجموعة من الاسرائيليين الذين سيؤمنون أسلحة اضافية لهاشمي. اختيرت برمودا كأرض محايدة، قبل سفري إلى نيويورك بحوالي الساعتين فقط. وفهمت لاحقاً، ان الدبلوماسية لم تكن السبب الوحيد لابتعاد الاسرائيليين عن نيويورك: كان بعضهم يخشى ان تكون الصفقة غير شرعية رغم التطمينات التي تلقاها سام من فيبلّلو ودو لا روك، ومن شريك هاشمي الغامض الذي ثبت فيما بعد انه جو كنغ.

كان ميناردوس قد لعب دوراً في الجانب الاسرائيلي من الصفقة وكان في طريقه إلى برمودا للانضمام للآخرين، ولكنه توقف في نيويورك لرؤية هاشمي على ان يتابع طريقه في طائرة خاصة، ولذلك ذهب بعد وصوله إلى فندق بيكمان تاور واجتمع مع هاشمي ثم استقل السيارة التي كان يفترض ان تنقله إلى المطار ولكنها اتجهت إلى الموقف تحت ادارة الجمارك حيث تمّ القاء القبض عليه.

جلسنا نتبادل الحديث لمدة ساعتين تقريباً، قبل ان نؤخذ لنمثل أمام قاضي التحقيق حيث جرى توجيه الاتهام لنا رسمياً. كان مبنى المحكمة الاتحادية يوحي بالفخامة وكانت

درجات عريضة تؤدي إلى صفّ من الأعمدة الضخمة أمام المدخل. كان الانتقال من السجن إلى المبنى يتضمن تعقيدات روتينية - ولكنها بنفس درجة التعقيدات التي ستصبح مألوفة لديّ بعد ان أصبحت سجيناً بكل معنى الكلمة. في ذلك اليوم الأول، أعيدت الاصفاد إلى أيدينا وأُخذنا عبر باب جانبي للسجن. وراءه كان يوجد باب فولاذي ضخم يحرسه شرطي أسود كبير الجثة يحمل في حزامه مسدساً من عيار ٤٥,٠، ومع ان حراس السجن لا يحملون سلاحاً بالعادة إلّا ان هذه المنطقة تعتبر خارجية. ككثير من زملائه، بدا ان هذا الشرطي قد شاهد الكثير من الافلام السينمائية.

- «استديروا وواجهوا الحائط».

لا أعرف ماذا اعتقد هذا الشرطي انني سأفعل، فقد فتّشوني عدة مرات قبل هذا الوقت، ومع ان طولي يبلغ ١٨٧ سم. إلّا انه كان أكبر مني ويحمل مسدساً. بعد هذا عبرنا الشارع إلى مبنى المحكمة، وكانت قاضية التحقيق امرأة أخرى تدعى شارون غروبين. إنني أعتقد ان المرأة ستهيمن كليّاً على حقلي الامن والقضاء الأميركيين خلال سنوات قليلة، ربما بسبب المسلسلات التلفزيونية عن الشرطة النسائية مثل مسلسل كاغني ولاسيّ. خلال ستة أشهر ونصف، كانت النساء الوحيدات التي رأيت، يعملن جهدهن لابقائي في السجن سنوات طويلة. كان هذا كافياً لابعادي عن جنس النساء طوال حياتي، مع انني فرح لأنني اكتشفت لاحقاً، انه لم يفعل.

لائحة الاتهامات في تجارة السلاح

كانت التهمة الموجّهة لي - والتي تغيرت مرات عديدة خلال أشهر الجلسات - هي انني تآمرت لبيع اسلحة، تقدر بأكثر من مليوني دولار، من ايران، وتتضمن طائرات مقاتلة وصواريخاً ودبابات، ويعتبر هذا خرقاً لقانون ضبط الاعتدة العسكرية الذي يحظر بيع مواد استراتيجية مصنوعة أو موجودة في الولايات المتحدة الأميركية، لدول لا توافق عليها الحكومة. كما اتهمنا باستغلال الهاتف والبريد لأغراض الغش وبتزوير شهادات اثبات هوية المشتري. (إن النص النهائي لمذكرة الاتهام، فيما يتعلق بحالتي، موجود في ملحق هذا الكتاب). أمر القاضي بإبقائنا في السجن ومنع خروجنا بكفالة، حتى زمن الجلسة التالية بعد ثلاثة أيام، يوم الجمعة ٢٥ نيسان.

عدنا إلى مبنى السجن ونقلنا إلى الطابق التاسع - بيتي الجديد. إنه واحد من طابقين في المركز الاصلاحي، مخصصان لكبار السجناء، الموقوفين بجرائم 'الياقات البيضاء'، مثل الاحتيال والنصب وترويج المخدرات - وتجارة السلاح. بدا الأمر وكأنك تحلّ في فندق، ما عدا انني لا أعرف أية فنادق حيث يجرّدونك من ثيابك عند الدخول ويستبدلونها بزي برتقالي باهت، أو حيث يأخذونك إلى غرفتك ويخبروك بما يمكن وبما لا يمكن ان تفعل،

وبأنك تحت مراقبة دائمة من قبل حراس يشاهدون كل حركاتك عبر جهاز مراقبة تلفزيوني.

يتسع كل طابق لحوالي مئة سجين في زنزانات على مستويين. كانت زنزانتي تقع في المستوى الأرضي، المجموعة ب، الرقم ٩١٣ - يعتبره البعض مجلبة لسوء الحظ. كانت الزنزانة تتسع لاثنين، وهكذا تعرفت إلى عدد من الذين شاركوني زنزانتي في أوقات مختلفة. بدأت مشاركتي مع أحد زعماء المافيا، ثم كوبكا، ثم هانز بيهن (متهم آخر)، وبعد ذلك أميركي يعمل لأحد نجوم الغناء الشعبي المشهورين، ودخل السجن بتهمة العمل في تجارة المخدّرات - مثل ٩٥٪ من المحتجزين في هذا الطابق.

كانت مكاتب الحراس تقع في الوسط، حيث كان هناك لعبة كرة طاولة وقاعة تمارين وجهاز تلفزيون وطاولات ومقاعد. كان الحارس يجلس عادة قرب طاولة بليار في وسط المكان، وبجانبه ثلاثة أجهزة هاتف. وكان المدخل الرئيسي للقاعة من الفولاذ يبلغ عرضه ثلاثة أمتار، والوصول عادة يتمّ عبر المصعد، وكان ممنوعاً على السجناء دخول المصعد دون حراسة، لمنعهم من أخذ المصعد إلى الطابق الأرضي والتواري عن الأنظار، وكان هذا يعني انك إذا أردت الذهاب إلى أي مكان، يتوجب عليك الانتظار، ولفترات طويلة في بعض الأحيان، حتى يتفرغ لك أحد الحراس.

لم نكد نستقر في مقرنا الجديد، حتى انضم إلينا عضو خامس في المجموعة، كان هانز بيهن ألمانياً آخر على علاقة بميناردوس (كان كلاهما من أصحاب البواخر على نطاق ضيق) وكان هو الذي جنّد كوبكا وفليرموي للعملية. كان بيهن قد وصل إلى نيويورك في صباح اليوم نفسه من أثينا، وأخبرنا بحزن انه لحق بالطائرة في آخر لحظة وتمنّى الوصول لمطار أثينا متأخراً دقائق قليلة. استقبله هاشمي في المطار وتبادلا الحديث في السيارة على الطريق إلى فندق بيكمان تاور حيث انزل السائق هاشمي، وتحرك باتجاه فندق فيستا. ولكن الأمر انتهى بهانز إلى موقف السيارات (مثل الثلاثة الآخرين). قامت الشرطة بتصوير عملية الاعتقال على شريط فيديو شاهدته فيما بعد: لم أر في حياتي رجلاً يبدو بهذه الدرجة من الحيرة والدهشة والاضطراب.

إلقاء القبض على تجّار الموت وسماسرته

في اليوم التالي نشرت صحيفة نيويورك تايمز تقريراً مفصلاً مع الصور عن عملية القاء القبض علينا. كان في التقرير نقطتان تسترعيان الانتباه: **الأولى**، انه كشف انه في نفس الوقت الذي احتجزنا نحن في نيويورك، تمَّ القاء القبض على سام ايفانز وأربعة اسرائيليين آخرين في برمودا. ومع ان القانون الأميركي لا يسري هناك، إلاّ ان ادارة الجمارك الأميركية أقنعت سلطات الجزيرة بأن الرجال الخمسة ذاهبون إلى هناك لاجراء صفقة تجارية مخالفة للقانون ومن الضروري ألا يسمح لهم بالدخول. رفض المسؤولون في

برمودا منح سام والآخرين تأشيرة دخول وحاولوا اعادتهم على نفس الطائرة ـ وكانت محطتها التالية، لحسن الحظ، مدينة بالتيمور في ماريلاند. عندما رفض هؤلاء ركوب الطائرة، أوقفتهم سلطات برمودا بتهمة خرق قوانين الهجرة، وبدأت اجراءات ترحيلهم.

أما النقطة الثانية المثيرة للاهتمام في تقرير نيويورك تايمز فكانت ان المدعي العام في نيويورك، رودولف جيولياني، عقد مؤتمراً صحفياً أعلن فيه بلهجة المنتصر القاء القبض علينا. كانت احدى المشكلات التي أصبحت واضحة لي خلال الفترة التي كانت القضية تجرجر أثناءها، هي ان لجيولياني طموحات سياسية، وانه لم يكن أول مدع عام يستخدم عمله كجسر لأهداف شخصية أبعد. قد لا تكون المكيدة فكرته في الأساس، ولكنه تمسّك فيها باحكام وحماس، لأن حملته ضد تجار السلاح كانت وسيلة لكسب الاهتمام والشعبية، ولذلك قاد الادعاء بإصرار حتى بعد ان جعل كشف ملابسات ايران ـ غيت من الصعب علينا جميعاً ان نفهم لماذا يستمر في القضية.

مسؤول آخر حضر المؤتمر الصحفي ذلك اليوم. إنه وليام فون راب، مفوض الجمارك، الذي استغلّ المناسبة ليصف المتهمين بعبارة لازمتنا طوال أشهر المحاكمة. قال:

> اعتقد انكم قد تكون سمعتم بتجار الموت. حسناً، إن هؤلآء الأشخاص هم سماسرة الموت. إنهم على استعداد لادارة سوق للارهاب القذر، والاتجار بكل شيء من الأسلحة التقليدية إلى بعض أنواع الأسلحة الأكثر تطوراً وتعقيداً في العالم. لقد كان الايرانيون سيستخدمون هذه الأسلحة لشن حرب على جيرانهم ولنشر الارهاب الدولي ضد الغرب الديمقراطي. ولا شك ان أصابع الارهابيين الدوليين القذرة كانت ستصل إلى زناد صواريخ «تاو» هذه، التي هي بالفعل سلاح مثالي لهذا العمل القذر.

لم أستطع ان أتعرّف إلى نفسي من خلال هذا الوصف. هرمان مولّ، مندوب اعلاني، بائع أحذية وحقائب طوارىء ولوازم أخرى لجيوش العالم الحر ـ هل أصبحت سمسار موت؟ اعتقد انها مسألة رأي، ولكنني كنت متأكداً من أمر واحد: لم أكن أعرف ما هو سوق الارهاب القذر.

* * *

من السجن إلى المثول أمام المحكمة

كان واضحاً انني بحاجة لمحام، وكذلك كوبكا. (كان ليناردوس محامية في كاليفورنيا، أما فليرموي فلم يبد اهتماماً كبيراً بالأمر). افترضت ان بإمكان رجال المافيا ان يعطوني نصيحة مناسبة في هذا المجال، وبدأنا بالبحث ولكننا قنعنا أخيراً بتوصية سجين يوناني. أعطانا اسم مكتب محاماة كان يتعامل معه في مينيولا التي تقع على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً من نيويورك على لونغ ايلاند. اتصلت فأخبروني ان اثنين من الشركاء في المكتب

سيحضرون لرؤيتنا. تسلم قضيتي أحدهما ويدعى تشارلز ثيوفان وهو رجل صغير السن والحجم مكتنز الجسم مفعم بالنشاط ويبدو سهل المعاشرة وكفوءاً.

كان أول عمل قام به، هو تقديم طلب بالافراج عنا بكفالة. وصادف في هذه الجلسة، انني استخدمت، لأول مرة في المحكمة، الحجة بأنني كنت مؤمناً ان حكومة الولايات المتحدة قد صرّحت باجراء الصفقة. وصفت لورنا سكوفيلد مساعدة المدعي العام، أقوالي بأنها مستهجنة وغير معقولة، ويبدو ان قاضية التحقيق وافقتها الرأي لأنها رفضت طلب الافراج عن أي منا بكفالة.

حضرنا أربع جلسات في المحكمة برئاسة قاضية التحقيق، قبل ان تحوّل قضيتنا إلى قاضٍ عادي. وكانت هذه الجلسات تضاعف شعوري بالاحباط والاضطراب، جزئياً بسببٍ الاجراءات المتعبة المتعلقة بنقلنا عبر مسافة بسيطة من السجن إلى مبنى المحكمة الاتحادية.

كانت هذه الاجراءات تبدأ بايقاظك من النوم في الخامسة والنصف صباحاً أي قبل الموعد بتسعين دقيقة، بغضّ النظر غن موعد الجلسة. إنهم يجبرونك على مغادرة الفراش وارتداء ثياب السجن والذهاب إلى افطار مبكّر بينما لا يزال السجناء الآخرون في فراشهم. في السادسة يأتي حارس بالمصعد لاصطحابنا، فيملأ المصعد إلى كامل حمولته ويأخذ الجميع إلى الطابق الثالث. عند خروجك من المصعد، هناك خطوط أرضية تحدد وجهة سيرك وتقودك إلى غرفة حيث تستبدل ثياب السجن بثيابك المدنية الموضوعة في كيس من البلاستيك معلق على الحائط، ثم تضع ثياب السجن في الكيس.

إن الحراس، دون استثناء، يعاملونك وكأنك نكرة: «ابقَ هنا»، «لا تتحرك»، «اقفل فمك».

- كل هذا بنفس نبرة الصوت الخاصة الفاجرة التي لاحظتها من رجال الجمارك عند اعتقالي.

على مدى شهرين ونصف، كنت مضطراً لارتداء نفس القميص الذي كنت ارتديه ليلة اعتقالي، أما القميص النظيف الذي أحضرته معي من لندن فكان محتجزاً لدى المدعي العام كدليل مادي، ولم يكن لديَّ في أميركا من يزورني ويحضر لي ألبسة نظيفة. طلبت من تشارلي ولكنه رفض، وأخيراً تمكنت من اقناع قنصل المانيا فأرسل لي واحداً.

من غرفة تغيير الثياب، يقودونك عبر ممر إلى حظيرة احتجاز، وهناك أربعة منها في الطابق الثالث - واحدة للنساء والثلاثة الأخرى للرجال. تبلغ مساحة الواحدة حوالي ٣ × ٥ أمتار وتحتوي على مصطبة من الاسمنت تمتد حول أطرافها والجدران مصبوغة بلون أزرق يبعث على الكآبة، وفي كل زنزانة نافذتان من الحديد المشبّك سماكة ضلعه حوالي خمسة سنتيمترات وزجاج النافذة من البلكسيغلاس غير القابل للكسر تبلغ سماكته حوالي

١٢ مليمتراً. كانوا عادة يحشرون حوالي ثلاثين رجلاً في هذه المساحة الضيقة، وفي الأحوال الاستثنائية قد يبلغ العدد الخمسين. وبما اننا كنا كلنا نرتدي قمصان قذرة ـ لنفس السبب ـ فإن الرائحة الكريهة كانت لا تطاق.

نصل إلى هذه الزنزانة عادة في السادسة والنصف، وتبقى هناك حتى حوالي الثامنة والربع، عندما يفتحون الباب المجاور للحجرة الزجاجية التي تحتوي على اجهزة مراقبة: كاميرات الفيديو. يقرأ الحارس عدداً من الأسماء وعندما تسمع اسمك، تخرج، مقيداً بالأصفاد إلى السجين أمامك أو ورائك.

ثم تمشي إلى الأول من بابين منزلقين من المعدن السميك، وينحشر الجميع، بمن فيهم الحارس في الفسحة بين البابين. ثم يقفل الباب الأول ويفتح الثاني مثلما يحدث للغواصة مثلاً، عندما يخرج الغوّاصون منها وهي تحت الماء. تتحرك على ممرّ ثم بضع درجات تقودك إلى الجسر المُغَطّى بين السجن ومبنى ضبّاط الشرطة الاتحادية المجاور للمحكمة. يوجد في مبنى الضباط، خمسة أو ستة زنزانات انتظار، في كل وحدة نافذة تطل على باحة داخلية للحرّاس، يضعونك في واحدة من هذه الزنزانات، حيث تجثم، مع حوالي العشرين سجيناً، منتظراً من الثامنة والربع حتى يأتي دور قضيتك، مهما طال الوقت. قد يأتي دورك بعد الظهر، وتستغرق جلسة الاستماع دقائق ـ بينما أنت مستيقظ منذ الخامسة والنصف صباحاً بانتظارها.

سمسار في زنزانة الانتظار

أما الأوضاع في زنزانة الانتظار فهي بائسة. ورق الحمامات متناثر في كل مكان، والمرحاض الوحيد موجود خلف ستار رقيق، لا يمنع الآخرين من رؤية ماذا تفعل ويجب ان تكون شجاعاً لتجبر نفسك على الجلوس على مقعده. وتحتوي الزنزانة على كاميراتي فيديو معلقتين في سقفها، يتابعها حارس في قفص زجاجي أسود.

إن وجبة الغداء هي أفضل ما يحدث هناك، لأنهم يحضرون ساندويشات من الخارج، وهذا يعني انك لست مضطراً لتناول القذارات التي يقدمونها لك في السجن. وتكون الساندويشات في العادة من سفائن طير الحبش أو سلطة الروبيان (القريدس) ـ ومع انها لا طعم لها، إلاّ ان الخبز جيد. كما تستطيع ان تتحدث مع سجناء من طوابق أخرى، وهي فرصة جيدة، لأنك تكون قد تعبت ومللت من الأشخاص الذين تخالطهم يوماً بعد يوم.

في الزنزانة، رغم ذلك، توثّقت العلاقة بيني وبين أحد رجال المافيا، الذي كان قاتلاً مأموراً ومأجوراً لدى جون غوتّي، أحد زعماء المافيا في نيويورك الذي كان اسمه يظهر في الصحف باستمرار. والذي كان قد شاركنا السجن لفترة ولكنه كان نادراً ما يتكلم. أما النزيل الثاني فكان أكثر استعداداً للكلام، وكان لنا أحاديث طويلة في ساعات انتظار دورنا

للدخول إلى المحكمة. كان يعاني من سرطان الرئة، ولكنه كان يستمتع بمشاركتي بخيالاته حول ما سيفعله حين يخرج من السجن.

وكنت أفكر لنفسي: «يا صديقي المسكين، انت في طريقك إلى ست عشرة سنة في السجن على الأقل!» ثم طرأت على بالي فكرة أخرى: «ماذا يحدث إذا لقيت أنا نفس المصير، أو أسوأ؟» كانت الفكرة تثير القشعريرة وتتلاعب بالأعصاب، ولكنها كانت تعود باستمرار إلى مخيّلتي خلال بقائي في الزنزانة.

عندما يأتي دورك أخيراً، تسير خارج «حظيرة الثيران»، عبر رواق إلى باب فولاذي آخر مفتوح يقودك إلى فسحة أخرى بين بابين. خلف الباب الثاني يقوم مأمورا شرطة اتحاديان بإعادة القيد إلى يديك، وهما هذه المرة خلف ظهرك. كنت قد أصبت عندما كنت في السادسة عشرة من عمري بحادث سيارة، سبّب تلفاً في عنقي وبنتيجة ذلك أصبح من الصعب ان أضع يدي وراء ظهري - ولكن رجال الشرطة لا يبالون.

يأخذونك بعد ذلك إلى الطابق الرابع ثم إلى قاعة المحكمة. عند انتهاء الجلسة يمنحونك دقيقة واحدة للتحدث مع محاميك، ثم تعود الاصفاد ثانية ويعودون بك على نفس الطريق إلى مكتب مأمور الشرطة، ثم يحتجزونك في حظيرة الثيران، إلى ان يتجمع عدد كافٍ لرحلة العودة. وقد تطول هذه الفترة إلى ساعة أو ساعتين لأنهم ينتظرون تجمع تسعة أو عشرة رجال.

إن طريق العودة إلى السجن، هي نفسها ولكن بصورة معكوسة. عند وصولك يحتجزونك مرة ثانية في الزنزانة قبل ان تبدل ملابسك القذرة بثياب السجن. بعدها قد يحدث تأخير لواحد من أمرين: **الأول**، إذا كانت هناك عملية انتقال جارية، يعني ان واحداً أو أكثر من السجناء الخاصين يتمّ نقلهم في هذا الوقت من الطابق الثالث، وهؤلاء السجناء مخبرون حكوميون أحضرلوا ليدلوا بمعلومات مقابل معاملة أفضل أو يجري نقلهم إلى طوابق أخرى للتنصّت واستراق السمع على أحاديث السجناء الآخرين. ومن الطبيعي ان تحاول السلطات اخفاء هوية هذه «العصافير» عن باقي السجناء ولهذا تقوم بنقلهم في سرّية تامة، ولذلك تُغلق الستائر وتتوقف الحركة في الطابق الثالث حتى يصبحوا بمنأى عن الأنظار.

أما السبب الآخر الممكن للتأخير فهو عندما يجافيك الحظ، تصل في موعد التعداد، وفي هذه الحالة تبقى في زنزانة الحجز حتى الانتهاء منه. إنهم يقومون بالتعداد مرتين في اليوم ليتأكدوا من ان أحداً لم يهرب. يجري تعداد بعد الظهر في الساعة الرابعة، مما يعني انهم يبدأون في الثالثة، ولما لم يكن أمّار السجن بتلك المقدرة الحسابية، فقد يضطرون آعادة التعداد مرتين أو ثلاث مرات قبل التأكد من صحّة العدد.

عند الانتهاء من التعداد، يدعونك ويفتحون الباب فتعود إلى غرفة تبديل الملابس

هناك تخلع ثيابك الخاصة وتضعها في الكيس، عندها يدخل الحارس ويأمرك بالوقوف عارياً. في أول مرة حدث هذا معي، صرخ الحارس بصوت كالعواء، مستخدماً تعابير أميركية قذرة لم أفهم منها شيئاً، فسبّني وهو يشرح لي بأنه يريد تفتيشي. وبعد ان اقتنع ان ما يبحث عنه ليس موجوداً في المواضع التي فتشها، سمح لي بارتداء ثياب السجن البرتقالية واستلم ثيابي الأخرى.

الغريب في الأمر، شعورك بالارتياح عندما تعود إلى الطابق الذي تسكن فيه وكأنك عائد إلى منزلك. لأنك عندما تذهب إلى قاعدة المحكمة فلا يوجد شيء تفعله أبداً. حتى انك لا تستطيع تسلية نفسك بمحاولة اقناعها بأن القاضي او المحقق قد يطلق سراحك، انت تعرف انهما لن يفعلا هذا الشيء، مع انك في محاولاتك المحافظة على عقلك كي لا تصاب بالجنون، قد تدع آمالك تشتد قليلاً وتنتعش بعض الشيء.

هواجس شخصيّة في الزنزانة

نوا - البيت وفكرة الهرب

أما في زنزانتك، فتستطيع على الأقل الجلوس والقراءة أو تستخدم سماعاتك الخاصة للاستماع إلى بعض الموسيقى. لا يوجد قانون يمنع القراة في 'حظيرة الثيران'، ولكنها ليست سهلة مع كل هؤلاء الناس يتحركون حولك ويعلو حديثهم - وبأي حال، من المحتمل ألا يُسمح لك بإعادة الكتاب معك. إنك تواجه أثناء انتظارك في زنزانة المأمور الاتحادي ضغطاً نفسياً كبيراً ومجهداً، دون ان يكون لديك شي تفعله. إنني لا استطيع ان أفهم كيف يفترض بانسان ان يحتفظ بسلامة تفكيره وبالقدرة على الدفاع عن نفسه في المحكمة، إذا طالت قضيته، وبالأخص إذا لم يستطع الخروج بكفالة.

بعيداً عن بلواي الشخصية، كان هناك أمران يقلقانني: نْوا وأعمالي. كانت نْوا تعيش لوحدها في بيتنا في ميلّ هيلّر في شمالي لندن كنت أستطيع ان اتصل بها هاتفياً وأعكس رسوم المكالمة لأنني كنت قد حوّلت لها نقوداً من حسابي. اتصلت بها عدة مرات كل اسبوع، وأصبت بوساوس غير طبيعية عندما لم أتلق رداً. كنت أخشى ان يعني هذا انها خرجت برفقة رجل آخر وبأنني سأخسرها - وفي الوقت اكتشفت كم كنت أريدها ان تبقى معي، وبالتالي ان تصبح زوجتي متى صار ذلك ممكناً.

ولكن موضوع البيت كان يسبب لي قلقاً أكبر من ناحية واقعية: إذ كنت استخدمته، قبل فترة قصيرة من مجيئي إلى نيويورك، كضمان في الصفقة المتعلقة بطائرتي البفالو للسودان. والآن، وأنا محتجز بعيداً، كان هناك احتمال قوي بأن تُلغى الصفقة، وأخسر البيت بالاضافة إلى كل شيء آخر.

لم أكن أثق بشريكي جون سوندرز أبداً - أمر غريزي ظهر ما يبرره بصورة جازمة، كانت هناك عدة صفقات «على النار»، بالاضافة إلى صفقة طائرتي البفالو، وكلها بحاجة

ماسة للمتابعة إذا كانت هناك رغبة في انجازها، وبالأخص تلك المتعلقة بصواريخ ميلان، والتي كان يفترض ان أبرمها في البرتغال في اليوم الذي تلى اعتقالي. كنت بحاجة للوصول إلى مكتب وجهاز هاتف غير مراقب، ولكن قاضي التحقيق رفض ان يخرج أيّاً منّا بكفالة لأن المحققة ادّعت بأن هناك احتمالاً بأن تهرب من أميركا. (في حالتي، يجب ان أعترف، كانت محقّة بالفعل).

اقترح تشارلي ثيو فان على قاضي التحقيق، بأن يسمح لي ولكوبكا بالخروج من السجن بين الحادية عشرة صباحاً والسادسة مساء، مرتين في الاسبوع برعايته وكفالته، لاستخدام الهاتف في مكتبه في لونغ ايلاند. في البداية قالت لورنا سكوفيلد، ان الادعاء لا يعترض على الأمر ولكن قرارها أبطل من قبل جيولياني أو واحد آخر من رؤسائها الذين لم يوافقوا على الاقتراح. وعلى سبيل الترفيه أمّنوا لي طاولة في مكتب المدعي العام، واعتقد انهم كانوا يأملون بمراقبة مكالماتي الهاتفية علّهم يكتشفون بعض الأمور التي تدينني. ولكن الواضح ان أملهم خاب لأنه سمح لي باستخدام هذه التسهيلات مرتين فقط قبل ان يحتج البعض على ان الأمر يسبب اشكالات كبيرة لهم، فألغى القاضي الاتحادي ساند، الذي كان في هذا الوقت قد تسلم القضية من قاضي التحقيق هذه الميزات.

الرتابة والروتين اليومي

لم تكن الرتابة في حياة السجن تناسبني، وأسوأ ما فيها الطعام. عندما لم نكن على موعد في المحكمة، كان الحراس يوقظوننا في حوالي السابعة صباحاً ونذهب لتناول الافطار. كان الطعام كله يأتي مجمداً ثم يسخّن بواسطة أفران الميكروويف: لم يكن المكان مطبخاً بقدر ما كان مركز تسخين. كان العاملون فيه يقفون عند الباب ويعطوننا صحوناً، ثم نقوم نحن بخدمة أنفسنا. البيض المخفوق نموذج الافطار المطبوخ، وكان هذا الطبق يحضر من بودرة البيض، وفي الحالات التي يتوفر بيض طازج كانوا يطحنون بعض القشرة معه لاعتقادهم بأنه غذاء منشط، ومع البيض كانوا يقدمون أحياناً البطاطا المهروسة ـ لما كانت البطاطا تهرس مع قشرتها، يمكنك ان تتخيل منظرها عندئذٍ.

أحياناً كانوا يقدمون شرائح من اللحم المدخّن ـ أو على الأقل كان هذا ما يسمونه. ولكنه كان بالفعل كتلة من الدهن. مع الباكون، كنا نحصل أحياناً على ما يسميه الأميركيون «نقانق الافطار»، ولكنه كان يبدو كشرائح من قرحة انسان آخر. فوق هذا الأكل المطهي، كانوا يضعون في صحنك، وعاء حليب وعلبة كورن فلايك (خبز الذرة). وكانت هذه الطريقة المدروسة بعناية تضمن ان يتلوّث الحليب وعلبة الكورن بالبطاطا المهروسة.

كانت استراتيجيتي العادية، ان آخذ الحليب والكورن من الصحن، وأنظفهما من البطاطا، ثم أرمي بالأكل المطبوخ في سلة النفايات. ذات صباح وبينما كنت أرمي قطعة من

«نقانق الافطار» في السلة، امتدت يد سوداء من خلفي والتقطتها. وسألني زميلي في السجن: «كيف يمكنك ان تفعل ذلك؟» ثم أكلها دون حساب للطعم.

عشت الثلاثة أشهر الأولى على الحليب والكورن فلايك بشكل رئيسي، فخسرت حوالي عشرين كيلوغراماً من وزني. بعد تلك الحادثة قرب سلة النفايات، صرت أستبدل طعامي المطبوخ بالحليب والكورن فلايك من زملائي السود، ولكنني كنت أحس بالجوع بصورة دائمة.

كان لي، رغم كل شيء تجربة تستحق الذكر في المطبخ، ضربت صحبة رجل يعمل هناك: كان يبدو رجلاً قوياً مع جسم رياضي وأذنين كبيرتين وأنف مكسور. ظننت أولاً انه ملاكم، ولكنني اكتشفت لدهشتي انه كاتب ولكنه يهتم برياضة بناء الأجسام في أوقات فراغه. كان الرجل يدعى ريتشارد ستراتون، وكان صديقاً لنورمان مايلر الذي حضر لزيارتي. كان في الستينات والسبعينات يحرر مجلة خاصة به وتبنى في سياستها، المطالب بأن لا يعتبر تعاطي بعض أنواع المخدّرات مثل الماريجوانا عملاً يعاقب عليه القانون. وكان قد أوقف بتهمة استيراد ٥٠ طناً من الحشيشة. اعتدت أن أتحدث إليه عن فضائح سياسة اميركا الخارجية وبالأخص فيما يتعلق بإيران ونيكاراغوا. كان لديَّ الوقت الكافي لأفكر في كل هذه الأمور، بالرغم من ان تجربتي الخاصة كانت تصبغ أفكاري بوضوح. استنتجت ان ادارة ريغان «مكونة من أفراد كالحيوانات ليست لديهم أية فكرة عما يفعلون، مثل مجموعة من الثيران داخل متجر للأدوات الخزفية. باستطاعة أية حكومة تابعة لأميركا ان تنجو بأي عمل تقوم به ـ مثل الفيليبين وهايتي. كان بإمكانهم ان يقتلوا، ويعذبوا ويقوموا بأي عمل آخر ما داموا تابعين لأميركا. وكل من هو ضد أميركا فهو ارهابي. أما بالنسبة للرئيس، هنا نجد رجلاً في أقوى مركز في العالم وهو ليس سياسياً في الأساس بل ممثل سينمائي من الدرجة الثالثة».

«العبودية» في نظام السجن

تحدثت لريتشي ستراتون عن نظام السجن أيضاً، وكنت قد فكرت في وقت ما، بتأليف كتاب حول الموضوع أدعوه: «العبودية الحديثة»، لأن هذا فعلاً ما كان يتمخض عنه الموضوع كله. أين، في أي مكان آخر، تجد مَن يقوم بعمل شاق مقابل ١٠ سنتات للساعة الواحدة: هذا هو معدل الأجر الذي تتلقاه إذا تطوعت للقيام ببعض الأعمال داخل السجن. الميزة الطفيفة الوحيدة للعمل، هي انهم يفتحون باب زنزانتك باكراً وتستطيع ان تتناول افطارك قبل الآخرين، ولكنني رفضت القيام بأي عمل.

كان العمل مع فريق التنظيفات هو العمل الوحيد المتوفر، وأصبح لاري فليرموي مهووساً به. كان تأثير السجن عليه، أسوأ من تأثيره على أي منا: كنت أراه يتمزق أمامي مع مرور الأيام، ولا شك انه وجد في أعمال التنظيف فائدة كعلاج. عمل برفقة رجل

يوناني يواجه حكماً بالسجن من خمس سنوات إلى المؤبد لعمله في المخدرات والقمار. كان الحديث الوحيد الذي سمعتهما يتبادلانه: كيف يمكنهما جعل أرضية السجن تلمع أكثر، وكان الأمر يضايقني كثيراً. صرخت بهما ان يستعملا «فرشاتيَ» أسنانهما لتلميع الأرض، وعندما سألني لاري لماذا لا أساعده، أجبته: «ـ لاري، انني لست على استعداد لتحريك اصبع واحد في سبيل أبناء الزنى هؤلاء. انني لا أخالف القانون ولكنني لن أقوم بأي جهد لمساعدتهم. إذا كانوا يتوقعون مني ان أقوم بتنظيف المكان فهم واهمون». ولكن فليرموي لم يفهمني.

ترك ريتشي ستراتون عمله في المطبخ بعد فترة، فاستلمه رجال المافيا. كانوا محتجزين بانتظار المحاكمة في قضية تعرف في نيويورك «بعملية البيتزا»، إذا كان الادّعاء يتهمهم ببيع المخدرات في مطاعم البيتزا. لم يتحسن الطعام بعد تسلّم المافيا، في الواقع كان التغيير الوحيد هو رؤية هؤلاء الايطاليين، يسرعون إلى غرفهم وهم يحملون صناديق كبيرة من الطعام.

كانت القهوة التي نشربها خالية من الكافايين ـ وكنا ندعوها «حساء الجوارب المغليّة». ولكن كنا نتلقى من حين لآخر فيما نعتبره مناسبة هامّة، بعض الشوكولاته، وكنا نستغرب لأن الكمية لم تكن أبداً تكفي، حتى دخل أحدنا إلى غرفة واحد من جماعة «عملية البيتزا» واكتشف ٣٠٠ كيس شوكولاته هناك. كنت قد لاحظت ان وزن الرجل يزداد ـ بحوالي العشرين كيلوغراماً التي خسرتها أنا.

كنا نمضي الوقت بمشاهدة التلفزيون، أو نلعب كرة الطاولة، أو الورق أو «المونوبولي». في البداية لعبت الورق والدومينو معظم الوقت مع نيكوس، ولكنه صار مع الوقت يثير أعصابي بالرغم من مرحه. كان يريد ان يكون محور الاهتمام والنشاط دائماً. وكان يعود بعد كل لقاء أو اتصال مع محاميه ليعلن: «يا شباب، أخبار جميلة . . . اننا سنخرج من هنا خلال أيام». واستمر هذا شهراً بعد شهر. وفي الأحيان التي كان يظهر ان توقعاته لن تتحقّق، كان نيكوس يصاب بالاكتئاب. كان، عندما دخل السجن، رجلاً سميناً ضخماً، ولكنك كنت تكاد بالفعل تراه يتلاشى، وتحوّل مرحه ونشاطه إلى كآبة واحباط. كانوا في السجن قد جرّدوه من حزامه، وخسر من وزنه لدرجة انه كان يضطر لربط سراويله بخيط عندما يذهب إلى المحكمة.

لاحقاً، التقيت بثلاثة باكستانيين من الطبقة العليا في طابقنا. كانوا على قدر كبير من الثقافة، واحتجزوا بتهمة تهريب المخدرات. كانوا يعرفون لعبة البريدج فصرت رابعهم. كما كنت أمضي بعض الوقت مع رجل من النمسا يدعى رابلباور، وهو انسان معروف في أوساط أوروبا. وكان في هذه الأثناء يدافع ضد محاولات استعادته إلى النمسا حيث يواجه اتهامات بالرشوة والتهرب من دفع الضرائب. لم أكن أذهب إلى زنزانته، لأنه كان من غير المدخنين المتعصّبين، ولكنه كان كثيراً ما يأتي إلى زنزانتي فنجلس معاً ونتبادل الحديث.

كانت كثير من قصص المتهمين، بأمور تتعلق بالمخدرات، تتحدث عن عمليات نصب مكائد، مثلما حدث معي. روى أحدهم انه صادق أميركياً في باكستان. وقدم إلى أميركا برفقته بعد أن وعده الأميركي بمساعدته في إيجاد عمل، ولكنه دسّ له الكوكايين في حقيبته قبل هبوط الطائرة بقليل. وأخبرني آخر بأن امرأة كان يساكنها أوقعت به، وظهر فيما بعد انها تعمل مع منظمة مكافحة المخدرات الأميركية.

قابلت في السجن أشخاصاً غريبي الأطوار، أثناء وجودهم معنا. أحدهم سَرَق ٣ ملايين دولار من أحد المصارف بالاحتيال بواسطة الكمبيوتر، ولم يعرف أحد بالأمر إلاّ عندما أعاد المبلغ فأُلقي القبض عليه. في وقت من الأوقات كان معنا حوالي خمسين عضواً من عصابة صينية للابتزاز والاحتيال. وفي أحد الأيام فوجئنا بدخول كامل طاقم بحارة باخرة نيجيرية ـ المخدرات مرة أخرى. كان معنا كثيرون من نيجيريا وكولومبيا بتهم تتعلق بالمخدرات.

كنا نمارس الرياضة في قاعة التمارين كما كان مسموحاً لنا ان نصعد إلى سطح المبنى لبعض الوقت. كنت أستمتع بهذه الفرص لاستنشاق الهواء النقي (إذا كانت هذه الكلمة الصحيحة في وصف الهواء في مانهاتن السفلى) واجراء التمارين للمحافظة على سلامة جسدي. وكانت الأمسيات تقاطع بإغلاق زنزاناتنا علينا بين التاسعة والتاسعة والنصف ثم يُعاد فتحها حتى الحادية عشرة حين تغلق مرة أخرى حتى الصباح.

كان السجن مخصصاً للرجال الذين لم تتم محاكمتهم أو إدانتهم بعد، وينتظرون الانتقال إلى سجون أخرى. والحرّاس يدعونه «المخزن»، وقامت خطتي على مجرّد محاولة لتفادي المشاكل. كان لديَّ الكثير لأخسره بالمخاطرة في البقاء في السجن وقتاً أطول مما يجب.

أمضيت قسماً كبيراً من وقتي في القراءة، وكان تشارلي يحضر لي كتباً تتعلق بأسماك المنطقة الاستوائية وبأحواض الأسماك والنباتات البحرية (اكواريوم) وكانت هذه هوايتي الرئيسية. واحد من الكتب الأخرى كان عن قضية أبسكام، وهي مكيدة مشهورة نصبتها الحكومة شبيهة في بعض ملامحها بالمكيدة التي أوقعت بي. ولكن الأشخاص، الذين أوقع بهم في تلك القضية، كانوا مسؤولين حكوميين اعتادوا تلقي الرشاوى. إنني لا أعرف بلداً آخر يسمح لرجال القانون بجرّ أشخاص فعلاً، لارتكاب أعمال مخالفة للقانون. إنهم يصرفون ألوف، وربما ملايين الدولارات لخلق جرائم ومؤامرات لم تكن لتحدث لولاهم، والسبب الرئيسي هو اظهار المدعي العام بمظهر جيد ودعم مستقبله السياسي دون النظر إلى ما يعاني في سبيل ذلك. إن أميركا بلد غريب وخالٍ من الشفقة.

كتابة اليوميّات في السجن

بعد مرور شهر على وجودي في السجن بدأت أصبح تعيساً جداً، فحاولت ان اتخلّص من كآبتي وشعوري بالاحباط، بأن أكتب يومياتي. كنت أكتب ما أحسّه فعلاً. لو اكتشف الحراس هذه اليوميات كانوا صادروها. ولكنهم لم يعرفوا بأمرها ولا أزال أحتفظ بها مكتوبة بقلم حبر جاف، (كان تشارلي يأتيني بالأقلام) على ورق رسائل مسطّر. إنني أحس ببعض الاحراج عند قراءتها الآن وقد خرجت من السجن منذ أشهر، ولكنها تظهر بالفعل، كيف تبدو الأمور التافهة بالغة الأهية بطريقة لا تتناسب مع المنطق، عندما تكون محتجزاً في زنزانة والملل يتآكلك. تبدو أعصابك مشدودة طوال الوقت، وعواطفك مرهفة أكثر مما لو كنت تعيش حياة ملأى بالعمل والمتعة ودون ان يكون هناك من يرصد حركاتك أربعاً وعشرين ساعة يومياً. إن نبرة اليوميات حادّة ومليئة بالمرارة والاحتجاجات على الاوضاع التي كنت أعيشها. ولكن كان لديّ في ذلك الوقت الكثير مما أحتج عليه.

تبدأ اليوميات يوم الاربعاء في ٢١ أيار. أسجل فيها انني قرأت في الصحف عن سفير سابق لأميركا لدى الفاتيكان، وهو صديق شخصي للرئيس ريغان، اكتشف يبيع السلاح من ليبيا. ولكنه، بسبب صلاته، لم يقدم للمحكمة: أحيل لتقاعد مبكّر فقط.

«مثال نموذجي» كتبت، «إنني بكراهية وغضب أكبر». وأضفت لاحقاً: «إن في كتابة هذه الأوراق مخاطرة ـ فالشقيق الأكبر = Big Brother كما في رواية جورج اورويل **١٩٨٤**. لن يحبّها ـ ولكنني مضطر لركوب المخاطرة، لأنني أريد للناس ان يعرفوا ماذا يحدث هنا، في أميركا، ولأساعد في منع حدوث الشيء نفسه في أوروبا. إن عالماً كهذا، غير جدير بأن تعيش فيه».

كنت على موعد للمثول أمام المحكمة في اليوم التالي فكتبت: «إنني أتوق لقيمص نظيفة غداً [لم أحصل عليها]، إنني آمل ان يُحضر المحامي ساعتي [أخذوها مني عند توقيفي] وآمل ان يكون القاضي قد اطلع على أوراق قضيتنا، ففي آخر مرة لم يكن يعرف شيئاً عن القضية، ولا حتى بوجود آخرين في برمودا. هل ستتم استعادتهم؟»

الجلسة الأولى في المحكمة

كانت الجلسة في ٢٢ أيار نموذجاً لكثير من الجلسات التي تحملتها خلال فترة الأشهر السبعة التي قضيتها في السجن. قاعة المحكمة رقم ١ في مبنى المحكمة الاتحادية، غرفة كبيرة مهيبة، مصممة بالغالب لبث الرهبة في قلوب السجناء والنظارة على حد سواء على انها تمثل عظمة القانون. تبلغ أطوالها حوالي ٢٥ × ١٥ متراً ويرتفع سقفها حوالي عشرة أمتار، مزينة بنقوش مستطيلة بارزة. بُنيت في الثلاثينات ولكن بطراز هو تشويه للكلاسيكي، وكانت جدرانها مغطاة بألواح خشبية وبرخام أسود مع أربعة أضواء كبيرة تتدلى من السقف. وكان شعار الولايات المتحدة معلّق على الحائط خلف الطاولة، على ارتفاع حوالي

أربعة أمتار فوق المكان الذي يجلس فيه القاضي، ويبدو ضائعاً إزاء هذه الخلفية الكبيرة، وإلى يساره سارية عَلَم على رأسها نسر يحمل العلم الأميركي.

كان القاضي ساند، في الستينات من عمره، نحيفاً ويرتدي حتى في الشتاء بدلة خفيفة تبدو وكأنه نام وهو يرتديها. لم يبد عليه مرة انه مهتم بقضيتنا، ولكنني افترضت ان كل القضاة يصبحون كذلك مع الوقت. كان أحياناً يختم الجلسة بينما يكون محامي الدفاع في وسط مرافعته، وفي مرة، راح يغطّ في سبات عميق.

كان المتهمون يقفون إلى يسار القاضي، وأمام منصته يوجد طاولة يستخدمها مسؤولو المحكمة. والمحامون يجلسون أمامها وخلفهم الجمهور يفصله عنهم حاجز خشبي قليل الارتفاع. من بين الأربعة منا الذين كانوا في المحكمة ذلك اليوم، نيكوس وحده كان لديه أقارب لتشجيعه ـ حضرت زوجته وابنته وولداه من الساحل الغربي، فسار عبر الغرفة لتحيتهم ولكن ضباط المحكمة منعوه من الاقتراب كثيراً منهم.

كانت الجلسة هذه مخصصة لبحث موعد المحاكمة الكاملة، أعلنت لورنا سكوفيلد، أن لدى الادعاء ٢٠٠ شريط مسجّلاً ويحتاج إلى وقت أطول لنقلهم كتابة. كانوا يتحدثون عن موعد في الخريف، ولكن المحامين قالوا إن هذا الوقت طويل جداً وحاولوا الضغط للاتفاق على موعد في أوائل آب. حتى هذا الوقت بدا بعيداً. عشرة أسابيع أخرى ـ وفي هذا الوقت كان الشهر الذي أمضيته يبدو دهراً.

لم يعلن القاضي قراره، كما كان يفعل في كل مراحل القضية. ثم بدأ محامي نيكوس بعرض التماسه لإخراج موكله بكفالة، فقال ان عائلة نيكوس، وأكثرهم حاضرون الآن، مستعدة لتقديم ما أمكنهم لتأمين الكفالة. اشتد انفعال المحامي أثناء مرافعته، فبكى وصرخ قائلاً: «انظروا ماذا تفعلون للأبرياء باسم حكومة الولايات المتحدة». ولكن الادعاء أشار إلى ان نيكوس كان يسافر كثيراً وان لديه موارد عدة ولا شيء يؤكد انه لن يهرب. بدا القاضي غير أكيد عما يجب عمله وفي الأخير طلب من الطرفين تقديم مذكرات بالموضوع، حتى يكون لديه شيء مكتوب، وترك القاعة لتناول غدائه.

مرة أخرى في غرفة تبديل الملابس جرت ملاسنة بيني وبين الحارس. كنت قد بدأت بارتداء ثياب السجن قبل ان يصل، فصرخ قائلاً: «هل ترتدي ثيابك عادة دون وجود حارس؟»

«بالطبع»، أجبته، «فليس هناك حراس يراقبونني وأنا أرتدي ثيابي في البيت». وأحس بالسخرية في كلامي وكأنني أهاجمه باعتباره أسود البشرة، فأمرني بخلع ثيابي مرة أخرى. فعلت ذلك ووقفت منتظراً لدقيقة أو دقيقتين وليس على جسمي سوى ثيابي الداخلية. فسألني: «لماذا لا ترتدي ثيابك؟»

«لأنك لم تخبرني بأن أفعل ذلك».

كان تصرّفي سخيفاً، مجرد لمحة تحدٍّ صغيرة وليس تصرف رجل ناضج، ولكنها الطريقة التي يستفزّك فيها وجودك في ذلك المكان: إن هذه المزعجات الصغيرة تقتات من عقلك، إذ لا شيء آخر لديك لتفكر به، وتسيطر الرتابة على حياتك. هذا هو باعتقادي ما يعنون بكلمة: Hectic fever، أو ما يدعوه الأميركيون: **حمى الحركة**.

في غرفتي، زارني تشارلي ثيوفان. وصل بينما كان الحلّاق يقصّ شعري، وأخبرني بأن الوقت لا يزال مبكراً لمعرفة ردة فعل القاضي على طلب الافراج بكفالة، ولكنه متأكد من ان شيئاً لن يحدث قبل ثلاثة أسابيع على الأقل. وأصبت بالذهول والذعر. إن فكرة قضاء ثلاثة أسابيع أخرى في السجن، كانت محبطة إلى درجة تتجاوز المعقول، وإذا حكم القاضي بردّ طلب الافراج عني بكفالة، فقد تمتد الأسابيع الثلاثة إلى ثلاثة أشهر. وكان الكثير يعتمد على سرعة اتخاذ المحكمة في برمودا قرارها حول إذا ما كانت ستوافق على تسليم سام ايفانز والآخرين إلى السلطات الأميركية. كنا نقرأ صحيفة **نيويورك تايمز** يومياً وبدقة لمعرفة أخبار سام، ولكن الصحيفة لم تكن تحتوي على شيء. كانت صحف الصباح تصلنا في الخامسة والنصف مساء، ٦ صحف لمئة سجين في الطابق، وكنا نتسابق للحصول على أحد الأعداد.

لم أكن أعتقد ان باستطاعتي تحمل ثلاثة أشهر أخرى. كنت افتقد نْوا أكثر مما كنت أعتقد، وفي ذلك المساء، عندما حاولت الاتصال بها، تبيّن ان خطوط الهاتف لا تعمل! وتساءلت عما إذا كانوا يتقصدون ذلك.

يظهر من يومياتي، ان احداث ذلك النهار قد أدت بي إلى وضع نفسي مثير:

«إنهم يجعلونك تحس بأنك لا شيء، حتى تصل إلى المحاكمة بعد أشهر من الاذلال وقد تحطمت معنوياتك كلياً. حسناً، باستطاعتهم محاولة ذلك معي، ولكنني سأعمل على ألّا ينجحوا. حبي لـ نْوا وحقدي على هذا النظام سيساعداني في الاحتفاظ بكرامتي. كبريائي أقوى بكثير من محاولاتهم. عندما قفزت لأول مرة بالمظلّة قلت لنفسي، وأنا انتظر دوري في طائرة صغيرة لا باب لها، بأنني لن أظهر ضعفاً كما فعل الذين قفزوا قبلي، بل سأقفز بشجاعة. إن الأمر يتكرر هنا، ولكنني في النهاية سأجعلهم يدفعون مقابل كل يوم سرقوه من حياتي، مقابل كل دمعة ذرفتها نْوا. سأجل أبناء الزنى هؤلاء يدفعون الثمن. إن لدي الوقت الكافي لأفكر في طرق تجعلهم يدفعون».

كان الوقت هو الشيء الوحيد المتوفر بكثرة لديَّ. كنت أجلس في زنزانتي بعض هذا الوقت، أنظر عبر النافذة الصغيرة المشبّكة بالحديد، وكان باستطاعتي رؤية الناس يتجهون نحو الحي الصيني لتناول الطعام ـ طعام حقيقي وليس كالقاذورات التي يقدّمونها لنا هنا. أسوأ اللحظات كانت عندما تمرّ طائرة فوق رأسي متجهة إلى الشرق. كم كنت أشتهي أن أكون على متنها عائداً إلى نْوا. كنت أفكر في لندن كثيراً، في التسوّق مع نْوا في شارع كينغز

رود، في السير في حديقة هايدبارك وتناول أكواب البيرة في الحانات. كنا قد اتفقنا على ان يزورنا أهلي في حزيران وعلى ان نقوم وإياهم بجولة في اسكوتلاندا، وكنت أتساءل كيف كان وقع خبر اعتقالي عليهم، وكيف استطاعوا ان يفسّروا الأمر لاصدقائهم عندما يقرأون عن الموضوع في الصحف.

في اليوم التالي أصلحت خطوط الهاتف، وتمكنت من مكالمة نْوا التي سألتني عن الوقت الذي أتوقع ان أقضيه قبل ان أتمكن من العودة إلى بريطانيا. فأخبرتها انه قد يكون ثلاثة أسابيع، وقد يكون أربعة أشهر. كنت أظن ان احتمال البقاء أربعة أشهر كان من باب التفاؤل. لو عرفت ان المدة ستكون ضعف ذلك، لأصابني يأس كامل.

سام ينضم إلى القافلة - بصحبة «بارعام»
التئام الشمل دون معرفة

بعد اسبوع، في ٢٩ أيار، خرجت من غرفتي بعد احتجاز الساعة التاسعة مساء (كما أشرت سابقاً)، فرأيت الباب الكبير يفتح لاستقبال القادمين الجدد إلى الطابق. كان أحدهم رجلاً طويلاً رشيقاً، ولكن هيأته كانت بالطبع أكثر تشوشاً مما عندما رأيته آخر مرة مع انه لا يزال يحتفظ بطلّته الارستقراطية حتى وهو بلباس السجن البرتقالي. كان سام ايفانز قد خسر معركته ضد طلب استرداده من برمودا وأحضر للانضمام الينا مع أربعة آخرين أُلقي القبض عليهم منذ خمسة أسابيع.

تقدمت من سام لأسلم عليه، فعرّفني برفاقه الآخرين. ومن بينهم ابراهام بارعام وهو جنرال اسرائيلي متقاعد ولكنه لا يزال على قائمة الاحتياط ويعمل مستشاراً لقائد المنطقة الشمالية. كان بارعام أشد المجموعة ابتعاداً عن الناس، وبقي منفرداً بنفسه طوال وجوده في السجن. وكان وجوده بين الذين أُلقي القبض عليهم في برمودا، قد أثار تكهنات صحفية بأن الحكومة الاسرائيلية متورطة بالعملية، الأمر الذي جوبه بالنفي في القدس، ورفض بارعام ان يقول بالتحديد ما هي الحقيقة، مع انه ألمح مرة أو مرتين ان قصته، لو اختار ان يرويها، ستسبب احراجاً للكثيرين.

إثنان آخران من المجموعة الاسرائيلية كانا، اسرائيل ايزنبرغ، وهو مندوب مبيعات وابنه غوري، أما الأخير فكان وليام نورثروب، وهو أميركي يعيش في اسرائيل وادعى انه من عائلة نورثروب الشهيرة التي تملك شركة نورثروب لصناعة الطائرات. كانت كلماته الأولى لي: «هل لديك سجائر؟» وأصبحت هذه لازمة يردّدها كلما التقينا. وكنت قد قررت من اللحظة الأولى انني لا أطيقه.

كان اليوم التالي، الفرصة الأولى لاجتماع كل المشاركين في المؤامرة المزعومة. بدا الأمر وكأنه عودة التئام الشمل مع ان معظمنا لم يكن قد رأى الآخرين في حياته. سام كان

الوحيد الذي يعرف الجميع، أما نيكوس الذي جرّ الاسرائيليين إلى الصفقة فكان يعرف أكثرهم. استاء سام والاسرائيليون جداً من المعاملة التي لقوها في برمودا، وقالوا انهم كانوا يحتجزون ثلاثاً وعشرين ساعة يومياً، خمستهم في زنزانة واحدة، وكان المرحاض خارج الزنزانة. كان الطعام سيّئاً للغاية مع انهم أقروا لاحقاً بأنه لم يكن بسوء ما يقدم في المركز الاصلاحي.

كان لي حديث طويل مع سام ذلك اليوم حول القضية. جلسنا سوية لمدة ساعتين. من تلك المحادثة، ومن قراءة وثائق المحكمة فيما بعد، ومن أحاديثي مع بعض الأشخاص المتورطين في القضية، استطعت ان أجمّع خيوط الحقيقة حول الجانب الاسرائيلي من صفقات هاشمي.

الدور الاسرائيلي في الفضيحة

كان سام يفاوضهم في خط موازٍ لمفاوضاته معي ومع التجار الآخرين الذين اتخذوا من لندن مقراً لهم. وقد بدأت هذه المفاوضات مع بداية علاقته الوثيقة بهاشمي في تشرين الأول ١٩٨٥ ـ بتاريخ قريب من اتصاله بي لأول مرة. كان اتصاله الأول في اسرائيل مع اسرائيل ايزنبرغ وابنه، وكان نيكوس قد عرّفه بهما. كان ايزنبرغ وابنه يملكان شركة تدعى «بازيليت الدولية للتجارة». عندما أوصلهما سام إلى هاشمي، أخبراه ان باستطاعتهما تأمين طائرات مقاتلة وطائرات شحن ودبابات وصواريخ من صنع اميركا بما قيمته حوالي ٤٠٠ مليون دولار، بالاضافة إلى شهادة اثبات هوية المشتري. واعترف سام بأن شكوكاً كانت دائماً تساوره حول قدرتهم على الوصول إلى هذه الكميات الكبيرة من الأسلحة. ولكنه كان متأكداً انه في حالة صحة ادعائهم، فبالامكان تصدير هذه الأسلحة من اسرائيل دون معرفة الاميركيين أو موافقتهم، ولهذا لن يكون هناك حاجة لشهادة إثبات هوية المشتري، ولكنه كان يشك بأن ايزنبرغ وابنه حصلا على تفاصيل عن هذه الاسلحة من قائمة يعدّها سلاح الطيران الاسرائيلي بالاسلحة الزائدة لديه.

لم يستطع هاشمي ان يعطي المجموعة الاسرائيلية اثباتاً على وجود التمويل أفضل مما أعطاني، وكانت ردة فعلهم مشابهة لردة فعلي من عدم الاقتناع، مع ان سام لم يكن لديه أية شكوك شخصية بأن المال موجود فعلاً في مصرف كميكال. في كانون الثاني، ذهب سام ونيكوس إلى نيويورك لبحث الصفقة مع هاشمي، الذي عرّفهما إلى رجل ادّعى انه عضو في بعثة ايران لدى الأمم المتحدة وبأنه شريك في التوقيع لدى مصرف «كميكال بنك». في الحقيقة كان الرجل شخصية غريبة. اسمه هو شانغ لافي وكان سابقاً واحداً من الذين زوّدوا شاه ايران بالأسلحة الأميركية، كما كان عميلاً لوكالات حكومية اميركية تتضمن وكالة المخابرات المركزية وإدارة الجمارك، منذ عام ١٩٧٨.

كان لافي قد أدخل في العملية من قبل جو كينغ، رئيس دويل، والمحقّق الجمركي المسؤول المطلق عن القضية. كانت مهمة لافي اقناع سام ونيكوس بالاتصال باسرائيل

ايزنبرغ وابنه ونورثروب في اسرائيل والاتفاق على اجراءات محددة لتسليم قسم من السلاح الذي عرضوه مع شهادة اثبات هوية المشتري. وكان هذا سيؤمن دليلا لا يدحض على وجود مؤامرة. تمّ الاتصال وقام رجال الجمارك بتسجيله، ثم غادر لافي بعد ذلك، فالتقاه جو كينغ وعانقه قائلاً: «لقد تمكنّا منهم». لم يتم إلقاء القبض على المجموعة في ذلك الزمان والمكان، لأن كينغ كان يريد ان ينصب شراكه لأكبر عدد ممكن، مما يعني الانقضاض علينا جميعاً في نفس الوقت. كان هذا هو الدور الوحيد الذي لعبه لافي قبل الاعتقالات، ولكنه ظهر إلى السطح مرة أخرى في دور بارز.

الجانب الاسرائيلي: موافقة حكوميّة وتورّط

ذهب سام ونيكوس إلى اسرائيل في آذار، وتكوّن لديهما انطباع بأن الزيارة تمت بموافقة مسؤولين في الحكومة: هكذا قال سام لهاشمي في واحدة من مكالماتهما المراقبة، بعد عدة أيام. وبالتأكيد، كان بإمكان الضيفين (سام ونيكوس) ان يتخطيا صفوف القادمين أمام مكتب الهجرة في المطار، وأقنعهما ايزنبرغ بأن قسماً من الأسلحة التي يعرضونها ستؤمن من خلال شركة كانت تبيع أسلحة فائضة لصالح وزارة الدفاع الاسرائيلية. اقتنع سام ونيكوس **أولاً**، بأن الحكومة الاسرائيلية موافقة على الصفقة، **وثانياً**، ان هذا يعني ان الصفقة نالت موافقة رسمية من واشنطن. كان هذا ما عناه نيكوس عندما أعلن، أثناء حديث مع هاشمي، بأن الاسرائيليين لن يقوموا بهذا العمل دون موافقة «الماما».

وكان دخول بارعام على خط الاجراءات في نيسان، يبدو كبرهان إضافي على ان الصفقة تلقى الدعم على مستويات عليا. قال بارعام انه يستطيع تأمين دبابات روسية كانت اسرائيل قد غنمتها من سوريا، ولكن هذا لم يتوافق مع شروط هاشمي بأن تكون الأسلحة من صنع أميركي.

التقت المجموعة مع هاشمي في باريس في منتصف نيسان، أحضر هاشمي معه جو كينغ هذه المرة أيضاً وعرّفه على انه شريك جوجاكسون. أخذ هاشمي الرجال الأربعة (لم يكن اسرائيل ايزنبرغ معهم) إلى باريس بطائرة نفاثة خاصة، وأعدّ لهم سيارة رولز رويس لتقلّهم من المطار إلى فندق بلازا ـ اثينيه الفخم، حيث كان قد حجز جناحاً لإجراء المفاوضات.

تَمَّ في الاجتماع اعداد أربعة عقود لتأمين كميات مذهلة من الاسلحة: ■ ٣٧٥٠ صاروخ تاو بقيمة ٦١٨٧٥٠٠٠ دولار، ■ ١٨ مقاتلة من طراز ف ـ ٤ بقيمة ٣٦٠ مليون دولار، ■ مجموعة من طائرات هيركيلوز للنقل، ■ والقنابل والصواريخ بقيمة ٤١٥١٣٠٨٨٠ دولاراً، ■ **وأخيراً ٥٠٠٠ صاروخ تاو إضافية مع طائرات مختلفة وقطع غيار بقيمة ٣٤٣ مليون دولار.**

وكان هذا العقد الأخير يتضمن شرط تأمين شهادة اثبات هوية المشتري، وكان

الطرف البائع في هذه العقود شركة ديرغو ومقرها ليختنشتاين، وكان نورثروب وبارعام على صلة بها.

طلب منهم هاشمي ان يذهبوا إلى نيويورك لتوقيع الأوراق في الاسبوع التالي. ولكن سام قال انه عند زيارته لاسرائيل، حذّرته المخابرات الاسرائيلية من الذهاب إلى نيويورك «لأسباب أمنية». تبنى نورثروب التحذير، فاقترح جو كينغ، (اسم مستعار لجاكسون) ان يعقد الاجتماع خارج منطقة سلطة الولايات المتحدة، في مستعمرة برمودا البريطانية. قال هاشمي ان الاجتماع سوف يعقد في ٢٢ نيسان، ووعد الاسرائيليون بأنهم سيتمكنون من العودة إلى اسرائيل في الوقت للاحتفال بعيد الفصح اليهودي الذي يصادف بعد أربعة أيام من ذلك التاريخ. كان من المفروض ان يكون فييلّلو ودو لا روك هناك أيضاً، ولكنهما صدفة، أو لحسن الحظّ، أو بناء على معلومات مسبقة لم يحضرا. أنا أعتقد ان السبب كان معلومات مسبقة، لأنني أؤمن انهما كانا على اطلاع كامل وباستمرار على صفقات اوليفر نورث. وقد توارى كلا الرجلين، الذين كانا يستخدمان جوازات سفر دبلوماسية أميركية، عن الأنظار منذ ذلك الوقت.

مصيدة في برمودا

قامت ادارة الجمارك الاميركية بإنذار السلطات في برمودا بأن المجموعة كانت في طريقها إلى الجزيرة لعقد اجتماع وبحث أمور تتعارض مع القانون **الأميركي**: وقد كتب **العميل** الجمركي الخاص دنيس فاغان رسالة إلى المدعي العام في برمودا يقول فيها:

> «كل أفراد هذه المجموعة هم في طريقهم إلى برمودا بقصد انجاز خطة للاحتيال على حكومة الولايات المتحدة. إن هذه العملية الاحتيالية تتعلق ببيع وثائق مزوّرة بقصد تقديمها للحكومة الأميركية. لقد استخدم هؤلاء الأفراد وسائل متنوعة لتسهيل تنفيذ الخطة، تتضمن على سبيل المثال لا الحصر، الغش بواسطة البرقيات وبواسطة البريد. تهدف العملية إلى تحويل اسلحة ومتفجرات لصالح مجموعات ارهابية».

رفضت السلطات في برمودا، بناء على هذه الرسالة، السماح للرجال الخمسة بدخول البلاد، وأمرت بإعادتهم على نفس الطائرة التي أقلّتهم من لندن والتي كانت ستكمل رحلتها إلى بالتيمور. عندما رفض هؤلاء العودة إلى الطائرة، ألقت السلطات القبض عليهم بتهمة دخول البلاد بطريقة غير قانونية. وبالرغم من ادعاء محامي ايفانز بأنه لا يوجد دليل على صحة الاتهام الرئيسي بأن المجموعة تنوي تزويد ارهابيين بالسلاح، فقد تم إبعادهم إلى الولايات المتحدة بعد خمسة أسابيع.

المؤسسة العسكرية تدعم «بارعام»

في اليوم الذي تم فيه القاء القبض على المجموعة، أدلى الجنرال بارعام بحديث إلى صحيفة دافار الاسرائيلية يقول فيه:

«إنني لم أقم بهذا العمل بصفتي الشخصية فقط. إن الكثيرين داخل المؤسسة العسكرية في اسرائيل يعرفون بأمر هذه المجموعة التي أعمل مستشاراً لها، فإذا لم تتدخل الحكومة الاسرائيلية لصالحي وتَمّ استردادي إلى الولايات المتحدة، فسوف أدلي بتصريحات تسبب احراجاً لها. إنني مجرد سنّ في آلية العمل».

كما أخبر الصحافة بأنه اتصل، بعد إلقاء القبض عليه، بالملحق العسكري الاسرائيلي الذي ردّ عليه بالقول: «الأفضل لك يا صديقي ان تبحث عن أفضل استشارة قانونية متوفرة».

كانت احدى نتائج وصول مجموعة برمودا، احراز بعض التقدم في موضوع الافراج عنا بكفالة. في اليوم التالي لوصولهم، حضروا جلسة حدّد القاضي خلالها كفالة بارعام بمبلغ ٧٠ ألف دولار، مع ان تأمين المبلغ استغرق بعض الوقت.

وفي اليوم التالي، نقل أفراد المجموعة بعيداً عنا إلى الطابق السابع. لم أشعر بالأسف لرؤيتهم يرحلون، لأنني لم أشأ ان ارتبط بهم كثيراً بناء على نصيحة تشارلي الذي كان يعتقد ان من مصلحتي فصل قضيتي عن قضيتهم. كانت نسخ مكالماتهم الهاتفية المراقبة تشير إلى انهم قد يكونوا انجزوا شيئاً بالفعل فيما يتعلق بتزوير شهادات اثبات هوية المشتري، بينما لم يكن هذا صحيحاً في حالتي، وهكذا قد تكون الأدلة في القضية ضدهم أقوى ولم أكن أرغب في ان يجرّوني معهم أثناء سقوطهم.

كان هناك سبب آخر لسروري وأنا أراهم يذهبون. كنت قد نلت كفايتي من نورثروب ـ فهو مزعج لدرجة لا تطاق بإحساسه بالأسى على حالته وبطلبه المستمر للسجائر. كان في كل مرة ألتقيه يطلب واحدة، ولم أره يشتري سجائر أبداً. كما كان يفرض عليك الاستماع لحديثه عن قضيته، وهذا أمر له مخاطره في السجن. إذ ان هناك رجال مهمتهم نقل ما يقوله السجناء الآخرين: وهم معروفون كوشاة محترفين. كان الواحد منهم يشاركك الزنزانة لمجرّد الحصول على معلومات، فلا تحس بما يجري إلاّ وهو ماثل على منصة الشهود في قاعة المحكمة يقدم الأدلة ضدّك. كان نورثروب يسرع من واحد لآخر ليخبره بقصته.

لم يعمّر سروري بالخلاص منه طويلاً، فقد تم فصله بعد اسبوعين عن «مجموعة برمودا» وأعيد إلى الطابق التاسع. وفي وقت لاحق عاد الاسرائيليون أيضاً. كان بارعام رجلاً قوياً وهادئاً ـ لوّحته الشمس كثيراً وهادئاً كثيراً. لم يكن يتحدث كثيراً عن القضية مع انه كان بالتأكيد يعرف الكثير عن شحنات الاسلحة إلى ايران ـ أكثر من أي شخص آخر. أما اسرائيل ايزنبرغ وابنه فكانا مضحكين، ويهوديين نموذجيين ـ كان الوالد كاهناً (حاخاماً) فيما مضى. كان من المفروض ان يقوما بالتأمين على الصفقة، مع انني لا أعتقد ان التأمين يغطي أخطار الوقوع ضحية مؤامرة حكومية.

أما هانز بيهن فقد وافق أساساً على التعاون مع الادعاء ووضع في طابق بعيداً عنا لمدة أربعة أشهر من تاريخ إلقاء القبض عليه. لم يرد اسمه في مسودة الاتهام الأولى، لأنه أخبرهم الكثير، ولكنهم أدركوا ان ما يدلي به يدعم قضية الدفاع بدلاً من الادعاء، فأضافوا اسمه إلى لائحة المتهمين فيما بعد.

الخروج بكفالة: سام وبارعام ومجموعة برمودا

حُدّدت الكفالة بالنسبة لسام بمبلغ ٤,٥ مليون دولار ـ مبلغ هائل، ولكن سام ينحدر من اسرة غنية فاستطاع تأمين المبلغ خلال شهر، وأخلي سبيله في أواخر حزيران. لحقه بعد قليل اسرائيل وغوري ايزنبرغ، ثم بارعام الذي استطاع تدبير المبلغ ثم تبعه رالف كوبكا. أما نيكوس فقد حددت المحكمة كفالته بمبلغ ٢,٥ مليون دولار ولكن محاميه استطاع تخفيضها إلى ٨٠٠ ألف دولار لأنه كان الأميركي الوحيد بين المتهمين ويعيش في الولايات المتحدة، كما كان بإمكان السلطات منعه من المغادرة بمصادرة جواز سفره. وكان آخر ما سمعت عنه انه ما زال يثبت وجوده للسلطات الأميركية مرتين في الاسبوع وبأنه لم يكن راضياً عن الأمر.

وفاة هاشمي: لغز مذهل

وهكذا، كانت مجموعة قليلة منا هي التي سمعت النبأ المذهل عن وفاة سايروس هاشمي في لندن في منتصف تموز. كان النبأ غير متوقع وغير قابل للتصديق. كان في السابعة والأربعين من عمره وفي صحة تامة، كما استمر في ممارسة رياضة التنس الملأى بالحركة حتى اسبوعين من وفاته. وكان، حسب رواية شقيقه، قد أجرى فحوصات طبية شاملة بما في ذلك فحص دمه في سويسرا قبل ثلاثة أشهر وأعلن الأطباء انه لا يشكو من شيء اطلاقاً، ومع هذا فقد انهار في مكتبه في لندن ونقل إلى مستشفى خاص في كرومويل رود ـ كنسنغتون، حيث شخّص الأطباء مرضه على انه سرطان الدم في حالة متقدمة. وتورد شهادة الوفاة التي وقّعها محقق الوفيات والطبيب الشرعي لمنطقة غربي لندن بعد «اجراء التشريح ودون الحاجة لاجراء تحقيق»، سبب الوفاة على انه سرطان حاد في النخاع الشوكي.

بعد وفاته، أدلى شقيقه محمد علي هاشمي (المعروف باسم جمشيد والذي كان في أميركا يواجه تهمة بتهريب السلاح) بحديث إلى صحيفة **الأوبزرفور** يقول فيه بأنه مؤمن بأن 'الدكتور' (سايروس) قد مات قتلاً. وأقسم بتقديم القَتَلة للعدالة حتى «ولو استغرق ذلك كل عمري». وأوضح جمشيد بأن «شقيقي كان يطأ كثيراً من الأقدام، وقد أبلغته تحذيراً تلقيته من الشرق الأوسط بأنه سيدفع يوماً ثمن ما يقوم به، ولكنه سخر من مخاوفي».

عندما انهار هاشمي أثناء اجتماع كان يعقده مع رجل أعمال اميركي قبل اسبوع من وفاته، كان الاعتقاد الأولي انه أصيب بنوبة قلبية، ولكن الأطباء في المستشفى اكتشفوا

سلامة قلبيه، وعندها أجروا اختبارات على النخاع الشوكي واستنتجوا انه مصاب بسرطان الدم. جرى هذا في ١٩ تموز وبدأت معالجته في اليوم نفسه ولكنه فارق الحياة بعد يومين. قال جمشيد بأنه يعتقد بأن شقيقه تلقى جرعة مميتة من سمّ يسبّب أعراضاً شبيهة بأعراض سرطان الدم، وأكد بأن: «من المعروف ان بعض دوائر الاستخبارات في الشرق الأوسط تستخدم هذه الطريقة». وأعلن ناطق باسم ادارة الجمارك الأميركية إلى الصحافة بأن الادارة قلقة بسبب وفاة هاشمي وبأنها تتابع تحقيقاتها حول الموضوع، مع انها لم تكشف نتائج أية تحقيقات قد تكون قامت بها. كما أفادت ادارة سكوتلانديارد انها تحقق في الموضوع أيضاً.

حسب المراجع الطبية، قد تظهر اعراض بعض اشكال سرطان الدم الحادة فجأة وبسرعة، ولكن من النادر ان تحدث الوفاة بالسرعة التي حدثت فيها وفاة هاشمي. ويقول كتاب **المرجع في السرطان** لمؤلّفيه بول ليفيت واليسا غورالفيك، بأن المُصاب بحالة سرطان دم حاد قد يموت إذا لم يُعالج «خلال عدة أشهر»، ويضيف الكتاب بأن الوفاة لا تكون من جرّاء المرض نفسه وإنما تسببها أعراض جانبية مثل النزيف الداخلي والالتهابات.

أجرى عملية تشريح الجثة الدكتور إيان أريك وست رئيس دائرة الطب الشرعي في مستشفى غاي في لندن، وتمت العملية في مشرحة وستمنستر الحكومية. لم يجد الدكتور وست سبباً آخر للوفاة غير سرطان الدم وأضاف: «لم أستطع، لا من دراسة المراجع المتخصصة ولا من مناقشات مع زملائي، إيجاد دليل يوحي بإمكان تنفيذ جريمة القتل بواسطة التسبب في اصابة انسان بحالة حادة من سرطان الدم».

ولكن التفصيل الجدير بالاهتمام في تقرير الطبيب هو قائمة أسماء الذين حضروا عملية التشريح. كانوا ثلاثة: رجلا شرطة بريطانيان، والعميل الخاص ماك شين من ادارة الجمارك الأميركية. في ذلك الوقت كانت المكيدة قد تمّت، فلماذا كان رجال الجمارك مهتمّين إلى هذا الحدّ بكيفية وفاة هاشمي؟

في البداية، كان نبأ وفاة هاشمي مبعث سرور لنا، نحن الباقين في الطابق التاسع. لم يكن مردّ ذلك شعوراً بالحقد على الرجل الذي أوقع بنا ـ مع ان ذلك لعب دوراً كوننا بشر، ولكننا كنا مقتنعين ان الحكومة ستسقط الدعوى ضدنا بعد ان لم يعد باستطاعتها استخدام أقوال هاشمي كدليل اساسي وحاسم، ولكن سرعان ما بدد تشارلي تلك الفكرة من رؤوسنا.

قال لي تشارلي: «على العكس، ان وفاة هاشمي هي أسوأ ما يمكن ان يحصل لك، لأنك لن تستطيع ان تناقش أقواله أمام هيئة المحكمة. كل ما لديك الآن تسجيلات أحاديثه معك ومع الآخرين. لو بقي حياً وحضر المحاكمة، لكان باستطاعة هيئة المحلفين أن تحكم إذا كان يقول الحقيقة، وباعتقادي ان أداءه على منصة الشهادة كان سيكون ضعيفاً.

كانت أولى النتائج المعاكسة لوفاة هاشمي، سحب الادعاء عرضه باطلاع الدفاع على سجلات تعامل هاشمي مع الحكومة الأميركية بصدد القضية التي رفعت ضده قبل حوالي السنتين. وكانت وجهة نظرهم هي، انه بسبب وفاة هاشمي وانعدام القدرة على احضاره للشهادة، تصبح أخلاقه وأمانته في قول الحقيقة غير ذي موضوع

هـل مـات مقتـولاً؟

كنا مقتنعين بأن هاشمي قد مات قتلاً، ربما بواسطة السم، وطلب أحد محامي الدفاع إعادة تشريح الجثة، ولكن الادعاء أخبره بأن الجثمان قد أحرق ولم يعد التشريح ممكناً، فذكّرت تشارلي بأن المسلمين لا يحرقون جثة ميت أبداً، فتابع الموضوع وأظهرت تحقيقاته ان قضية احراق الجثة كاذبة ولكن لا أحد يعرف أين صارت. اكتشفنا فيما بعد انها هُرّبت من بريطانيا وجرى دفنها في نيوجرسي، وان الادعاء كان يكذب في محاولة تضليلنا.

ولم يتعاون الادعاء مع الدفاع، عندما طالب تشارلي وغيره من المحامين بمراجعة تقارير التشريح الأول والتحقيق في وجود السم. فقد ماطل الادعاء ولم يسلّم هذه التقارير حتى نيسان ١٩٨٧ ـ بعد ان عدت إلى بريطانيا. حتى عندها رفضوا اعطاءها إلاّ للقاضي مع رسالة من مستشفى كرومويل تطلب ان لا يطلع عليها أحد من المتهمين وبأن يقوم بقراءة ملخص لها.

وعندما طلب واحد من المحامين، إيفاد الدكتور ايليوت غروس، المحقق الطبي السابق لمدينة نيويورك، إلى لندن للاجتماع بالأطباء الذين قاموا بالتشريح وللاطلاع على بعض عينات الأنسجة المأخوذة من جسم هاشمي، عارضه الادعاء وقالت لورنا سكوفيلد: «لننس قضية وفاة هاشمي!»

وافق القاضي في بداية الأمر على قولها وأعلن: «ان استخراج الجثة لن يعيد هاشمي لمواجهة هيئة المحلفين». فوقف أحد محامي الدفاع وقال بأنه سمع من مصادر موثوقة بأن ادارة الجمارك الأميركية قامت، قبل اسبوعين بالتحقيق في ظروف الوفاة. فردّ الادعاء بأنها المرة الأولى التي يسمع بهذا الأمر ولكنها اعترفت بصحة الأمر بعد تشاورها مع ممثل ادارة الجمارك لدى المحكمة. وكان واضحاً ان أموراً كثيرة كانت تجري دون معرفة مكتب النائب العام.

وبقي الأمر لغزاً لم يحلّ. كان تشارلي قد سمع قبل وفاة هاشمي، بأن هذا الأخير كان متورطاً في نزاع مع مكتب النائب العام، وانه يحتج لأنهم لم يلتزموا بما تم عليه الاتفاق وبأنهم لم يسقطوا كل الاتهامات القائمة ضده. وقال تشارلي، انه على أثر هذا النزاع، اتصل محامي تشارلي بفريق محامي الدفاع وعرض عليهم تعاونه في القضية، ولكن الحكومة الأميركية حذّرته من مغبة القيام بذلك.

العميل «هوشانغ لافي» هو الدليل

في الواقع، أتى الدليل الأشد اثارة حول هذا الموضوع من هوشانغ لافي عميل الحكومة الأميركية الذي لعب دوراً في المفاوضات التي جرت بين هاشمي من جهة وسام ايفانز والاسرائيليين من جهة أخرى، في نيويورك في كانون الثاني ١٩٨٦. يقول لافي انه، في أواخر تموز من ذلك العام، كان يعمل لصالح ادارة الجمارك الأميركية في قضية نجحوا بواسطتها بمنع بيع كمية من اليورانيوم من ليبيا، وانه ذهب لرؤية جو كينغ في مكتبه في نيويورك.

قال له كينغ: «هل علمت بوفاة الدكتور؟» فسأله لافي: «الدكتور؟ أي دكتور؟»

«الدكتور سايروس هاشمي. هل تذكر تلك العملية التي ساعدتنا فيها؟ حسناً، كان لا بد لنا من التخلص منه، فقد كان يعرف الكثير».

لم يسجل لافي المحادثة ولكنه ادّعي بأن لديه تسجيلاً لحديث لاحق على الهاتف مع جو كينغ، أثار لافي خلاله السؤال مذكراً كينغ بما قاله حول وفاة هاشمي. ويقول لافي ان كينغ لم يؤكد ولم ينف، بل بقي صامتاً.

كما يذكر انه، في آذار ١٩٨٦، الشهر الذي سبق إلقاء القبض عليَّ، اتصل من أميركا هاتفياً بهاشمي في لندن لبحث مسألة تتعلق بإيران. لم يكن هاشمي موجوداً، فترك لافي رقم هاتفه مع رسالة يطلب فيها من هاشمي ان يتصل به. وبعد عدة ساعات، اتصل به جو كينغ وقال له: «هل فقدت عقلك حتى تتصل بهاشمي؟ ان سكوتلانديارد تراقب كل مكالماته. وكل مرة يعطس فيها، يجد من يقدم له منديلاً».

إن شخصية لافي هوائية وأحكامه قد لا تكون بالضرورة موثوقة، وهو يدّعي بأنه كان ضحية محاولة اغتيال بواسطة تسميم طعامه اثناء احدى زياراته لبروكسل ويعتقد ان ادارة الجمارك كانت وراء المحاولة. بقطع النظر عن امكانية صحة هذه الرواية، فهي ليست سبباً للشك في ذاكرته حول حديثه مع جو كينغ. ان تجربتي مع النظام الأميركي تجعلني مؤمناً **بأن السلطات الأميركية سوف تفعل ما بوسعها للتأكد من ان الحقيقة لن تظهر أبداً**. إنني أؤمن بأن هاشمي كان متورطاً مع اوليفر نورث في الصفقات التي اجراها البيت الأبيض، على الأقل في المراحل الأولى، ولكن الجميع يبذلون غاية جهدهم لمنع إثبات هذا الأمر بالدليل. إذا كان الأمر هكذا فإنه يقدم دافعاً صريحاً لقتل المصرفي الايراني الغامض الذي ربى له عداوات كثيرة: أنا من بينها، فليرقد بسلام.

الفصل السادس

مسيرة العودة الطويلة

رغم تحذير شارلي، الذي ردّده بنفس الصياغة أو بأخرى محامو الدفاع الباقون، كنا لا نزال نقنع أنفسنا، بأن هناك فرصة، ولو ضئيلة، أن تؤدي وفاة هاشمي إلى اسقاط القضية ضدّنا. إذ كيف يمكنهم ان يستخدموا الأشرطة المسجّلة إذا لم يكن صاحب الصوت فيها موجوداً ليجري استجوابه؟ ولكن تشارلي قال ان هناك طرقاً عديدة قد يستخدمها الادعاء للالتفاف حول الموضوع ولكننا كنا، بعد قضاء ثلاثة أشهر في السجن نتعلق بأية بارقة أمل: تبدأ بتوقع تطورات دراماتيكية في أية جلسة تحضرها تؤدي إلى اطلاق سراحك، ولكنك بعد وقت تدرك ان ذلك لن يحدث وان جلسات التحقيق تزيد الأمر سوءاً في أغلب الأحيان. ولهذا كانت وفاة هاشمي أمراً حقيقياً نعلّق عليه آمالنا على الأقل ـ ولو لفترة قصيرة.

وسرعان ما أصبح واضحاً ان القاضي لن يلين بسرعة، حتى فيما يتعلق بتحديد الكفالة للبقية منا، التي أصرّ الادعاء على ان اطلاق سراحها يشكل مخاطرة كبيرة. وجاء آب ـ حاراً ولهّاباً ولزجاً كما كنّا تسمع عنه. كان من المفروض ان يكون السجن مكيّفاً، ولكن التكييف لم يعمل مرة بطريقة فعّالة أثناء الطقس الحار. ولماذا يهتم الناس براحة المجرمين؟ كنت أنظر من نافذة زنزانتي، وأنا أتصبب عرقاً، إلى الفتيات وهن يخطرن في المحلات والمكاتب شبه عراة، وأحسّ بعجز رهيب: كم كنت أتوق بأن أقوم بما هو طبيعي، كأن أذهب وأغازلهن، وكم كنت أتوق أكثر لأن أكون مرة أخرى في لندن برفقة نوا.

الادّعاء يسعى للإدانة

كانت فكرة ان أعقد اتفاقاً مع الادعاء مقابل معاملة مخففة قد طُرحت في مرحلة مبكّرة ولكننا سرعان ما تخلينا عنها، إذ كنت قد أدركت في هذا الوقت ان الجانب الحكومي ليس مهتماً بالعدالة أو بكشف الحقائق: كان كل همهم ان يحصلوا على معلومات تفيدهم في كسب القضية والحصول على إدانة المتهمين. وكان الأمر إلى حد ما شبيهاً بعملي: إذا كنت بائعاً جيداً، فأنت لا تفضح أمام زبائنك سيّئات البضاعة التي تعرضها ـ فقط حسناتها. [ومَن ذا الذي ينادي على زيته عكراً!].

كان كل ما يسعى إليه الادعاء، هو الادانة، فإذا نجحوا في الحصول عليها، هنأوا أنفسهم، بغض النظر عما إذا كان المدان بريئاً أو مذنباً. وكان بإمكاني مساومتهم بسهولة لو

كان لديَّ الاستعداد لاختراع الدلائل ضد المتهمين الآخرين، وكانت لورنا سكوفيلد ستهتم بالأمر لأنه يساعدها في كسب القضية: لكنها لم تهتم بما كنت **سأقوله** لأنني كنت أصرّ على براءتنا من التهم الموجهة إلينا، ولهذا السبب بالذات أنهت تعاون هانز بيهن مع الادعاء: كان ما أخبرها هو الحقيقة الكاملة وكانت الحقيقة ستحررنا.

ولما لم يبد أي من المتهمين استعداده للتعاون، لم يستطع الادعاء طلب المحاكمة مع الثقة بأنه سيكسب القضية. وراح تأجيل يتبع آخر، حتى استطاع محامو الدفاع أخيراً اقناع القاضي ساند، رغم عناده، بأنه ليس حقاً أن نبقى قيد الاحتجاز للأبد. وأبدى استعداده على الأقل للقبول بمبدأ اطلاق سراح السجناء كلهم بكفالة، ولكنه، عندما وصل الأمر إلى تحديد قيمة الكفالة، بدأ يتعثر من جديد، وقال تشارلي: «قدّم لي عرضاً. حضر عرضاً متكاملاً وقدّمه لي».

حاول تشارلي ان يشرح للقاضي بأنني لم أكن أملك شيئاً، ما عدا ما استطيع اقتراضه من والديَّ وما يمكن لنْوا ان تؤمنه من لندن. أصرّت المحكمة على ان يكون الشخص الذي يقدّم ضمانة الكفالة قريباً لي أو شخصاً لا يمكن ان أتركه يتعرض لمتاعب مالية. (كان بعض أصدقاء نيكوس قد جمعوا حوالي المليون دولار لكفالته ولكن القاضي رفض لأنهم لم يكونوا من أقربائه، واضطر نيكوس إلى احضار كفيل آخر).

عند هذه النقطة من الزمن حدث أمر مرعب. كتب أهلي من المانيا وأخبروني ان شخصاً اتصل بهم هاتفياً مدعياً انه صديق لي اسمه بوب. وقال إنه لم يسمع مني منذ بعض الوقت ويبدو انني اختفيت. وسألهم إذا كانوا يعرفون مكاني.

أخبره والدي بمشكلتي فأبدى أسفه وقال: «إنه أمر مزعج، ولكنني سأتصل ببعض الأصدقاء لتأمين قيمة الكفالة. كيف استطيع الاتصال به؟»

أعطوه رقم هاتف القنصلية الالمانية في نيويورك، فاتصل بهم وسأل عن الكفالة فأخبروه ان قيمتها لم تحدد بعد، فأخبرهم بأنه سيتصل في الاسبوع التالي ليسأل عما جدّ في الأمر. ولكنه لم يتصل أبداً. الغريب انه لم يكن لي في أي وقت صديق يدعى بوب. من هو الذي كان يحاول التلاعب معي؟ ولماذا؟

طليق بكفالة، ممنوع من السفر

أخيراً تمكن تشارلي من اقناع القاضي بقبول دفعة نقدية مني بقيمة ٢٥٠٠ دولار فقط، بالاضافة إلى صك كفالة بقيمة ٢٥ ألف دولار وآخر بنفس المبلغ من عائلتي، التي وقّعت مذكرة مصدقة تنصّ ان هذا المبلغ هو كل ما يملكونه كضمان لشيخوختهم. إنها السخرية: في يوم كنت، برأي الادعاء، مجرماً خطراً لا يمكن اطلاق سراحي مقابل أية كفالة، وبعد أسابيع قليلة، تدنّت قيمتي إلى ٢٥٠٠ دولار نقداً.

لم يكن يحق لي بموجب أمر الافراج ان استرجع جواز سفري حتى لا أستطيع ان أغادر عائداً إلى بلدي، ومع ان الدستور الالماني يفرض ان تمنع القنصليات الالمانية جوازات سفر للمواطنين الالمان متى طلبوها، ولكن أحد شروط الافراج عني قضى بأن تتعهد القنصليات الالمانية في أميركا وكندا، بأن تعلم المحكمة إذا تقدمت بطلب جواز جديد ـ والذي سيؤدي لو حدث إلى اعادة القاء القبض عليَّ. كنت، لهذا، ما أزال سجيناً بكل ما تعني الكلمة، ولكن القفص أصبح أوسع لدرجة كبيرة.

ولكنهم كانوا يخبئون لي، قبل اطلاق سراحي، مزيداً من التعذيب والاذلال. حُدّدت قيمة الكفالة وكنت استعد لمغادرة المركز الاصلاحي بعد ستة أشهر ونصف الشهر، وتمّ وضع موجوداتي في صندوق لأخذها معي، وكان شعوري رائعاً: إنني أخيراً سأخرج من السجن، وكان هانز بيهن وصديق نمساوي تعرفنا إليه داخل السجن، قد غادرا قبل عدة أسابيع، وكنا قد اتفقنا أن نقيم احتفالاً كبيراً في بار نمساوي اكتشافه في وسط المدينة.

بَدَت همروجة الانتقال من السجن إلى المحكمة أقل ازعاجاً ذلك اليوم. في المحكمة تُلي قرار الافراج بكفالة، وبدا القاضي مسروراً واعتقدت ان اخلاء سبيلي أمر مفروغ منه. فالشكليات تقضي بأن يسأل القاضي الادعاء إذا كان يوافق، فوقفت لورنا سكوفيلد وقالت: «ان الادعاء يوافق، سيدي القاضي، ولكن . . .» وهبط قلبي عند سماعها. قد تكون كلمة 'ولكن' أقسى كلمة في اللغة.

«. . . ولكن المذكرة المصدقة من أهل مولّ ناقصة، فهي لا توضح انهم أفهموا بأن نقودهم ستصادر، إذا لم يلتزم ولدهم بشروط الافراج بكفالة».

أحسست بغضب جنوني، فكل انسان يعرف ما هو صكّ ضمان الكفالة: إنه تأمين ضد احتمال ان يتوارى مُتَّهم عن الأنظار قبل موعد محاكمته. ولكن القاضي هذه المرة، وعلى غير عادته، لم يتردد:

ـ «أحضروا مذكرة مصدقة أخرى».

وهكذا، بدلاً من المدينة والاحتفال مع هانز والنمساوي، عدت إلى السجن، حيث أجريت اتصالاً هاتفياً مع القنصلية الالمانية وأنا في ثورة جنون لأسأل إذا كان بإمكانهم احضار مذكرة مصدّقة من المانيا خلال أربع وعشرين ساعة، أو على الاقل الحصول على تأكيد بواسطة التلكس انها أرسلت. كنت وفليرموي الوحيدين اللذين ما زالا في السجن ومَرَّ اليوم مثبطاً وكئيباً، ثم التجأت إلى غرفتي وحيداً وأمضيت الليل ساهراً.

اعترف هنا بنشاط وفعالية العاملين في القنصلية. في الصباح التالي حضر القنصل إلى مبنى المحكمة وبيده رسالة تلكس تؤكد ان المذكرة الجديدة المصدّقة قد أرسلت عبر الخارجية الالمانية في بون، وفي حوالي العاشرة، سمعت صوت حارس يصرخ:

ـ «مولّ، أحضر امتعتك، فسيخلى سبيلك بكفالة».

ما كنت أعتقد انني سأبتهج لأي شيء يقوله هؤلاء الذين ساموني العذاب، وبدأت طريقي عبر همروجة الذهاب من السجن إلى المحكمة. حملت صندوق امتعتي وتوجهت إلى مكتب الحراس للحصول على اذن بالخروج، ثم جلست كالعادة في انتظار المصعد. في هذه الأثناء أتى أحد كبار ضباط الحرس وسألني: «إلى أين تذهب مع هذه الأمتعة؟»

فأجبته بلهجة المنتصر: «إنني خارج بكفالة».

فهمهم: «حسناً، سنراك ثانية». وفكّرت لنفسي، 'إن ذلك لن يحدث أبداً إذا استطعت'.

في غرفة تغيير الملابس، ارتديت ثيابي المدنية، وأعدت لهم الغطاء الذي كنت استعمله، وتركت صندوقي معهم على ان استرده لاحقاً. ولكن القيود كانت ما تزال في يدي ووضعت في زنزانة الاحتجاز قرابة الساعة، قبل ان أنقل إلى زنزانة الاحتجاز لدى المأمور الاتحادي، حيث بقيت لأكثر من ثلاث ساعات.

أخيراً، مررت عبر بوابة مزدوجة إلى حيث كان مأموران اتحاديان بانتظاري لمرافقتي عبر قاعة المحكمة إلى غرفة حيث كنت سأوقع أوراق الكفالة. قرأ مسؤول عليَّ شروط الكفالة: ما كان باستطاعتي القيام به وما كان ممنوعاً، وسألني عندما أنتهي من القراءة.

- «هل توافق؟»
- «نعم». وكنت سأوافق على أي شيء.
- «وقّع هنا إذاً».

عند أسفل الدرج، لاقاني القنصل الالماني، أولف هانِل، الذي كان لا يزال ينتظرني منذ أربع ساعات. ورغم هذا لم تكن الاجراءات الادارية قد انتهت. أعيدت القيود إلى يديَّ واقتدت إلى مكتب المأمور الاتحادي وانتظرت خارج غرفة فيها خط كمبيوتر طَرَفي، ادخلوا اسمي في محاولة معرفة إذا كانت هناك اتهامات أخرى ضدّي في الولايات المتحدة، (كانوا سيعيدوني إلى السجن لو وجدوا، وقد سمعت أن أحدهم قد أعيد لمجرد تخلفه في دفع نفقة طلاق).

عندما مرّ الأمر بسلام ولم يثر اسمي أية مشكلة، قال لي هانل: «لنخرج من هنا».

فأجبته بحماس: «إنني أوافقك الرأي».

كان مجرد السير عبر قاعة المحكمة، ويداك طليقتان لأول مرة منذ ستة أشهر ونصف، يمنحك شعوراً رائعاً. ومجرد الدخول إلى المصعد دون الحاجة لانتظار حارس يرافقك يبدو من نعم الله. وأخيراً، وجدت نفسي في الشارع. كان الوقت تشرين الأول، ومع هذا كان الطقس لا يزال دافئاً، وكان الناس يغامرون بارتداء ملابسهم الصيفية لآخر مرة قبل

ايداعها الخزانة حتى العام الذي سيلي. وكانت المدينة توحي بجو من الارتياح. كنت أحس كمن يخرج من الشرنقة إلى حياة جديدة.

سألني هانل: «دعنا نذهب لتناول الغداء، وبالمناسبة هل تحب الطبخ الصيني؟»

من السجن إلى المطعم الصيني

أي شيء، غير طعام السجن الخالي من النكهة، كان سيكون موضع ترحيب، وكان هناك بالاضافة شعور بالابتهاج بأن أتمكن من السير حراً في الحي الصيني الذي كنت أراقبه لفترة طويلة من خلال شبك الحديد على نافذتي.

ذهبنا إلى مطعم يرتاده هانل عادة، في الدور الأول من مبنى مزدحم يقع على شارع فرعي ضيق في الحي.

«إنني متأكد على الأقل من طلبك الأول»، قال هانل، وحالما جلسنا، أمر النادل بإحضار أربعة أكواب من البيرة ـ ثلاثة لي وواحد له. كان واضحاً انه سبق وقام بنفس العمل. اخترت البيرة الصينية بدلاً من الأميركية لأنني لم أكن أحس بأي تعاطف مع كل ما هو أميركي. كانت الوجبة التي تناولناها كالحلم، مطهية بمهارة وعناية مع كثير من الاعشاب والبهارات أعطتها مذاقاً جيداً. بعكس طعام السجن المخلوط والمسخن لملء المعدة فقط.

اضطر هانل للعودة إلى القنصلية، وكان قد سلمني ٩٠٠ دولار أرسلها أهلي. ووقفت وحيداً في وسط الحي الصيني، بعد ستة أشهر ونصف في السجن، لا أدري أين أذهب أو ماذا أفعل.

كنت قد اتفقت مع هانز بيهن على ان أبقى معه لفترة حيث كان سيعيش مع أخيه في دار فيها غرف للايجار في وست بورت ـ كونكتيكت. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كيفية الوصول إلى وست بورت ولم يكن لدي رقم هاتفه. كان محاميه يعرف دون شك، ولكنني لم أكن أعرف رقم هاتف المحامي أيضاً، اتصلت بتشارلي الذي كان مفترضاً به أن يحضر إلى المحكمة لاطلاق سراحي. عندما سمع صوتي كان أول شيء قاله:

ـ «هرمان، أنا آسف جداً إذ لم أتمكن من الذهاب إلى المحكمة اليوم، ولكنني أعدك بأن أخرجك غداً».

فقلت بهدوء: «تشارلي، ولكنني الآن خارج السجن». المشكلة مع المحامين الأميركيين ان ليس لديهم الوقت الكافي للاهتمام بكل موكليهم.

صرخ تشارلي: «يا إلهي! أين أنت بحق الله يا رجل؟»

«إنني أقف في وسط الحي الصيني، لقد أخرجني القنصل الالماني، فلو كان الأمر بيدك، لكنت ما زلت في الداخل». ولم يعلق تشارلي على إهانتي المريرة له.

«بأي حال، انني مسرور لأنك خرجت من السجن».

أعطاني رقم هاتف محامي هانز ومنه حصلت على رقم هاتف هانز نفسه، فاتصلت به وأرشدني إلى كيفية الوصول إلى وست بورت.

لم تكن محطة القطارات في «غراند سنترال» المكان المفضّل لرجل لا يزال مشوش التفكير من جراء قضاء أشهر داخل السجن، فهي تغصّ بالناس المسرعين في سيرهم وليس لديهم الوقت لإرشادك إلى المنصة التي تستقل منها القطار الصحيح المتجه إلى حيث تريد. ولكنني رأيت لوحة اعلانات فاشتريت تذكرة وصعدت إلى القطار واتخذت مكاني. لم أستطع طوال الوقت التخلّص من الخوف بأنه في أية لحظة سيأتي شخص من خلفي ليضع يده على كتفي ويقول: «مول، تعال معي!»

استغرقت الرحلة من نيويورك إلى وست بورت سبعين دقيقة. كان هانز بانتظاري على مدخل المحطة وبرفقته أخوه.

- «كيف الحال؟»

- «عطش!» أجبته بتصميم.

مشينا حوالي ٨٠٠ متر إلى وسط البلدة وأقرب بار. إنه وقت الجن والصودا أخيراً. لم يكن هانز وشقيقه يملكان مالاً، فكان الشراب على حسابي، ولكنهما بأي حال يشربان نوعاً من النبيذ الرخيص والبيرة. بقينا في البار حتى منتصف الليل وجاءت الفاتورة - ٥٥ دولاراً، أربعون منها ثمن كمية الجن التي تناولتها أنا. ومع انني لم أكن قد تناولت أي طعام منذ الغداء، فلم يكن بإمكاني أن أسكر. كنت أعتقد انني، بعد هذا الوقت الطويل، سأفقد وعيي مع الكأس الثانية، ولكنني مع كل الكمية التي استهلكتها بقيت صاحياً.

ركبنا سيارة أجرة إلى المنزل الذي كان يبعد حوالي ثمانية كيلومترات عن محطة القطار. إنه منزل كبير مبنيّ من الخشب على الطراز الأميركي. ولكنني اكتشفت حال دخولي، إنه غير مرتّب وقذر وفي حالة رثّة كلياً. كان شقيق هانز قد وجده عندما حضر إلى وست بورت لمتابعة علاقة غرامية مع امرأة متزوجة سبق له ان التقاها في المانيا. كانت زوجة مالك الدار من كولونيا. شارك هانز غرفته في الليلة الأولى، وقبل ان نأوي إلى الفراش افرغنا فيما بيننا، ابريقاً من النبيذ الرخيص، ورغم هذا لم أحس بأي خَدَر.

استفقت في صباح اليوم التالي وأنا أتساءل إذا كان الأمر مجرد حلم، ولكن نظرة سريعة حولي إلى الغرفة اقنعتني انني لم أكن في الزنزانة. بعد ان أخذت دشاً، خرجت لرؤية مالك الدار لأول مرة. كان رجلاً قصير القامة، سميناً لدرجة كبيرة، وكأنه كرة على قدمين. لم يكن يقوم بأي عمل، وكان يقضي طوال يومه، كما علمت فيما بعد، جالساً في الدار يتحدث عن النقود.

استئجار غرفة بـ ٤٠٠ دولار في الشهر

اتفقنا على ايجار شهري قيمته ٤٠٠ دولار، وكان هذا رقماً مرتفعاً، لكنني قبلت به لأبقى مع هانز، إذ لم يكن لديَّ أصدقاء غيره في نيويورك. دفعت إيجار شهر مقدماً، ثم ذهبت مع هانز إلى السوق لشراء بعض الملابس. لم يكن هناك طريقة للوصول إلى المدينة إلّا بواسطة سيارات الأجرة، ولم نكن نستطيع ان نتحمل نفقات ذلك يومياً. بأي حال كنت لا أزال أحس بحاجة للتمارين في الهواء الطلق كردة فعل لبقائي محتجزاً طوال تلك الفترة. كان مشواراً صعباً لأن الأميركيين الذين يعتبرون المشي نوعاً من غرابة الأطوار لا يبنون أرصفة للمشاة على جانبي الطرقات. (ذات ليلة وبينما كان هانز عائداًبعد ليلة شُربْ، صدمته سيارة وألقت به إلى القناة على جانب الطريق، ولكنه لحسن الحظ لم يصب بأذى).

ذهبت إلى متجر للوازم الرجال، وأخبرت البائع بأن شركة الطيران أضاعت كل أمتعتي، وإنني بحاجة إلى مجموعة كاملة من الثياب. ارتديت الثياب الجديدة في المتجر وألقيت بثياب السجن الداخلية والقميص القذر في سل للمهملات. كنت بحاجة أيضاً إلى حذاء جديد: فلن يتحمّل الحذاء المصنوع من جلد التمساح الغالي الذي أحضرته معي من لندن، طويلاً وأنا أمشي ثمانية كيلومترات إلى المدينة ومثلها عائداً إلى المنزل.

بعد ان انتهينا من التسوق، ذهبنا إلى أحد البارات وأمضينا بقية اليوم هناك. وسرعان ما أصبح هذا روتيناً منتظماً: «نستفيق صباحاً ونسأل: «أين سنخمر اليوم؟» كانت طريقة حياة محطمة للمعنويات، ولكن كان من شبه المستحيل ان نبقى في المنزل حتى لو أردنا. إن فكرة قضاء اليوم مع مالك الدار السمين المهووس بالمال، كانت تثير فينا القرف والاحباط والكآبة، كنا لذلك نغادر المنزل في الثامنة والنصف صباحاً، قبل ان يعود المالك السمين من إيصال زوجته إلى عملها.

كانت وست بورت ـ كونكتيكت، مدينة صغيرة، مبنية للذين يقودون سياراتهم وغير ملائمة للذين لا يملكون. وبَدَت المدينة مزدهرة مع كثير من البيوت الخشبية كالبيت الذي كنا نسكن فيه. بالاضافة إلى الفوضى العارمة في المنزل، كانت هناك قطط ـ ثمانية منها ـ ببغاوات وكلب هرم يدعى ′بدي′. كنت إذا دخلت المطبخ، ترى القطط تختلس قطعاً من طعام العائلة، وكان هذا يبدو غريباً لأن زوجة المالك، وهي يهودية ارثوذكسية، كانت تصر على ان يكون الطعام وأدوات المطبخ بحالة نظيفة، وأنا أكيد ان السماح للقطط بلعق الطعام وأدوات المطبخ لا يتوافق مع هذا الاصرار.

عدت ذات ليلة إلى البيت في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل وقد تعتعني السكر. كان الباب الرئيسي مقفلاً، فدخلت من باب جانبي، عبر مرآب السيارات، وأنا لا أرى شيئاً في الظلام إذ كان مفتاح الكهرباء في الجانب الآخر. ارتطمت يدي اليمنى بقفص الببغاء الذي نقدني في اصبعي وسقط القفص فوق الكلب الذي بدأ بالنباح فيما راح الببغاء

يصدر أصواتاً غاضبة كالمجنون. وبينما كنت أتلمس طريقي متعثراً على درج المرآب دست على احدى القطط التي بدأت بالمواء. في هذا الوقت كان كلّ مَن في المنزل قد استفاقوا وخرجوا من غرفهم بثياب النوم ليعرفوا ماذا يحدث وبدا الأمر وكأنه مشهد من تمثيلية هزلية غريبة.

كنت استقل القطار إلى نيويورك بين الفترة والأخرى لحضور جلسات المحكمة. في الجلسة الأولى، أصابني الهلع حين سمعت أحد محامي الادعاء يقول للقاضي: «إنني مضطر لأن أخبر المحكمة ان المتهم مولّ قد خالف شروط الافراج عنه بكفالة».

ولم يكن هذا بالأمر التي ترغب سماعه في المحكمة في ظل هذه الظروف. وتابع المحامي تفسيره قائلاً إنني لم أمثل أمام دائرة خدمات ما قبل المحاكمة، كما هو مفترض بالسجناء الذين خرجوا بكفالة، لاثبات وجودهم مرة كل بضعة أيام. فأوضح تشارلي، ان أحداً لم يعلم المتهم بهذه التعليمات وربما عن غير قصد، وأضاف انه بما ان المتهم لم يهرب، فلا يجوز معاقبته لخطأ اداري لم يرتكبه هو.

كان باستطاعة القاضي ان يعيدني للسجن بناء على هذه الشكلية القانونية، ولكنه اقتنع بكلام تشارلي. منذ ذلك التاريخ، أصبح لزاماً عليَّ أن اتصل هاتفياً بالدائرة المعنيّة بانتظام، وان أذهب لمقابلة الضابط المسؤول عن قضيتي في كل مرة أحضر إلى مانهاتن لحضور جلسة. كنت أثناء هذه الزيارات استكشف البارات القريبة من مبنى المحكمة. كنت أحس بالحاجة إلى كأس أو كأسين قبل الجلسة، لأن القاضي كان دائماً يثير اعاصبي بتردده وعدم قدرته على اتخاذ قرار.

أثبت البار النمساوي الذي أخبرني هانز عنه، بأنه على مستوى سمعته الجيدة. كان البار يدعى «دي فْلَدَرماوس» (الوطواط)، في ووتر ستريت قرب ستاتن ايلاند فيرّي في أسفل مانهاتن، وكان يملكه نمساويان أصبحا من أصدقائي. كان البار يقدم البيرة الالمانية الخفيفة والطعام الالماني ـ نقانق مع الشوكروت (سلطة الملفوف ـ وسلطة البطاطا). كنا نمضي الأمسيات هناك ونحن أقرب ما يكون لنسيان حقيقة اننا في هذه المدينة التي تطبق على القلب ونتظاهر اننا عدنا ثانية إلى المانيا.

التفكير بالهرب إلى خارج البلاد

ولكن كانت هناك أوقات، بعد أن يُمنح الادعاء الموافقة على طلبه بالتأهيل مرة أخرى، عندما تبدّدت آمالنا بالحصول على جوازات سفرنا والسماح لنا بالسفر. كانت النهارات تقصر وعيد الميلاد على الأبواب، فبدأت أحسّ باليأس من الحالة والتفكير جدياً بالهرب خارج أميركا.

تكونت لديَّ خطتان. بموجب **الخطة أ**، كنت سأستقل الطائرة إلى الباسو في تكساس، عبر نهر الريوغراندي مقابل المكسيك، ثم استقل الحافلة لزيارة المكسيك ليوم

واحد واختفي هناك. ولما كان حرس الحدود مهتمين بالغالب، بالمهاجرين بطريقة غير شرعية في الاتجاه المعاكس ـ من المكسيك إلى الولايات المتحدة، كنت مؤمناً ان فرصتي في النجاح جيدة. كنت سأجد طريقي إلى مدينة المكسيك وأحصل على وثائق سفر من القنصلية الالمانية هناك، التي لم تكن ملتزمة، كالقنصليات الالمانية في الولايات المتحدة، بإبلاغ السلطات الأميركية. ولما لم تكن جريمتي المفترضة مخالفة القانون البريطاني، فلن يستطيع الأميركيون استردادي إلى أميركا.

وصلت في إعداد الخطة، إلى شراء خرائط لدراسة المنطقة الحدودية المحيطة بالباسّو. كنت قد سمعت قصصاً عن مهاجرين غير شرعيين من المكسيك، انتقلوا إلى الباسو سباحة، أو مشياً عبر الجسر إذ انه لا يوجد مركز حدودي هناك. وكنت متأكداً ان أمر العبور من الشمال إلى الجنوب سوف يكون بالسهولة نفسها.

أما في **الخطة ب**، البديلة، فلم أعدّ القدر نفسه من التفاصيل. كانت الفكرة العامة للخطة تقضي بأن أقصد مرفأ على الشاطىء الشرقي لكندا أو أميركا، وأن اتسلل إلى باخرة أو أقوم برشوة قبطان باخرة لينقلني إلى اليونان أو إلى أي مكان يقصده مقابل بضعة آلاف من الدولارات. كانت الخطة من النوع الذي قد ينجح في فيلم سينمائي، وكنت لذلك، أفضل خطة الذهاب إلى تكساس لأنها لا تعتمد على استعداد وفساد أخلاق طرف آخر.

كنت أعرف ان كلتا الخطتين تبدوان خياليتين كشيء من قصص المغامرات التي يهواها الصغار، ولكن ما حدث لي حتى الآن لم يكن شيئاً عادياً يحدث كل يوم في الحياة. كنت أعيش في عالم خيالي منذ سبعة أشهر ـ وهو عالم ليس من صنع خيالي، ولكنه فُرض عليَّ من قبل السلطات الأميركية، وكان من الممكن ان أكون قد جربت تنفيذ خطة تكساس بسرعة لو لم يطرأ ما غيّر المعطيات بطريقة حاسمة.

خطأ مميت، ان يفقد انسان أمله. كنت متعلقاً بصحة المقولة التي كنت أصرّ عليها وهي **ان هناك موافقة أميركية سرية على مبيعات الأسلحة لايران**، وبما هذه الحقيقة ستظهر إلى العيان يوماً ما. كنت أعرف ان الأميركيين لا يجيدون حفظ الاسرار: إنها مسألة وقت فقط. لكنني لم أكن أعرف كم من الوقت أو إذا كان بإمكاني الانتظار.

صحّة المقولة وظهور الحقيقة

حدث الأمر في ٥ تشرين الثاني. كان هانز هو الذي أتى بالأخبار بعد ان نبهه إليها مالك الدار.

«هل رأيت الصحف؟» سألني، ولما أجبت بالنفي، ناولني الصحيفة.

كانت الأخبار الرئيسية تتناول تقرير، ظهر في مجلة الشراع اللبنانية قبل يومين، يفيد بأن روبرت ماكفرلين وآخرين قد قاموا بزيارة طهران في أيار للبحث مع المسؤولين هناك في موضوع تزويد ايران بالسلاح مقابل الافراج عن الرهائن، ويضيف التقرير بأن شحنة من

الأسلحة رافقت الوفد على متن الطائرة نفسها. في ذلك الوقت، كانت الصحف تعرف القليل من تفاصيل القصة ولم تكن قد فكرت بعد باسم جذاب لها. وكانوا سيكتشفون الرابط الحيوي بينها وبين تزويد ثوار الكونترا بالسلاح.

اتصلت بتشارلي بأسرع ما يمكن، كان تشارلي خلال متابعة القضية قد آلى على نفسه ان لا يكون كثير التفاؤل حول فرص اطلاق سراحي حتى لا ترتفع آمالي كثيراً، ولكنه نفسه وجد من الصعوبة بمكان ان تستمر الحكومة بمقاضاتنا الآن. فقررت أن أضع خطة الهرب على الرفّ.

كان الرد الأول لمسؤولين في واشنطن، حول صفقات السلاح لايران، هو الامتناع عن الادلاء بشيء بناء على تعليمات بوينت دكستر، مع ان شولتز كان متحمساً لاعلان الحقائق حالاً. في ٤ تشرين الثاني قال لاري سبيكس، الناطق باسم البيت الأبيض: «ان حظر السلاح الأميركي سيبقى مفروضاً على ايران ما دامت تناصر الارهاب». ولكن هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس الشورى آنذاك، أكد، في نفس التاريخ، نبأ زيارة ماكفرلين مع انه نفى ان تكون الحكومة الايرانية قد اشتركت في الاعداد لها ـ حتى انه أكد ان ماكفرلين ورفاقه قد أمروا بالمغادرة حال وصولهم. في اليوم التالي، أعلن الرئيس ريغان ان هذه القصة لا أساس لها من الصحة، وحاول وضع حد للتكهنات بالقول انها قد تضر بفرص اطلاق سراح الرهائن المتبقين.

ولكن هذا النفي لم يكن له ما يثبته واستمر التداول في الموضوع لدرجة ان أصبحت أسئلة الجهاز الصحفي المتواجد في واشنطن، ملحّة أكثر فأكثر. في ٩ تشرين الثاني، ظهر تصريح جديد يوضح بأن الموافقة على سياسة تزويد ايران بالسلاح قد صدرت من جهات عليا داخل الادارة الاميركية وان هذا يمثل تحولاً في السياسة المعلنة السابقة. وبعد هذا التصريح بثلاثة أيام، أكد الرئيس ريغان الأمر خلال اجتماع مع أعضاء في الكونغرس بحضور نائب الرئيس جورج بوش. في نفس اليوم صرّح لاري سبيكس وناطق باسم وزارة العدل بأن ادوين ميز، المدّعي العام الأميركي، والرجل المسؤول عن الادعاء في قضيتي، كان يعرف بأمر مبيعات السلاح لايران، على الأقل منذ توقيع نتائج التحقيق الرئاسية في كانون الثاني ١٩٨٦، أي قبل توقيفي بثلاثة أشهر.

في ١٣ تشرين الثاني، ألقى الرئيس ريغان خطاباً متلفزاً حول الموضوع، في محاولة يائسة لمنعه من التحوّل إلى فضيحة كبرى. قال الرئيس في خطابه: «إن الأسلحة التي تمّ تزويد ايران بها هي عبارة عن كميات قليلة من الاسلحة الدفاعية وقطع الغيار»، بالكاد تكفي حمولة طائرة نقل، وبأنها لم تكن على نطاق واسع يكفي للتأثير في نتيجة الحرب مع العراق. واعترف ريغان بأن الاتصالات الدبلوماسية كانت قد بدأت منذ ثمانية عشرة شهراً، بكلام آخر منذ صيف ١٩٨٥. إن هدف هذه الاتصالات كما قال، هو الافراج عن الرهائن، وبأن شحنة من الأسلحة تحركت إلى ايران في نفس اليوم الذي أطلق فيه سراح

أحد الرهائن، القس بنجامين وير. ولكن ريغان نفى وجود صفقة مباشرة لسلاح ـ مقابل ـ الرهائن.

السلاح مقابل الرهائن: صفقة تجاريّة؟

ولكن الرئيس ريغان استخدم، في مقابلة لاحقة، كلمة 'تجارة' لوصف الصفقة. أدت التناقضات في تصريحات ريغان إلى تدمير مصداقية الادارة واشعال جدل حاد حول الموضوع. وفي اليوم ذاته، أضاف مسؤول اسرائيلي بعداً جديداً إلى القضية بإعلانه ان اسرائيل كانت، ومنذ ١٩٨٢، تمد ايران بالسلاح بموافقة اميركية صريحة.

كان كل هذا يؤكد بصورة جازمة الأقوال التي كنا نصرّ عليها أنا وباقي المتهمين طوال الوقت، حول سياسة أميركية سريّة تتعلق بمبيعات الأسلحة، وعندما تكشفت تفاصيل جديدة لاحقاً عن الكميات الضخمة من الأسلحة التي تضمنتها هذه الصفقات، بدا ان دفاعنا يكتسب قوة أكبر وأكبر. هنا أخيراً، كنت أرى في طرف النفق، الضوء الذي كنت أنتظره طيلة هذا الوقت، تزداد أشعته قوة مع كل تفصيل جديد ينشر في الصحف، وهذه المرة، بالتأكيد، لن يستطيع أحد منعي من مغادرة الولايات المتحدة.

على المدى الطويل، لم يستطيعوا، ولكنهم كالعادة أخذوا وقتهم في الوصول إلى قرار. في ١٧ تشرين الثاني، سأل القاضي ساند، لورنا سكوفيلد، إذا كانت المعلومات الواردة من واشنطن قد غيَّرت وجهة نظر الحكومة حول إذا ما كانت ترغب في متابعة القضية. أصرّت سكوفيلد في ردّها على ان العرض سيستمر، معتبرة ان التهم الموجهة ضدّنا، غير مرتبطة بتاتاً بما تم الكشف عنه من صفقات أسلحة لايران. فالتهمة الرئيسية هنا، هي ليست بيع أسلحة لايران، وانما التآمر للاحتيال على الولايات المتحدة عبر تزوير شهادات إثبات هوية المشتري.

وكان واضحاً ان القاضي ساند، أدرك بأن كشف الحقائق في الصحف غيّر الأوضاع بصورة جذرية، فأصبح موقفه منا أكثر تساهلاً، مع انه استمر في تلكؤه للتوصّل إلى نتيجة ثابتة لا لبس فيها. قال تشارلي ان قضاة آخرين كثر كانوا أسقطوا الدعوى ضدنا في الحال، ولكن ساند لم يكن منهم. في الشهر التالي أفرج قاضٍ في تكساس عن رجل أدين ببيع أسلحة من ايران، على أساس ان الحكومة الأميركيّة فعلت الشيء نفسه.

لم تمت قصة ايران ـ غيت، واضطر الرئيس ريغان لعقد مؤتمر صحفي في ١٩ تشرين الثاني قال فيه متحملاً كامل المسؤولية لقرار الموافقة على مبيعات السلاح:

> «في الوقت الذي كانت المخاطر كبيرة، كذلك كانت الفائدة المرجوة: اعادة ايران إلى حظيرة الأمم التي تدرك مسؤولياتها، ووضع حد لاشتراكها في الارهاب السياسي وإنهاء الحرب الرهيبة التي تدور في المنطقة، وإعادة رهائننا إلى الوطن ـ إن هذه الأسباب تبرر المخاطر... ونحن عازمون على الاستمرار في هذا الطريق».

عندما تكلم عن الرهائن، تساءلت إذا كان خطر في باله ان يهتم بوضعنا، أنا والآخرين، محتجزين بالرغم منا في بلد يعتبره معظمنا غريباً وعدائياً. كما تساءلت عن مدى ما كان يجري اخبار الرئيس به عندما تحدث عن صواريخ تاو:

«إنه مجرّد سلاح دفاعي. إنه صاروخ يطلق من الكتف، ونحن لا نعتقد اننا بتزويدنا ايران بهذا الشيء الدفاعي ـ قد أضفنا إلى قوتها الهجومية».

لو حاول أحدهم حمل صاروخ تاو على كتفه، فسيحصل على كتف معطوبة! ولا شك انه كان يخلط بين صاروخ تاو وصاروخ ميلان. أي رئيس هذا الذي لا يفرّق بين أسلحة أميركية وفرنسية.

سأل الصحفيون الرئيس ريغان، أكثر من مرة، عما إذا كانت الولايات المتحدة قد قامت بأي دور في عملية تزويد ايران بالسلاح من قبل اسرائيل قبل العام ١٩٨٦، فأجاب بالنفي على كل هذه الأسئلة، ولم يمرّ وقت طويل قبل ان يكتشف الصحفيون انه بنفيه هذا كان يكذب ـ إما عن قصد أو لأنه لم يتلق معلومات كافية ـ كما ان مساعديه ناقضوا هذا النفي فيما بعد.

الفضيحة لها وجه آخر: تحويل الأموال إلى الكونترا

بالاضافة إلى هذا، أعطى الرئيس معلومات خاطئة عن كمية الاسلحة المرسلة إلى ايران، وفي اليوم التالي أعلن ان أكثر من ٢٠٠٠ صاروخ تاو و٢٣٥ صاروخ هوك قد شحنت فعلاً ـ أكثر مما كانت الادارة قد اعترفت به. بعد عدة أيام ظهرت إلى العلن حقيقة تحويل الأموال إلى ثوار الكونترا.

استقال الأميرل بوينت دكستر من منصبه كمستشار الرئيس ريغان لشؤون الأمن القومي، في ٢٥ تشرين الثاني، كما أقيل الكولونيل اوليفر نورث من منصبه في لجنة الأمن القومي. وفي اليوم التالي اختير جون تاور، عضو مجلس الشيوخ ليرأس فريقاً من ثلاثة أعضاء للتحقيق في فضيحة تزويد ايران وثوار الكونترا في نيكاراغوا بالسلاح. فاضطر الادعاء للاعتراف بأن كشف هذه المعلومات قد يكون له بعض التأثير في القضية المقامة ضدنا، وأخبر بنيتو رومانو، أحد زملاء لورنا سكوفيلد، القاضي بأن «الواضح ان حقائق جديدة قد برزت إلى الضوء، مما يوجب الاطلاع عليها كلياً وتقييمها . . . وعلينا ان نحاول مراجعة القضية برمتها في ضوء المستجدات الأخيرة».

أعلن القاضي، انه صار بامكاني والمتهمين الآخرين من خارج اميركا، حجز مقاعد على الطائرات، على امل ان يستطيع السماح لنا بالعودة قبل عيد الميلاد. ولكنني كنت قد لاحظت ان ما معي من نقود لن تكفيني حتى ذلك الوقت، فبدأت أعمل فكري في كيفية الحصول على المزيد. كنت أدرك ان الشيء الوحيد الذي أملكه برسم البيع هو قصتي التي قد تكون أصبحت بعد فضيحة ايران ـ غيت، شيئاً له قيمة.

كيف خطرت لي فكرة هذا الكتاب

أجريت اتصالات مع مكاتب في نيويورك تمثل مجلات المانية ومحطات تلفزيونية، لعرض اجراء مقابلات. كانت الأولى مع القناة التلفزيونية ZTF التي دفعت لي مبلغ ٤٠٠ دولار. سألني المراسل الذي أجرى المقابلة إذا كنت سأقاضي حكومة الولايات المتحدة بتهمة سجني دون وجه حق، فأجبته بأنني سأفعل وسوف أطالب بتعويض مقداره ٢٠ مليون دولار، بما في ذلك مبلغ مليوني دولار، قيمة صفقات تجارية خسرتها نتيجة غيابي الاضطراري عن لندن. ومن الممكن ان أفعل ذلك فعلاً ولكن الأمر يتوقف على ما يمكن ان يحدث من مستجدّات في القضية. بعدما أجرت مجلّة در شبيغل مقابلة أخرى معي، دفعت لي مقابلها ٧٠٠ دولار وأنزلتني في فندق انتركونتيننتال في بارك افينيو، لبضعة أيام على حسابها.

وافقت أيضاً على طلب من شبكات تلفزيونية اميركية لمقابلتي، ولكنني لم أتاقض عنها شيئاً. بعد المقابلة الأولى ذهبت إلى بار، في الجهة الأخرى من فولي سكوير، اعتدت ان ارتاده قبل وبعد جلسات المحكمة. وبينما أنا هناك ظهر على جهاز التلفزيون الموضوع خلف البار، عرض لاحدى المقابلات التي أجريتها، فتعرّف رواد البار الآخرون إلى وجهي وبدا عليهم الاهتمام.

قال أحدهم بلكنته الأميركية وبأعجاب: «إذن أنت واحد من سماسرة الموت؟» عندما أكدت له ذلك، كانت ردة فعل الجميع مثيرة للاهتمام. بعد كل الدعايات والأكاذيب التي أطلقها الادعاء ضدي وضد المتهمين الآخرين، لم أكن لأستغرب لو تجاهلني الموجودون في البار باحتقار، ولكنهم على عكس ذلك، أظهروا حماسهم للاستماع إلى وجهة نظري حول ما حدث، وعندما انهيت كلامي، أظهروا عطفهم ودعمهم لي بالطريقة الأكثر واقعية ـ دفعوا ثمن مشروبي لبقية الأمسية. لم أكن على خصام مع الشعب الاميركي، بل مع حكومته.

سالي: وحدة الحال وشقّة في مانهاتن

في احدى الأمسيات، وبينما أنا عائد بمفردي من جلسة في المحكمة وجولة في بارات مانهاتن، سنحت واحدة من الفرص النادرة التي يفتقدها رجل في مثل حالتي والتي غابت عن حياتي بشكل ملحوظ لأكثر من عام كامل. كان المطر ينهمر بغزارة عند وصول القطار إلى محطة وست بورت، ولما كانت فكرة العودة إلى المنزل غير معقولة، فقد ركضت إلى سيارة أجرة حيث وجدت امرأة قد سبقتني، ولكن المشاركة في ركوب سيارة أجرة هو أمر عادي في وست بورت. كانت المرأة في الثلاثين من عمرها يبدو عليها حسن المظهر، وكانت ترتدي معطفاً من الفراء الغالي الثمن. كنا كلانا قد أكثرنا من الشراب ولذلك كنا أميل للثرثرة اكتشفت انها تدعى سالي وانها كانت متزوجة ولكنها طلقت من زوجها. أثار كل واحد منا

بعض الاهتمام بالآخر: وأعتقد اننا كنا، مع اختلاف الأسباب، نشعر بوحدة قاسية؛ دعوتها لتناول كأس من الخمر، واكتشفنا اننا ننسجم بطريقة رائعة.

أخذتني إلى بيتها القريب من وسط المدينة. كان المبنى مميزاً. مع مدفأة حائط كبيرة. وهو بالتأكيد أفضل من المكان المنفّر الذي أسكن فيه. تحدثنا تلك الليلة الأولى لوقت طويل قبل ان أعود متأخراً إلى غرفتي، ولكننا سرعان ما أصبحنا عاشقين: وصرت أمضي كثيراً من الوقت معها.

كانت تملك أيضاً، شقة في مانهاتن في شارع ٥٧ غرب، في حي ستون بلايس الأنيق. كان الأمر ملائماً، إذ أصبح لديَّ مكان أبيت فيه أثناء انعقاد الجلسات المتعددة، بينما كنا نحاول اقناع القاضي بالسماح لي باستعادة جواز سفري ومغادرة أميركا. كما أخذتني سالي إلى أماكن لم أكن أستطيع الوصول إليها وحيداً، والتي كانت توافق نمط الحياة التي تركتها خلفي في لندن ـ أماكن مثل بار تايغر في نادي برنستون الذي تنتسب إليه وكان هذا هو المكان الذي يتجمع فيه الرجال الذين يسيطرون على كل النشاطات في المدينة، وفكرت انني لو كنت حراً لإجراء صفقات تجارية، لوجدت الكثير من الزبائن.

إن وجود مقر في مانهاتن، سمح لي أيضاً بالتجول في أنحاء نيويورك لأول مرة. كنت في هذا الوقت قد تعرفت إلى المنطقة التي يقع فيها مبنى المحكمة بشكل جيد، أما الأحياء الأخرى من المدينة فلم أعرفها إلاّ من خلال تلك اللمحة البسطة من أعلى مبنى بيكمان تاور ليلة إلقاء القبض عليَّ. ولكنني عندما تجولت فيها اكتشفت بسرعة انها أقذر مدينة رأيتها في حياتي. لقد زرت بومباي وكلكوتا وكولومبو: بشكل أو بآخر، كنت أتوقع ان تكون هذه المدن في العالم الثالث قذرة وفقيرة، ولكنني لم أتوقع ان تكون نيويورك الحداثة والأعمال التجارية الكبيرة والتكنولوجيا المتقدمة بهذا السوء؛ ولكنها كانت.

كانت رائحة العرق البشري في بعض الأماكن لا تطاق، وأما الذين لا مأوى لهم فينامون في الأزقة وفي محطات القطارات والحافلات، مهملين إلاّ من قبل رجال الشرطة الذين كانوا بين الوقت والآخر يوقظونهم ويجبرونهم على ايجاد مأوى آخر.

نيويورك: حشاشون ومتسكّعون

شيئان لم أستطع اقتلاعهما من ذاكرتي عن محطة قطارات غراند سنترال: الأول، رجل يجلس على الأرض ينقّب أظافر رجليه، أصابني منظره بالغثيان، والثاني هو عندما اشتريت ساندويشاً من النقانق في المحطة أثناء انتظار القطار، وفجأة امتدت يد سوداء من فوق كتفي وسحبت قطعة النقانق من داخل السندويش واختفت. ذكّرتني الحادثة بالرجل الذي فعل الشيء نفسه بقطعة النقانق التي كنت أحاول رميها في مطعم السجن.

أما حي «تايمز سكوير» والشوارع المحيطة به فهي المثال الأكثر حقارة، ومثاراً للاستغراب في كل نيويورك، ولا يوجد شبيه لها في بريطانيا أو أي بلد آخر في أوروبا. كان

رجال ونساء مخدّرين، ضائعي الهوية وفي كثير من الأحيان يبدون كالمجانين، يتسكعون في الطرقات وحول الزوايا بعيون لا تستطيع التركيز يتاجرون علناً بالمخدرات. وكانت المحلات التي تبيع صور العراة وأفلام الجنس الفاضحة، وتعرض راقصات التعرّي، قذرة وحقيرة لدرجة انها تطفىء الرغبة الجنسية لديك لمدى الحياة ـ وإذا لم تستطع، فعلت ذلك البغايا والعاهرات اللواتي كن يحاولن اقتناص الزبائن في الزوايا وأمام مداخل الفنادق الأكثر بشاعة مما رأيت في حياتي، وقد بَدَون شبه احياء. وعلى الواحد ان يكون بالفعل يائساً ليذهب برفقة احداهن، وعندها، حتى إذا نجا من السرقة، اعتقد انه سيلتقط جراثيم كل الأمراض المعروفة في العالم.

إنها ليست أبداً منطقة الاثارة التي تحاول الافلام تصويرها: ان الاثارة الرئيسية، هي ان تخرج في المساء دون ان ينشل أحدهم محفظتك. إن الناس هناك يقومون، علناً، بتدمير حياتهم وحياة الآخرين، ومع هذا لا تقوم سلطات الأمن بأي عمل حيال ذلك، ولكنها بدلاً من ذلك تكرس جهودها في محاولات اختراع جرائم، حيث لا توجد جريمة، لايقاع رجال الأعمال الذين يحترمون القانون مثلي.

ولم تكن تجربتي مع مطاعم نيويورك المشهورة والفخمة مختلفة، فهي تساوي كل شيء سوءاً. ذهبت إلى مطعم مشهور بتقديم شرائح اللحم في وسط المدينة، وكنت أشتهي وجبة محترمة بعد ان مللت من الطعام الصيني، وبلغ بي الحمق درجة ان اسمح للنادل باختيار طبق طائر الحجل البرّي. لم يكن الطير مطهياً بصورة جيدة ولذلك كان قاسياً وكأنه أوزة من الكاوتشوك، كما يبدو وكأنه تحمل ١٠ آلاف ساعة طيران، وفوق ذلك كان محروقاً وغير صالح للأكل. عندما أبديت تذمّري، تصرّف النادل ومدير المطعم بطريقة فظة خالية من التهذيب، ودفعت أخيراً مبلغ ٦٨ دولاراً ثمن غداء لواحد.

لم أزر الولايات المتحدة قبل هذا الوقت، ولم أحس يوماً برغبة في زيارتها، ومن الناحية العملية، لم يكن هناك أية ضرورة لذلك. كانت معظم صفقاتي مع دول شرق أوسطية، وفي سوق السلاح كان الأميركيون باعة وليسوا مشترين ولهذا لم يكن لي زبائن بينهم. كما انك لست مضطراً لعبور الاطلسي لشراء البضائع الأميركية: إنها متوفرة في كل مكان في العالم تقريباً. ولهذا فإن زيارتي الأولى التي أتت بعد تردّد إلى أرض الغرب الموعودة، ستكون إذا استطعت، زيارتي الأخيرة بالتأكيد.

* * *

السعي لاستعادة جواز السفر

كان سام، الذي أقام مع أحد اصدقائه في وسط حي مانهاتن، الأول الذي استعاد جواز سفره. كنا جميعاً نأمل بأن نستطيع العودة إلى منازلنا للاحتفال بعيد الميلاد، ولكن الادعاء استمر في وضع عراقيل سخيفة في طريق ذلك، وأصبح واضحاً اننا لن نتمكن من

ذلك. وكان أحد الأسئلة التي أعاقت الاجراءات، هو إذا ما كانت الحكومة الاسرائيلية ستمنع المتهمين من رعاياها من العودة إلى نيويورك لحضور المحاكمة. إذا صحت التقارير بأن اسرائيل كانت تلعب دوراً أساسياً في تأمين السلاح لايران، فإن الحكومة الاسرائيلية قد لا ترغب في ان يتعرض اسرائيل وغوري ايزنبرغ، ووليام نورثروب وبالأخص ابراهام بارعام للمناقشة على منصة الشهود في محكمة اميركية.

كما كانت هنا شائعة بأن لوران والش، قد يتولى الادعاء في قضيتنا، وكان الرئيس قد عيّنه، كمحامٍ مستقل، لتمثيل الادعاء في كافة القضايا الناشئة عن فضيحة ايران ـ غيت. لو وافق والشْ على تسلم الدعوى لكان ذلك نعمة للمتهمين، لأن ذلك سيعني اعترافاً رسمياً بأن قضيتنا مرتبطة بصفقات الأسلحة التي كان اوليفر نورث عقلها المدبِّر.

أصرَّ الادعاء دائماً على القول بأن لا علاقة بين القضيتين، وكانت لورنا سكوفيلد قد أعلنت في تشرين الثاني بأن الأميرال بوينت دكستر أكد لها بأنه لم يكن للمتهمين دور في أية صفقة حكومية ـ كنت متأكداً بانه يكذب. كما ادعت أيضاً، فيما اعتبرته منطقاً لا يدحض، بأن هناك فارقاً أساسياً بين الحالتين: لم يتم في صفقات نورث، تزوير شهادات اثبات هوية المشتري، وكانت هذه نقطة تافهة، لأن أحداً من مجموعتنا لم يستخرج أية شهادات مزورة كذلك. كنا قد تحدثنا عنها بهدف التأثير على المشتري فقط.

لم يوافق القاضي على السماح لأي منا بمغادرة أميركا، إلى أن أعلن قرار والش برفض تولّي القضية في كانون الثاني. وحتى عندما أصبح واضحاً بأننا سننال الموافقة على المغادرة، كانت الأمور تسير ببطء مؤلم، وبحلول شباط كنت في حاجة ماسّة للنقود. كان ما تسلمته من أهلي ومن مقابلاتي مع الصحف الالمانية قد اختفى منذ فترة طويلة، أكثره في جيوب أصحاب البارات في وست بورت وفي مانهاتن السفلى.

وافقت سالي على اقراضي مبلغ ١٥٠٠ دولار اضافي احتجته كتأمين لاستعادة جواز سفري، ولكنني رأيت من الحكمة ألا أبقى في شقتها في ما اعتقدته الأيام الأخيرة لوجودي في نيويورك. فأقمت في فندق في همستد، قرب مكتب تشارلي، وكنت، مثل باقي المتهمين الذين ينتظرون موافقة القاضي النهائية، أعيش حالة توتر وترقب دائمين. وكان الأمر يبدو دائماً وكأننا سننتهي في يوم أو يومين، وفي كل يوم تنشأ عقبة جديدة.

كنت، بالاضافة إلى مبلغ ١٥٠٠ دولار، احتاج إلى ضمانات يوقّعها أهلي ونْوا بقيمة ٥٠ ألف دولار فوق ما كان والداي قد تعهدا به. كما ان المحكمة طلبت من السفارة الالمانية، تأكيدا بأن الضمانة التي قدمها والداي يمكن تطبيقها قانونياً. كنت أحجز مقاعد على الطائرات المتجهة إلى لندن يومياً، وفي ١٧ شباط، بدا الأمر وكأننا سنتمكن من المغادرة تلك الليلة، ولكن الجلسة تأخرت لدرجة لا يمكن معها القيام بما يجب عليَّ القيام به قبل المغادرة. وكانت مشكلتي الكبرى انني فرغت من النقود.

كنت قد انتقلت في ١٣ شباط إلى فندق غراميرسي بارك في مانهاتن، لأكون قريباً من

المحكمة وعلى طريق المطار، ولكن ذلك يكلّف ١٠٠ دولار يومياً، فانتقلت في اليوم التالي إلى مكان أرخص كلفة وأقل فخامة في حي تايمز سكوير، وعندما عددت نقودي بعد جلسة ١٧ شباط، لم أجد في جيبي أكثر من ٨٠ سنتاً، لم تكن كافية حتى للانتقال بواسطة القطارات الأرضية من المحكمة إلى منطقة تايمز سكوير. كنت قد قرأت كثيراً بأن نيويورك هي أسوأ مكان لتكون مفلساً فيه، وها إنني أخوض هذه التجربة شخصياً.

كان لديَّ مع ذلك، بطاقة فيزا للائتمان، وكان هناك فندق واحد على مسافة قريبة من مبنى المحكمة يمكن الوصول إليه سيراً على الاقدام. وكان هذا الفندق، لسخرية القدر، فندق فيستا في مركز التجارة الدولي - نفس الفندق الذي ظن بعض من زملائي المتهمين انهم متوجهون إليه عندما تمَّ القاء القبض عليهم في نيسان الماضي، وهو ملاصق لمبنى قيادة دائرة الجمارك الأميركية حيث نقلنا جميعاً للاستجواب الأولي. لم استسغ فكرة قضاء آخر ليلة لي في نيويورك بقرب هذا المكان بذكرياته المؤلمة، كما ان مبلغ ٢٤٠ دولاراً لليلة الواحدة كان غير معقول: ولكنه كان الخيار الوحيد أمامي.

أحسست بفرصة رهبة عندما مررت بجانب مبنى الجمارك. وتخيلت ان أحدهم ينتظرني لينقض عليَّ ويأخذني لنبدأ القصة من جديد. ولكن رهبتي بقيت مجرد تخيلات فلم يعترضني أحد، ولما كنت عضواً في نادي هيلتون/فيزا، فقد حصلت على غرفة رائعة في أعلى مبنى الفندق، وسمحت لي ادارة الفندق باستبقائها حتى السادسة من مساء اليوم التالي - وهو وقت كافٍ للانتهاء من الشكليات الأخيرة. وما دمت مقيماً في الفندق، كان باستطاعتي تحويل كل مصاريفي على حساب بطاقة الائتمان - مكالماتي الهاتفية، وجبات طعامي، مشروبي وحتى سجائري من كشك الجرائد الملحق بالفندق.

حللت مشكلة الانتقال إلى المطار بحجز مقعد درجة ممتازة على طيران «فيرجين اتلانتيك»، وتضمن هذه الدرجة خدمة سيارة ليموزين دون مقابل إضافي. كان هذا يدعوني لأن أكون شاكراً لفكرة بطاقة الائتمان التي تغنيك عن حمل النقود، ولكنني كنت في الوقت نفسه أجد غرابة في الأمر: فأنت، إذا لم يكن لديك نقود، مضطر للجوء إلى الخدمات الأغلى ثمناً. لم أستطع النوم بسبب توقعاتي وحماسي، فشاهدت فيلمين آخرين على شاشة التلفزيون السلكي في غرفتي - ١٤ دولاراً أخرى تضاف على حساب البطاقة.

كان المفترض أن أقابل تشارلي في كانتين المحكمة عند الحادية عشرة من صباح اليوم التالي للانتهاء من آخر الاجراءات، ولكنه تأخر لمدة ساعتين وجلست أنا في الكانتين أحتسي فنجان القهوة الوحيد الذي كان بإمكاني شراءه، وفي الوقت الذي وصل فيه تشارلي كنت قد أصبحت حطاماً عصبياً. أخذني إلى مكتب الكفالات حيث دفعت مبلغ الـ ١٥٠٠ دولار الذي كانت سالي قد أقرضتني اياه، ووقعت صكاً بقيمة ٨٠ ألف دولار - كنت سأوقع على ٨٠ مليون دولار لو طلبوا ذلك. من هناك كان عليَّ الذهاب إلى مكتب المدّعي العام لتسليم بعض الوثائق وأطلب منهم الاتصال برجال الجمارك لاستعادة جواز سفري.

لم أستطع تحمل الذهاب إلى المكتب حيث التقيت لأول مرة بالمسؤولة عن سومي العذاب، لورنا سكوفيلد، فطلبت من تشارلي ان يذهب بنفسه. عاد بعد نصف ساعة وتوجهنا إلى مبنى الجمارك، حيث طلب تشارلي رؤية دنيس دويل، الرجل ذو الوجه الأنقر، الذي كان مسؤولاً عن توقيفي. كنت قد ألححت على تشارلي لمرافقتي، لأنني سمعت ان دويل، استبقى رالف كوبكا لمدة ساعة عندما ذهب لتسلم جواز سفره، في محاولة أخيرة للحصول على اعتراف منه، ومع انه لم يكن لديّ شيء لأعترف به، إلاّ انني لم أرغب لقاء دويل وحيداً.

الشعور بالأمان: استعادة جواز السفر

من الصعب وصف الشعور بالأمان الذي أحسست به عندما أصبح جواز السفر في جيبي. انه كتيّب صغير روتيني يأخذه الجميع باستهانة ـ حتى يُصادر منهم بالقوة. عندها يشعر الانسان وكأنه عصفور قصّ جانحاه: غير قادر على الطيران وعرضة سهلة لكل طير من الجوارح.

دعوت تشارلي لغداء متأخر في الفندق احتفالاً بهذا الانجاز وعندما تسلمت فاتورة الغداء بمبلغ ٩٠ دولاراً وقعتها بسرور، معتبراً انه استحقها برغم المحاولات الدائمة لمعرفة مكان تواجده دون ان نذكر تأخره المعتاد. عدت بعد الغداء إلى غرفتي للاستحمام وحزم امتعتي القليلة، وقبل السادسة بقليل دفعت الفاتورة ـ ٢٧ , ٥٤٤ دولاراً لمبيت ليلة واحدة في فندق بما في ذلك الافلام والوجبات وعشرات المكالمات الهاتفية. في السابعة حضرت سيارة الليموزين وأقلّتني إلى مطار نيويورك والطائرة المغادرة في العاشرة مساء.

أحسست بالارتياح عندما علمت ان البار هناك يقبل التعامل ببطاقات الائتمان: فأنهيت معاملاتي وعدت لأجلس في البار، مع عدة كؤوس من الجن والصودا، في حالة من التوتر فوق الاحتمال، والرعب يتمالكني من احتمال سماع اسمي عبر مكبّر الصوت، لأن ذلك كان سيعني انهم اكتشفوا سبباً جديداً لمنعي من السفر، وقررت ما سأفعله في هذه الحالة: كنت سأسرع هارباً واستقل سيارة أجرة إلى محطة غراند سنترال حيث كنت سأختفي على متن قطار متوجّه إلى كندا. كنت أحسّ بالغثيان كلما بدأت إذاعة اعلان من ادارة المطار.

قالت المراقبة عند بوابة المغادرة: «باستطاعة ركاب الدرجة الأولى الممتازة، التوجه إلى الطائرة على راحتهم». وكانت راحتي الآن، في هذه اللحظة، شكراً سيدتي ـ وكنت قد أصبحت في مقعدي قبل أن تنهي اعلانها. في الطائرة أحسست باطمئنان أكثر قليلاً. وتضاعف هذا الاحساس عندما بدأ تسارع الطائرة على المدرج استعداداً للاقلاع. وقبل ان نتجه شرقاً عبر «لونغ ايلاند» باتجاه الاطلسي، ألقيت آخر نظرة حاقدة على أضواء مانهاتن الكريهة. أخيراً، أصبحت خارج قبضتهم.

كنت متحمّساً، لأن أشارك الركاب الآخرين فرحتي، فما كادت كؤوس المشروب توزع علينا حتى بدأت بسكب اخبار تجربتي في آذان مَن يستطيع سماعي. عندما أخبرتهم بما حدث، تعاطفوا معي وهنأوني على نجاتي، ثم شاركوني الاحتفال بتناول الشمبانيا على حساب شركة الطيران. كانت شركة «فيرجين ايلاند» تفتخر بمقاعد الدرجة الممتازة التي تسمح للركاب بمد أرجلهم على مداها أثناء النوم، ولكنني اعتقد انها راحت هباء في حالتي - لم يكن النوم وارداً أبداً.

رحلة العودة إلى القاعدة

كان صباحاً جليدياً بارداً في منتصف شباط، وكانت الشمس قد بزغت منذ ساعتين تشع على ريف ساسكس، عندما حطت طائرة الجمبو في مطار غاتويك. كان كل شيء يبدو طبيعياً لدرجة انني احسست لبرهة خاطفة ان العشرة أشهر الماضية كانت مجرّد كابوس مرعب، أصابني أثناء رحلة العودة إلى الوطن. ثم تخيلت ان كل هذا كان حلماً وكأنني لا أزال أتقلب في نومي المتقطّع في غرفتي بفندق فيستا.

لم يكن لديَّ أمتعة فلم انتظر وذهبت مباشرة إلى مسار الجمارك الأخضر: **لا شيء لأعلم عنه سوى كراهية لا تموت للولايات المتحدة الأميركية**. وعندما رأيت نْوا تنتظرني خارج قاعة الجمارك، تأكدت انني لم أكن أحلم. كان رائعاً ان أراها بعد هذه الأشهر الطوال. كانت تبدو أنحف مما كانت عندما تركتها - وأنا كذلك - وكنت أستطيع ان أعرف من وجهها مدى الارهاق الذي تعرضت له بسبب غيابي عنها.

أقلتنا سيارة شركة الطيران إلى الشقة الارضية في كريكلوود والتي كنت أستخدمها كمكتب لي. كانت نْوا قد بذلت جهدها لجعلها مريحة، ولكن الجو ما زال يوحي بمكان عمل أخلي على عجل. هناك اسلاك عارية في المكان الذي خُلع منه جهاز التلكس، أما أدراج الملفّات فكانت شبه خالية، وبدا وكأن شريكي جون سوندرز قد مرّ عليها وأزال كل ما يتعلّق بصفقات لا تزال قيد البحث. علمت فيما بعد، ان بعضاً منها قد أبرم، ولكنني لم أتلق أية مبالغ. كما كنت ألوم جون على خسارة بيتي في ملّ هيلّ الذي استخدمته كضمان في صفقة طائرات البفالو للسودان. إنني أعتقد ان جون يقيم الآن في السعودية، وإنني آمل لمصلحته ألا نلتقي ثانية، مع انني كنت أتمنى ان أضع يدي عليه.

كانت كآبة شقة كريكلوود عنواناً صارخاً للدمار الذي لحق بأعمالي وكنت مؤمناً ان السلطات الأميركية مسؤولة كلياً عن ذلك. كنت بحاجة لاعادة بناء كل شيء من جديد - من الصفر تقريباً.

ليس بعد! كنت في حالة نفسية جعلتني أؤجل، قدر ما استطيع اليوم الذي كان عليَّ ان أواجه فيه حقيقة أوضاعي. كنت سأكرسّ اليوم الأول للراحة وللتعرف على نْوا من جديد. أمضينا وقتاً طويلاً في الفراش، وباستطاعة الأعمال ان تنتظر.

في اليوم التالي طرت إلى كولونيا لزيارة أهلي. كنت أرغب في شرح الوضع لهم وشكرهم على تقديم الكفالة. لا أعتقد انهم استطاعوا فهم ما جرى، ولكنهم قبلوا تأكيداتي بأنني كنت ضحية بريئة. وكان أمراً جيداً ان تأكل ما استطعت دون ان تقلق حول قيمة الفاتورة.

رجوع هيرمان إلى الحَلَبة

لاعادة تأسيس عملي، كان عليَّ ان أجري مكالمات هاتفية لمعارفي القدماء وانشر الخبر: لقد عاد هيرمان إلى الحلبة. كان سام ايفانز في هذا الوقت قد أعاد تأسيس عمله وكان يحاول عقد صفقات، ولكنه هذه المرة راح يتاجر بالنفط بدلاً من السلاح. بعد ان لدغ مرة، لم يكن سام مستعداً لمحاولة الاتجار بالسلاح ثانية، ولكنني لم أشاركه تردّده، فبعد كل شيء، كان هذا أفضل ما أجيد. أجريت اتصالات عدة لمعرفة البضائع المتوفرة وحاولت إثارة اهتمام أكثر من طرف، وسرعان ما اكتشفت ان هناك الكثير من الأسلحة المعروضة للبيع والكثير من الزبائن على استعداد للشركاء. كانت اللعبة، كالعادة، تتمثل في امكانية جمع الاثنين معاً.

المشكلة الأولى التي واجهتها، هي خسارة مداخيلي المضمونة من وكالات الاعلان. إن أحد أصدق الشعارات في التجارة هو انك اذا أردت ان تكسب مالاً، فأنت تحتاج لمال، ويصح هذا بالأخص إذا كنت تحاول عقد صفقات أسلحة. إذ يتوجب عليك ان تكون قادراً على تحمل الأعباء الباهظة التي يفرضها هذا النوع من الصفقات. إن الكثير يعتمد على الصورة التي تظهر بها ـ اللباس الذي ترتديه، النوادي التي تنتمي إليها، البيت الذي تسكنه ونمط حياتك بشكل عام. إذا قال «الشباب» في فكتوريا ستريت: «تعال إلى ايران». وأجبتهم أنا: «اشتروا لي بطاقة السفر». عندها أخسر هذه الصورة، وفي تجارة السلاح الدولية، لا يمكن لأي منا ان يتحمل هذه الخسارة، كما ان أحداً لن يهتم ببحث صفقة بملايين الدولارات مع شخص يسافر في الدرجة الثانية.

يجب ان يكون لديك سكرتيرة لطبع رسائلك بطريقة جيدة والاجابة على الهاتف: إنها طريقة أفضل بكثير من الجهاز الآلي لتلقي المكالمات. كما انك تحتاج لورق رسائل من النوع الفخم. وأنت تحتاج نقوداً لدعوة زبائنك إلى المطاعم. كنت قد احتفظت بعضويتي في نادي السفراء لفترة قصيرة بعد عودتي، ولكنني تخليت عنها عندما نفد صبرهم، لأسباب أفهمها، حول عدم قدرتي على دفع الفواتير. إن المنافسة في هذا الحقل شديدة، ولكي تنجح يجب ان يكون لديك شيء خاص مميز تقدمه. إن الشيء الفريد الوحيد الذي كان لديَّ بعد عودتي من أميركا، هو انني وقعت في قبضة السلطات هناك وأمضيت ستة أشهر ونصف في السجن، ولم يكن هذا ما يبحث عنه كبار الزبائن عند اختيار مَن يتعاملون معه.

لم يكن في تجارة السلاح ما يمكن ان يدعي «بالسرقة»، أو **الصفقات السريعة**. لا يمكن انهاء أي عمل في اسبوع: كل شيء يستغرق وقتاً طويلاً. إن الصفقات التي تثمر من بين

مجموع الصفقات التي تبدأ العمل عليها، لا يتجاوز العشرة بالمئة. إذ تبدأ المشاكل عندما تطلب كتاب الاعتماد المصرفي، أي عندما تطلب من العميل اثبات كلامه، عندها تستطيع ان تكتشف اذا كانت الصفقة ستنجح، أو انها ستكون مجرد اخفاق آخر. بالنسبة لي، تصبح الصفقة حقيقية «عندما أرى لون نقود العميل»، وقد يكون كافياً ان يتمثل ذلك برسالة تلكس من أحد المصارف يؤكد وجود المال. في اللحظة التي أحصل على هذا التعهد، اعتبر الصفقة في حكم المُبرمة، ويكون القسم الغالي الثمن بالانتظار.

ولكن أحد الأمور المثيرة في هذه التجارة، هو ان مكالمة هاتفية واحدة قد تغيّر كل شيء. فبينما أنت جالس تفكر بطريقة لدفع فاتورة الغاز مثلاً، يتصل أحدهم لديه مشكلة باستطاعتك المساعدة في حلّها. إن ذلك يعتمد كثيراً على مدى اتساع دائرة معارفك، على مَن تعرف وعلى مرونتك. إذا اتصل أمين لوازم الجيش في احدى دول الشرق الأوسط مثلاً، يطلب عرضاً لاسعار ٢٠ ألف طن من الدجاج المجلّد، يجب ان أكون قادراً على تأمين العرض، وهذا هو محور اللعبة كلها. ولما كانت مصاريفي قليلة، كنت قادراً على تحقيق أرباح من صفقات صغيرة.

إن الكثيرين يقعون في الخطأ الكبير، فهم يسعون وراء صفقة العمر السريعة التي يتوقعون ان تكون بقيمة ١٠٠ مليون دولار، لتبلغ عمولتهم ١٠ ملايين دولار وانتهى الأمر. ولكن إذا حدث مثل هذا مرة كل خمس سنوات فإنهم يكونوا محظوظين بحق. أما أنا فأسعى وراء الصفقات المتوسطة الحجم لأنها واقعية وقابلة للنجاح.

سمسار يعود إلى عالمه المعهود

لم تمر أسابيع قليلة على عودتي، حتى وجدت نفسي في عالمي المعهود المليء بالايماءات والتلميحات والاحتمالات المثيرة. التقيت برجل الماني كان سيطير في اليوم التالي إلى الرياض لدراسة السوق واكتشاف حاجة الجيش السعودي للوازم والأسلحة. إذا كانوا يريدون نصف مليون من الجوارب كنت أستطيع تأمينها. كنت أعرض أسعاراً معقولة ولي اتصالات مع مصانع في الشرق الأقصى، ومن جهة أخرى إذا كانوا بحاجة لصواريخ، فإنني أستطيع تأمينها أيضاً.

سمعت ان الايرانيين مهتمون بالاتفاق مع مصنع يساعدهم بصيانة دباباتهم بأنفسهم ويؤمن لهم محركات جديدة، دون الحاجة إلى اعتماد أشخاص كالاسرائيليين للحصول عليها. حتى لو انتهت الحرب مع العراق غداً، فإن حاجتهم لمعدات كهذه لن تتلاشى، لأنهم مضطرون لاعادة بناء قواتهم المسلحة. كانت الصفقة في حدود ١٠ ملايين دولار، تجنى منها شركتي حوالي مليون دولار. ثم سمعت عن صواريخ سام من صنع أوروبا الشرقية فعرضتها على الايرانيين ـ ولكن السوق لم يكن مفتوحاً بسهولة أمامي منذ عودتي من أميركا. فلم يبد جماعة فكتوريا ستريت أي ودّ نحوي، ولهذا لم أشعر بالأسف عندما أمرتهم الحكومة البريطانية بحزم حقائبهم والرحيل عن بريطانيا.

كما عملت على صفقة نفط من نيجيريا، عندما تلقى صديق لي عرضاً بمبادلة ٢٠٠ ألف برميل من نفط بوني الخفيف بأسلحة. ولما لم يكن هو يعرف شيئاً عن سوق النفط، أخذت المهمة على عاتقي وتوصلت إلى نتائج جيدة: كنا نستطيع طرح النفط في السوق الفوري بأسعار تقل عن المعدل بخمسة دولارات ونتقاسم الأرباح.

وتلقّيت رسالة من شركة حول منتج جديد تم تطويره، وهو عبارة عن جهاز معيّن لمدى إطلاق النار بواسطة اللايزر، أرخص وأفضل من أي شيء متوفر في السوق. إن الكثيرين لا يدرون كيف يسوّقون جهازاً كهذا. فبدأت بإعداد خطة لبيعه في الشرق الأوسط وأميركا الجنوبية. وكانت الطريقة الوحيدة لعمل ذلك هي بأن تحمل جهازاً بيدك وتسافر إلى أبو ظبي، ودبي وعُمان والسعودية لعرضه هناك. كانت مهمتي هي تأمين مواعيد للمصنعين للذهاب وعرض منتجاتهم على المسؤولين شفي جيوش هذه الدول، وتجربتها. إذا نجحت التجربة نكونقد أبرمنا صفقة، وفي هذه الحالة أتلقى حصتي منها.

أسلحة للبيع

بعد أسابيع قليلة من عودتي إلى لندن، أعددت لائحة بالاسلحة المتوفرة للبيع فيما اعتبرته دليل «عرض خاص بإعادة الافتتاح الكبير» للاعلان من عودتي إلى المسرح. وفيما يلي هذه اللائحة:

١ - منتجات جاهزة للتسليم الفوري - فوب أوروبا

المواصفات	الكمية	السعر الافرادي
صواريخ سايد وايندر	٢٠٠	٣٣٠٠٠ دولار
صواريخ ١٢٢ ملم	١٠٠ ٠٠٠	١٤٥٠
صواريخ سام ٢	١٠	٣٢٠٠٠٠
مدفع ذاتي الحركة زي ٤	٦	١,٣ مليون دولار
بندقية كلاشنكوف (صنع بولندا) (أك ٤٧)	٥٠٠٠	١٧٦
طلقات للبنادق أعلاه	١٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١١٥ دولاراً للألف
صواريخ سام ٧	٨٠٠	٢٦٥٠٠
منصّات اطلاق سام ٧	٢٠٠	٥٥٠٠
منصات اطلاق أر بي جي ٧	١٥٠٠	١٦٧٠
مقذوفات مجوفة أر بي جي ٧	٥٠٠٠٠	١٥٨
قذائف ١٣٠ ملم	١٠٠ ٠٠٠	٢٨٥
قذائف ١٢٢ ملم	١٨٠٠٠	٢٨٠
مدفع كامل ١٣٠ ملم	١٠٠	١٨٥٠٠٠
منصة اطلاق صواريخ ١٢٢ ملم (ذاتية الحركة)	١٠٠	١٨٥٠٠٠

٢ - منتجات من اسرائيل

المواصفات	الكمية	مطلوبة لِـ
طائرات استطلاع لميدان المعركة (يعسوب) «درون» بدون طيّار، مع ضمان استمرار تزويد قطع الغيار	١٠	الهند
طائرات ف ٥	٢٥	البرازيل
صواريخ تاو	١٠٠	جنوبي افريقيا
منصات اطلاق	٢٠	جنوبي افريقيا
صواريخ ستنجر	١٠٠	جنوبي افريقيا
منصات اطلاق	٢٠	جنوبي افريقيا
صواريخ أر بي جي ٧	١٠٠	جنوبي افريقيا
منصات اطلاق	٢٠	جنوبي افريقيا
بندقية رش موزبيرغ ٨ طلقات	٢٠٠	جنوبي افريقيا

يعرض بضاعته للقارىء .. في كتاب

في الوقت الذي تقرأ فيه هذا الكتاب، قد لا أكون بعت أياً من هذه البضائع، وربما أكون قد أتممت صفقة واحدة تعيدني إلى الطريق نحو الثروة والحياة التي أشتهيها. ومن الممكن أيضاً ان يتدخل العم سام ويحاول تدمير عملي مرة أخرى من خلال دعوتي إلى العودة إلى نيويورك لحضور المحاكمة. في صيف ١٩٨٧ أسقط القاضي كل الاتهامات المتعلقة بالتحايل الهاتفي والبريدي، مبقياً فقط تهمة التآمر لتزوير شهادات اثبات هوية المشتري، ولكن الادعاء استأنف القضية ضد هذه القرارات، مما يوحي بأنهم يخططون للمضيّ في المحاكمة خلال عام ١٩٨٨.

إذا طلبوا مني العودة، فإنني أخشى ان يكون ردّي: 'شكراً، ولكنني لن أفعل، شكراً!' وليس باستطاعتهم اجباري على الذهاب، لأن التهمة لا تشكل، في بريطانيا، أساساً قانونياً للاسترداد. أما تشارلي فيعتقد بأن عليَّ الذهاب لأن هناك فرصة جيدة للحصول على حكم بالبراءة، ولكنني لست مستعداً للاختبار: قد تكون فرصتك بالنجاة جيدة، ولكنها لن تكون أفضل من ٥٠ : ٥٠ أن عدم امتثالي لشروط الكفالة سيعني انني سأحرم من زيارة الولايات المتحدة ثانية خوفاً من التوقيف، ولكنني، بعد تجربتي الوحيدة في ذلك البلد، اعتبره حرماناً استطيع تحمله بسرور وسكينة نفس، وسأحقق مليوني الأول رغم ذلك.

الفصل السابع

ماذا حدث بالفعل؟
ما هي حقيقة الصفقة ـ الفضيحة؟

في أواخر معظم القصص المشهورة عن الجريمة، هناك مشهد، يدعو رجل المباحث أو التحرّي خلاله كافة المشتبه بهم إلى غرفة ويبدأ بعرض واضح ومنطقي لما حدث بالفعل ليستنتج منه هوية المجرم. كنت أتمنى لو كانت الأمور بهذه السهولة في الحياة العادية، ولكنها نادراً ما تكون. عندما تحاول فكّ عقدة حبل صعبة، فإنك دائماً تصل إلى نقطة يبدو فيها ان أي طرف ستعالجه، سيجعل العقدة أكثر تشابكاً.

في هذه القضية، تصطدم محاولة الاجابة على السؤال الأساسي «لماذا؟» (أو بتحديد أكبر: «لماذا أنا؟»)، بصعوبات عديدة. إنني لست قارىء أفكار ولا أستطيع اختراق الدوافع الحقيقة للعاملين في الادارة الأميركية. إذا كان ما حدث فعلاً في **صفقات ايران ـ غيت** التي خطّط لها أوليفر نورث لا يزال غامضاً بعد أسابيع من جلسات التحقيق العامة وملايين الكلمات في التقارير التي نشرت، فكيف أستطيع أنا، وأنا مجرد ضحية، ان أكتشف ما هو قائم فعلاً وراء هذه المؤامرة؟ جُلّ ما أعرفه بالتأكيد هو ما نتج عنها: لقد حرمنا، أنا وتسعة آخرون، من أبسط حقوقنا بالحرية، بواسطة حكومة ماكرة معادية.

أسئلة مطروحة تبحث عن أجوبة

السؤال الأول هو إذا ما كان للصفقة التي كان سايروس هاشمي يحاول عقدها أي أساس من الصحة، أم انها لم تكن سوى صفقة وهمية تهدف إلى الايقاع بسام ايفانز وبقية المجموعة. إنني مؤمن بأن هاشمي كان في البداية مخلصاً في محاولته تأمين السلاح للإيرانيين، وان تجنيده من قبل ادارة الجمارك الأميركية قد تمّ بعد أن قطع شوطاً في اعداد الصفقة. إذا كان هذا هو الواقع، فمن الأرجح ان **الصفقة كانت في الأساس جزءاً من سيناريو أسلحة ـ مقابل ـ رهائن الذي تورّط به نورث بموافقة الرئيس ريغان**.

أول دليل **وأوضحه** على هذا يكمن في سجلّ هاشمي. فقد حاول سابقاً اجراء صفقة أسلحة ـ مقابل ـ الرهائن، في العام ١٩٧٩، بعد احتجاز ٥٢ رهينة في السفارة الأميركية في طهران، ولهذا كان الشخص المؤهل للعب دور الوسيط عندما برزت الفكرة ثانية.

أما علاقة هاشمي برجل الأعمال الأميركي روي فورمارك، الذي يعمل كمستشار حول شؤون الطاقة في نيويورك، فتقدم الرابط الحسّي الأول مع سيناريو ايران ـ غيت، كما

تعرفه، لأن فورمارك هو الذي ادعى بأنه عرّف خاشقجي بمانوشهر غوربانيفار، الشخصية الايرانية الرئيسية في صفقات نورث (مع ان البعض يقولون بأن الرجلين كانا يعرفان بعضهما من قبل). في شباط ١٩٨٥، قال فورمارك لسام ايفانز بأنه يعدّ لعملية مشتركة مع هاشمي وخاشقجي، لبيع ايران لوازم عسكرية تتضمن أسلحة، كما قال بأن صفقات كانت تتم في هذا الوقت عبر قنوات اسرائيلية بمباركة الادارة الأميركية، وبأن تزويد ايران مباشرة بالأسلحة سوف يحظى بموافقة مماثلة، وكانت الفكرة ان يقوم خاشقجي بتمويل هذه الصفقات كما فعل لاحقاً مع غوربانيفار.

سيناريو «ايران غيت»: السلاح مقابل الرهائن

في حزيران ١٩٨٥، اجتمع خاشقجي وغوربانيفار في هامبورغ، بحضور سام ايفانز وروي فورمارك، وأثر هذا الاجتماع توجه هاشمي وخاشقجي إلى اسرائيل حيث اجتمعا، كما أوردت بعض التقارير، بشمعون بيريز، رئيس الوزراء الاسرائيلي آنذاك، وبحثا معه موضوع شحنات السلاح لايران، واعتقد انهما اجتمعا كذلك مع رئيس الصناعات العسكرية الاسرائيلية: الهيئة المسؤولة عن صادرات السلاح الاسرائيلية. إن رفض الاسرائيليين تأكيداً نبأ أي من الاجتماعين، لا يعني انهما لم يحصلا.

خلال الشهر نفسه وقع حادث يشير ثانية إلى علاقة مباشرة بين هاشمي وصفقات أسلحة ـ مقابل ـ الرهائن، إذ ورد في تقرير لوليام كاسي، رئيس وكالة الاستخبارات المركزية، بأنه تلقى اتصالاً من جون شاهين، أحد اصدقائه القدامى، وان هذا الأخير أبلغه بأنه سمع بأن هاشمي يدعي بأنه أجرى مباحثات مع وزير خارجية ايران حول اطلاق سراح الرهائن الأميركيين المحتجزين في بيروت مقابل تزويد ايران بصواريخ تاو. وكان هناك عنصران اضافيان في الصفقة: على الولايات المتحدة ان تتعهد بتأمين اطلاق سراح مجموعة من السجناء في الكويت، كانت ايران تعمل منذ فترة على تحريرهم، كما يتم اسقاط كل التهم الموجهة ضد هاشمي شخصياً في نيويورك. الفارق الوحيد بين عام ١٩٨٥ وعام ١٩٧٩، هو ان هاشمي هذه المرة كانت له دوافع شخصية قوية بالاضافة إلى الطمع بربح مادي.

إن تبادل الرسائل بين هاشمي وشاهين قد ورد ذكره في تقرير لجنة تاور ـ في الواقع انها المرة الوحيدة التي يرد فيها اسم هاشمي في التقرير المذكور. لا يوجد ما يثبت ان وليام كاسي، أو غيره من المسؤولين الأميركيين، قد لاحق موضوع هذا الاتصال الأولي. ولكننا **إذا اعتبرنا الأمر بظواهره، فإن هذا الاتصال يشير إلى ان هاشمي كان في موقع تأثير لدى** السلطات الايرانية، كما انه يقدم الدليل على رغبته القوية بإسقاط التهم ضده حتى يستطيع السفر بحريّة إلى الولايات المتحدة، ويشير إلى المدى الذي كان هاشمي مستعداً للوصول إليه، ليضمن هذا الأمر. (من سخرية القدر ان لا يعيش هاشمي طويلاً ليرى الاتهامات

وقد أسقطت رسمياً، مع ان السلطات الأميركية منحته شروط كفالة سخية، ولم يتعرض لمضايقات خلال وجوده في الولايات المتحدة).

في أواخر ذلك الصيف، حلّت الشراكة بين خاشقجي وهاشمي وفورمارك، بسبب الأزمة المالية التي كان يعانيها خاشقجي وعدم قدرته على تأمين الأموال اللازمة لضمان الصفقة كما فعل لاحقاً مع نورث وغوربانيفار. كان هاشمي لا يزال متحمساً لمتابعة الصفقات، وبحث أمر الدخول في شراكة مع أخيه محمد علي (جمشيد)، برغم من خصام قام بينهما في السابق، ولكن هذا لم يؤد إلى نتيجة، فطلب من سام ان يساعده في اعداد العملية، عارضاً عليه نسبة ١٠٪ من الأرباح بدلاً من الرسم المقطوع الذي يتقاضاه المحامون عادة.

لا يوجد أدنى شك في ان هاشمي كان في هذا الوقت يحاول مخلصاً تدبير أمر مبيعات أسلحة لايران، ولكن يستحيل علينا معرفة متى بالضبط قرر التخلّي عن الخطة وبدأ تعاونه مع ادارة الجمارك الأميركية في تدبير المكيدة للايقاع بسام والبقية منا. كل ما نستطيع استنتاجه، ان هذا التعاون يجب ان يكون قد بدأ قبل الاجتماع في فندق رافاييل في باريس بتاريخ ٣ كانون الأول ١٩٨٥، حين التقى هاشمي وسام بفيبللو ودو لا روك ونيكوس وبعض المصادر الأخرى المحتملة، لأن سجلات المحكمة أثبتت ان هاشمي كان يحمل جهاز تسجيل صغير تحت سترته. (لم يعمل الجهاز بصورة سليمة وسُجل قسمٌ بسيط مما دار في الاجتماع - ولكن الفكرة كانت هناك.) -

بين أيلول وكانون الأول، أدخل سام، ميناردوس وفيبلّلو ودو لا روك في الصفقة وعرّفهم بهاشمي. في تشرين الأول عندما بحث سام الأمر معي لأول مرة، كان فيبللو ودو لا روك قد ذكرا لهاشمي انهما يستطيعان تأمين ٣٩ طائرة قاذفة مقاتلة جديدة من طراز ف - ٤ إي، لا تزال في صناديقها في الولايات المتحدة جاهزة للتسليم الفوري.

إن هذه الطائرات التسع والثلاثين من طراز ف - ٤ إي - التي لم تقع عليها عين، بحسب ما أعرف، تشكل مفتاحاً رئيسياً لحل اللغز. وظهر أثناء جلسات التحقيق التي أجرته لجنة تاور ان هذه الطائرات كانت مدار بحث مع عدد من الزبائن المحتملين عبر السنتين السابقتين، وكما انها ظهرت على فواتير شكلية.

في كانون الأول ١٩٨٣، أسس العقيد رالف برومان، الذي كان يعمل لوزارة الدفاع الأميركية في باريس، وبول كتّر، دبلوماسي اميركي، شركة «يوروبيان ديفنس اسوشيتس» بغرض بيع السلاح من ايران كجزء من مشروع ديمافان الذي وضعت خطته بمعرفة مسؤولين اميركيين كبار. وقد تم تعريف برنارد فيبلّلو، الذي كان يبدو على علاقة وثيقة بوكالة الاستخبارات المركزية، على برومان من قبل مسؤول في وزارة الخارجية. وكانت طائرات ف - ٤ إي جزءاً من صفقة متكاملة قيمتها مليار دولار عرضتها شركة يوروبيان ديفنس اسوشيتس على ايران، وكان مانوشهر غوربانيفار واحداً من أعضاء الوفد الايراني في المفاوضات حول هذه الصفقة.

وفي شباط ١٩٨٥، وقّع فييلّلو عقداً لتزويد سلاح الجو الاسرائيلي بهذه الطائرات، واستخدمت في اعداد العقد، أوراق رسائل خاصة بأحد المصارف الفرنسية المعروفة، ولكن الطائرات لم تسلم كما يبدو، لأن فييلّلو أضافها إلى عرضه الذي قدمه لهاشمي.

إن ثمن الطائرة المستعملة من طراز ف - ٤ إي قد يصل إلى حدود ١٥ مليون دولار، فيكون ثمن ٣٩ طائرة منها حوالي ٦٠٠ مليون دولار - وأكثر من ذلك إذا سعّرت الطائرات على انها جديدة. كان هذا المبلغ برأيي يفوق كثيراً ما كان سام وهاشمي يتوقعان عندما أسسا شركتهما (مع انه ليس أكثر من مبلغ ٢٨٠٠ مليون دولار القيمة الاجمالية النهائية لكل العروض التي قدمت). إن حقيقة كون الطائرات، كما يظهر، ستسلم مباشرة من الولايات المتحدة، دون المرور من خلال طرف ثالث، أضافت عامل خطورة جديداً، بالأخص وان هاشمي كان لا يزال محالاً إلى المحكمة.

قد يكون هذا واحداً من العوامل التي دفعت هاشمي إلى اعادة النظر في دوره في العملية. كما ان صعوبة تأمين التمويل قد تكون عاملاً آخر، فهو، عندما انفصل عن خاشقجي، خسر مصدراً ممكناً للتمويل، وأصبحت صفقة الطائرات من طراز ف - ٤ إي تبدو كبيرة جداً وخطرة جداً.

كان هاشمي، مثله مثل الآخرين منّا، مطّلعاً على الاشارات المستمرة التي تصدر من واشنطن إلى ان صفقات مثل هذه تتم بموافقة السلطات الأميركية، وكان متأكداً من صحة هذه الاشارات. ما لم يعرفه بالتأكيد هو اذا ما كانت كل الصفقات مع ايران تحظى بموافقة رسمية، أو فقط تلك الصفقات التي يقوم بها مقربون من البيت الأبيض. وكان مثل الآخرين قد سمع خطب الرئيس الأميركي ريغان التي تدين الارهاب، ومناشداته لحلفاء أميركا لفرض حظر على بيع السلاح من ايران، وكان فوق ذلك يعرف بعملية «ستونش».

وهكذا، كانت الاشارات الصادرة عن واشنطن، بالرغم من انها تؤكد الموافقة على صفقات سلاح، مشوّشة فيما يتعلق بمدى هذه الموافقة. كمقامر في كازينـوات الحي الغربي من لندن، كان هاشمي مشهوراً بالدهاء ويعرف حساب احتمالات الربح والخسارة. وأعتقد ان بإمكانه مضاعفة فرصه بالربح، بتغيير رهانه قبل ان تلقّى الكرة - أو، أفضل بكثير، ان يصل إلى اتفاق مع الذي يدير اللعبة.

محاولة لسبر غور العقل «الشرق أوسطي»

ولهذا السبب، طلب من محاميه في نيويورك ان يجسّ نبض المدعي العام حول جانبين متميزين للصفقة. وكان الجواب: كلا، لم يكن السماح بصفقات أسلحة لايران سياسة رسمية، ونعم، انهم سيكونون مسرورين بالعمل على اجراء ترتيبات تتعلق بالتهم القائمة

ضد هاشمي، بشرط ان يكون هو على استعداد لتقديم بعض الخدمات لهم. هذه برأيي، كانت النقطة التي بدأت منها المكيدة. لم يكن هناك مبلغ نصف مليار دولار مودعاً في مصرف «كميكال بانك» أبداً - وباعتبار ان سام أخبرني عن هذاالمبلغ، عندما تحدثنا في تشرين الأول ١٩٨٥، فإن العملية كانت بالتأكيد في طور التنفيذ آنذاك.

جعلت وفاة هاشمي من غير الممكن معرفة الأسباب الحقيقية التي دعته للتصرف كما فعل، مضحياً بحرية ١٧ رجلاً، بمن فيهم البعض مثل سام كانوا يعتبرونه صديقاً لهم، كل ذلك للخلاص من قضية قانونية لم تكن تشكل مصدراً كبيراً للازعاج. إن منعه من العودة إلى الولايات المتحدة كان دون شك يغيظه باستمرار ولكن هذا المنع كان من مخاطر نمط الحياة الذي اختاره، وكان بإمكانه، بأي حال، ان يعيش حياة راغدة هانئة متمتعاً بما تقدمه أوروبا من تسهيلات - ونساء. ولكن من الصعب سبر غور العقل الشرق أوسطي، وكما ذكرت سابقاً، ليس من طبيعة أهل تلك المنطقة توثيق الصداقات مع أغراب. إن دوافعهم تتركز حول الاهتمامات الشخصية والصراع من أجل البقاء.

كما انني اعتقد ان هناك دافعاً آخر في قضية هاشمي. فمنذ فرض الحظر الأميركي على مبيعات الأسلحة لايران في العام ١٩٧٩، كان على ممثلي ايران ان يسرعوا في تجوالهم حول العالم لعقد صفقات مشبوهة ومهينة مع تجار مشبوهين في سوق السلاح. واشتهر عنهم، نعومة الملمس واستعدادهم لدفع أسعار خيالية - وبعد كل هذا، كانوا في كثير من الأحيان لا يتسلمون الأسلحة. وبالنتيجة قام الكثير ممن لا يراعون قانوناً من التجّار بخداعهم. وكان هاشمي بصفته تاجر سلاح عبر سنوات طويلة، قد عانى، ربما، هو شخصياً من هذا الخداع. ولهذا، عندما تلقى هاشمي العرض المتعلق بطائرات ف - ٤ إي، رآه مستهجناً لدرجة انه لا يمكن ان يكون إلاّ محاولة أخرى لخداعه. وحتى لو لم يكن، فقد اعتبره فرصة سانحة للانتقام لعمليات الاحتيال التي تعرض لها ومواطنيه الايرانيين من قبل، وليس صعباً رؤية كيف أقنع نفسه بأن التعاون في اعداد المكيدة كان عملية ثأر لشرفه وشرف بلده.

ما هو دور اوليفر نورث؟

هل كان أوليفر نورث على علم بما ينتويه هاشمي وإدارة الجمارك الأميركية؟ باعتبار هذا العدد من الروابط، الخفية بين الشخصيات في كل من صفقة هاشمي وصفقات ايران - غيت، يصبح مستبعداً وفوق التصورات ان لا يكون. كما لا يوجد أي دليل على انه فعل شيئاً لوقف عملية المكيدة، مما يشير إلى امكانية موافقته عليها. وتقول احدى النظريات بأنه كان العقل المدبّر وراءها، ليخلو الجو لصفقاته مع ايران والارباح التي تحققها لصالح ثوار الكونترا.

هناك أيضاً رابط مذهل آخر: في اليوم الذي تمَّ اقتناصنا في نيويورك وبرمودا، ألقت سلطات الأمن السويسرية القبض على غوربانيفار الذي كان يزور سويسرا، ويعتقد ان

ذلك تمَّ بناء على طلب من الولايات المتحدة. أمضى غوربانيفار يوماً واحداً في السجن، ثم أخلي سبيله، ربما بموافقة أميركية أيضاً. إن هذه الحادثة، الواردة في ملحق التسلسل الزمني للأحداث، قد تكون طلقة انذار لغوربانيفار، لتذكيره ان القناة الأمنية الوحيدة لمتابعة صفقات السلاح هي نورث ومجلس الدفاع القومي.

عودة إلى التورّط الاسرائيلي، رغم النفي

ضباط متقاعدون يحملون خطابات تفويض رسميّة

إذا كان من الصعب سبرغور مدى وطبيعة تورط الحكومة الأميركية في قضيتنا، فإنه في حالة الحكومة الاسرائيلية أصعب بكثير. إن اسرائيل ليست مجتمعاً مفتوحاً بالمفهوم الأميركي: لم تشكل هناك لجنة تاور ولم تجر جلسات تحقيق في الكونغرس. لم أتورط أنا في أي من الصفقات الاسرائيلية ولكن سام يصرّ على انه قابل مسؤولين اسرائيليين عند زيارته إلى القدس في صيف ١٩٨٥، وأنه متأكد انهم كانوا موافقين على اتمام الصفقة. في أحد الأشرطة المسجّلة لحديث بينه وبين هاشمي، يقول سام:

> «لقد أنبئت بأن الأمر قد وصل إلى بيريز ورابين، وبأنهما يتابعان هذه الصفقة عن كثب وباهتمام كبير... تستطيع ان تعتمد على تعاون السلطات التام... لقد التقيت مع جماعة وزارة الدفاع الذين أوضحوا انهم يوافقون بالتأكيد على الصفقة، لا جدال حول ذلك».

وكما ذكر نيكوس في حديث مسجّل آخر، فإن الاسرائيليون لن يقوموا بأي عمل من هذا النوع دون تشجيع ضمني من واشنطن على الأقل.

في ظاهره، يشير اشتراك الجنرال بارعام، بطل حربي ١٩٧٦ و١٩٧٣ في الشرق الأوسط، إلى حصول الموافقة على مستوى عالٍ، ولكنه ليس جازماً. إنه واحد من ٨٠٠ عسكري اسرائيلي متقاعد، يحملون كتباً من حكومتهم تخولهم البحث عن أسواق للسلاح الاسرائيلي، مع ان هذه الكتب لا تسمح لهم بالدخول في مفاوضات باسم وزارة الدفاع. كان بارعام رئيساً لهيئة اركان ادارة القوى البشرية في الجيش الاسرائيلي. حتى احالته إلى التقاعد في العام ١٩٨٤ بسبب فضيحة ثانوية، أثيرت خلالها تساؤلات عن أسلوب عمله فيما يتعلق بالترقيات، كما أشيع انه أهدى أسلحة لاصدقاء مقربين.

إن نفي الناطق الاسرائيلي تورط حكومته لا يعني الكثير، لأن مثل هذا النفي أصبح أمراً روتينياً: فهُم أصرّوا على انهم لا يعرفون شيئاً عن صفقات ايران ـ غيت، إلى ان قدّمت لجنة تاور البرهان القاطع على تورطهم.

بأي حال، لم يحاول الاسرائيليون اخفاء رغبتهم بتسهيل تزويد ايران بالسلاح، وكان الأميركيون يغضّون الطرف عادة. في العام ١٩٨٤، ألقى آرييل شارون، وزير الدفاع الاسرائيلي السابق، خطاباً في كونكتيكت اعترف فيه بهذا القدر، مشيراً إلى خطر الاختراق

السوفياتي لمنطقة الشرق الأوسط فيما لو انتصر العراق في الحرب. كما نقلت صحيفة **لوس انجلس تايمز** عن افرام بوران، المستشار العسكري السابق لرئيس الوزراء شامير، قوله حول هذه القضية: «إن هناك مبدأ يقول: عدوّ عدوك صديقك، ومن وجهة نظر اسرائيلية أساسية، فإن ايران تقوم، إذا صح القول، بعمل ايجابي».

كما قال بوران، بأنه من المستحيل ان تخرج كميات كبيرة من الأسلحة كهذه من اسرائيل دون معرفة الحكومة. رسمياً كان هناك تفاهم مع واشنطن بأن لا يعاد تصدير أسلحة اميركية إلى ايران، ولكن الأميركيين لم يكونوا مهتمين بتطبيق هذا المبدأ بجدية: وكان من السهل خرقه بينما أنت تدعي المحافظة عليه. كان شراء شهادة إثبات هوية المشتري، ممكناً، إما من الفيليبين (عندما كان ماركوس رئيساً) أو من تركيا، مقابل ١٠٠ ألف دولار. ويضيف بوران:

> «تذهب إلى الولايات المتحدة بهذه الوثيقة، وتشتري ما تشاء وتحمّل مشترياتك على ظهر باخرة. في وسط المحيط تستبدل الأوراق وتتجه الباخرة إلى ايران أو إلى أي بلد آخر وتقوم باجراء الصفقة. هذه هي الطريقة التي تتم بواسطتها مثل هذه الأمور».

ثم قال انه خلال تجربته، اكتشف ان هذه الأمور تحدث عادة، بموافقة الحكومة الاسرائيلية الخفية. وأكد هذه الأقوال مسؤول من البنتاغون رفض الادلاء باسمه عندما صرّح لصحيفة **نيوزداي** النيويوركية بالقول: «لا شخص يعرف اسرائيل معرفة حقيقية، ويؤمن للحظة واحدة، ان باستطاعة اسرائيليين الحصول على معدات مصدرها اسرائيل وبيعها في سوق سوداء أو رمادية، دون معرفة المسؤولين الاسرائيليين.

دور الموساد في قضيّة هاشمي

مهما يكن مستوى تواطؤ المسؤولين الاسرائيليين في قضية هاشمي، فلا يوجد أدنى مجال للشك بأن الموساد، جهاز الاستخبارات الاسرائيلي، كان مطلعاً على ما يجري وبأنه لعب دوراً ما. يقول سام في واحد من الاجتماعات التي جرى تسجيل وقائعها، بأن جماعة الموساد أخبروه بأنهم طلبوا من وكالة الاستخبارات المركزية دسّ جهاز إرسال اشارات في امتعته، ليتمكنوا من الحكم على مصداقيته، وقد أكد المتهمون الاسرائيليون هذا الأمر.

والموساد هي «المؤسسة» التي حذرت ايفانز والمجموعة الاسرائيلية، وأخبرتهم بأن يقنعوا هاشمي بلقائهم في برمودا بدلاً من أي مكان في الولايات المتحدة، ولم يكن هذا، كما يبدو، لأنهم علموا بأن المجموعة ستعتقل في نيويورك، وإنما لايمانهم بوجود خطر تسرّب اخبار الصفقة إذا تواجد الجميع في نيويورك في وقت واحد، وكان هذا سيؤدي إلى احراج كل من اسرائيل والولايات المتحدة.

ادّعى بارعام بأن الموساد قامت بعد يوم من اعتقاله في برمودا، باجراء تحقيق حول

المحققين من ادارة الجمارك الأميركية المسؤولين عن القضية ـ مع انه لم يصرّح عن كيفية حصوله على هذه المعلومات. ولكن مكالمته الهاتفية الأولى بعد اعتقاله كانت للملحق العسكري الاسرائيلي في واشنطن. كما أفادت التقارير الصحفية بأنه هدّد بفضح تورّط الحكومة الاسرائيلية في الصفقة، ما لم يتدخل المسؤولون الاسرائيليون لمصلحته، ولكنهم أخبروه بأن عليه ان يواجه مصيره بنفسه.

(لم ينفذ بارعام تهديده أبداً. وكان خلال وجوده القصير معنا في المركز الاصلاحي، صامتاً بشكل مثير للانتباه، فلم يضف شيئاً إلى ما قاله كردّة فعل فورية غاضبة لعملية القاء القبض عليه).

ارتباطات مشبوهة مع الوكالة

إنني مؤمن ان فييللو ودو لا روك، كانا على علاقة مع وكالة الاستخبارات المركزية ـ ولهذا كان لديهما هذا القدر من المعلومات الصحيحة عما كان يجري. وكان دو لا روك، مرتبطاً بالتأكيد مع واحد من الشخصيات العديدة الغامضة في القضية، المدعو ريتشارد برينيكه وهو رجل أعمال من اوريغون عمل مع وكالة الاستخبارات المركزية لمدة ثلاث عشرة سنة. في أول مذكرة ـ من سلسلة من المذكرات حول صفقات الأسلحة لايران قدمها لمسؤولين في الادارة الأميركية ابتداء من تشرين الثاني ١٩٨٥)، يصف برينيكه دو لا روك على انه شريكه. وبتاريخ ١ كانون الثاني ١٩٨٦، قدم مذكرة أخرى إلى البنتاغون يكشف فيها الصفقة المقترحة مع هاشمي وشركته **غالاكسي** ترايد انكوربورايتد ويذكر فيها حتى رقم الحساب في كميكال بانك حيث يفترض ان تكون الأموال الايرانية قد أودعت.

أغلب الظن، انه حصل على هذه المعلومات من دو لا رك. ولكن الجانب الأكثر إثارة للغموض، في دور برينيكه هو انه كتب بعد ثلاثة أيام فقط مذكرة أخرى وجّهها هذه المرة إلى وزارة الخارجية، يورد فيها خلاصة الشروط الايرانية لمبادلة الرهائن بالأسلحة، مما يشير مرة أخرى إلى علاقة صفقة هاشمي مع عملية استبدال الرهائن بالأسلحة. أدهشت برينيكه **قلّة** الاهتمام التي أبداها المسؤولون في واشنطن، بالمعلومات التي كشفها، فكتب رسالة بهذا المعنى إلى نائب الرئيس الأميركي، جورج بوش، بتاريخ ١٥ كانون الثاني. كان سبب قلة الاهتمام بالطبع، ان الأشخاص الذين كان يجب ان يتلقوا المعلومات، كانوا في هذا الوقت يعرفونها. (كل ما كان بمقدور برينيكه ان يفعله، هو تأمين اجتماع في البنتاغون في أواخر أيار ـ بعد القاء القبض علينا بشهر!).

صفقات نورث: خَلَل في الضبط والربط ؟

إن الصعوبة الكبرى في محاولة تحديد مدى المعلومات، التي كان مسؤولون في الادارة الأميركية أو في وكالة الاستخبارات المركزية، يعرفونها، تكمن في تخمين مدى التعاون وتبادل المعلومات بين مختلف الوزارات والدوائر والمستويات في الحكومة الأميركية. أثناء

جلسات التحقيق التي عقدتها لجنة تاور والتي عقدها الكونغرس بدوره، كان التحقيق يعود باستمرار إلى محاولة كشف هذه النقطة بالذات، وكانت الاجابات نادراً ما تتطابق، ولم يكن من الممكن الحصول على صورة دقيقة عن ما كان يجري إعلام أي شخص به، من الرئيس نزولاً. حتى في حالات المسؤولين الذين وقّعوا بالأحرف الأولى على وثائق يفترض انهم قرأوها ووافقوا عليها، كانت الأسئلة تثار عما إذا كان هؤلاء المسؤولون قد وقعوا بطريقة روتينية (أو عن غير قصد) دون أن يعرفوا بالتأكيد ماذا كانت الوثائق تتضمن.

أخبرنا، مثلاً، بأن جورج شولتز لم يكن يعرف شيئاً عن صفقات نورث لبيع السلاح من ايران: ثم ظهر انه كان يعرف ولكنه لم يوافق. أما وليام كاسي فكان يبدو انه مطّلع على ما يجري، ولكن هل يعني هذا بالضرورة تسرب هذه المعلومات إلى مسؤولين آخرين في وكالة الاستخبارات المركزية؟ وبالعكس، حتى ولو علم بعض العاملين في الوكالة من مصادر في الموساد بأمر الصفقات التي كان سام يحاول ان يعقدها مع هاشمي، هل يعني ذلك انه قد تمّ اعلام كاسي بالأمر؟ انني أعتقد ان اغاثا كريستي كانت ستجد صعوبة في ايجاد حل معقول لقضية غامضة تحتوي هذا القدر الكبير من المجهولات والمتغيرات.

اللغز الأكبر: وفاة هاشمي

أما اللغز الأكبر في هذه القضية، فهو وفاة هاشمي في تموز ١٩٨٦. لقد مررت على هذا الموضوع سابقاً ببعض التفصيل، ولكنني سأستعيد هنا بعض الحقائق التي أقنعت المقرّبين منه بأنه مات قتلاً. بالأساس هناك لغزان: **الأول**، هو التشخيص المفاجىء لمرض مميت في شخص تمتّع بصحة كاملة وتلقى تقريراً نظيفاً بعد اجراء فحوصات طبية كاملة قبل شهر من ذلك، والثاني موقف السلطات غير المتعاون في مسألة تشريح الجثة. وحيل دون شقيقه محمد علي هاشمي ومعرفة التفاصيل خلال كل محاولاته للحصول على معلومات. قيل له، مثلاً، ان بعض صور الأشعة التي أخذت لسايروس قبل وفاته قد اختفت من مستشفى كرومويل دون أي تفسير لذلك، ورفض الدكتور جايمس شارب الذي تولّى القضية نفي أو تأكيد الخبر.

إذا كان هاشمي قد قتل، فمن قتله؟ يدّعي هوشانج لافي بأن جو كينغ أخبره «بأننا»، المفترض ان الضمير يشير إلى ادارة الجمارك الأميركية «اضطررنا للتخلّص منه» لأنه كان يعرف الكثير. قد يكون هذا صحيحاً: فهو ينسجم مع فلسفة الأجهزة الأمنية الأميركية التي تعتبر حياة البشر شيئاً للاستهلاك متى تعرّضت مصالح اميركا للخطر، ولكن الذين يعرفون جو كينغ يعتقدون انه اخترع هذه القصة لمجرد تلميع صورته كرجل قاسي القلب. (كما يستطيع لافي ذلك، لأنه نوع من رجل الاستعراضات).

وبالرغم من ان تشارلي ثيوفان يؤمن ان وفاة هاشمي ستجعل الدفاع عنّا في المحكمة أمراً شاقاً، فإنها لن تسهل الأمر كثيراً على الادعاء ـ على الأقل ليس لدرجة تبرير قتله. احدى الشائعات تحدثت عن غضب هاشمي لأن الاتهامات ضدّه لم تسقط رسمياً كما وعد.

قد يكون المدعي العام انتظر حتى تتم ادانتنا قبل تحقيق وعده حسب **الاتفاق** حرفياً، وقد يكون الشاهد الأساسي ردّ بأن أصبح غير متعاون وهدّد بأن لا يلعب الدور المرسوم له أثناء **المحاكمة**. قد يشكل هذا التهديد نكسة للادعاء، ولكنه لا يشكل دافعاً معقولاً لجريمة قتل. ومع ان الادعاء يحاول بالفعل عرقلة أي تحقيق في كيفية وفاة هاشمي، فإن هذا لا يثبت انه مسؤول عنها. قد يكونون افترضوا ان أي تحقيق، بغض النظر عن نتائجه، قد يشكّل احراجاً لهم لمجرّد كشف الحقائق عن علاقة هاشمي بالمكيدة.

المكيـدة وضحـاياهـا

بالبحث عن مشبوهين محتملين في جهات أخرى، يجب ألا نستثني امكانية ان يكون واحد من شبكة تجار السلاح الايرانيين الكبيرة والسرية، قتله تصفية لحساب سابق، فمن الواضح ان هاشمي تعاون مع الأميركيين ـ المكروهين في ايران ـ لنصب فخ موجّه ضد الذين يعملون على تزويد ايران بالسلاح الذي تحتاجه في حربها البطولية مع العراق. كنا، نحن ضحايا المكيدة، نقوم بالعمل لتحقيق هدف اساسي هو دون شك الربح، ولكننا كنا من وجهة النظر الواقعية نساعد ايران، وما فعله بنا هاشمي لم يكن ليكسبه شعبية بين مواطنيه.

والاسرائيليون كذلك، قد يكونون أرادوا إزاحة هاشمي من الطريق. فالاحراج الواضح الذي سببه الدور الذي لعبه بارعام في القضية، قد يكون جرّهم إلى الاعتقاد بأن الايراني يعرف الكثير عن تورطهم، ولكن هذا التفسير يبدو لي الأقل احتمالاً. لأنه لو كان صحيحاً، لعنى ان الاسرائيليين كانوا سيُسكتون الكثيرين ممن كانت لهم علاقة بالقضية قبل ان تصبح الأسرار الاسرائيلية في أمان.

وهكذا تواجدت دوافع كثيرة، ولكن ماذا عن الوسيلة؟ ان الدكتور شارب يصرّ على ان سبب الوفاة هو حالة حادة من سرطان الدم، والقصص التي تتحدث عن عقار يسبب نفس الأعراض فيها الكثير من الخيالية، ولكن عندما تتورط الأجهزة المخابراتية يصبح كل شيء قابلاً للتصديق وممكناً. فأنا أذكر حادثة في لندن منذ بضع سنوات، عندما قتل مهاجر بلغاري بوخزه براس مظلة مسموم في موقف للباصات. ومع انها تبدو مشهداً من قصة تجسس خيالية، إلاّ انها صحيحة.

لا يزال محمد علي، شقيق سايروس، يحاول الوصول إلى الحقيقة حول وفاة شقيقه، فإذا نجح وتكشف الغموض في أي وقت، فيساعد في جلاء ألغاز أخرى في القضية.

الذنب يقع على حكومة اميركا: اصبع الاتّهام

ومع ان هذا قد لا يحدث أبداً، فليس لديَّ شك في هوية الطرف المذنب في قضيتي. إنني أضع اللوم بكامله على حكومة الولايات المتحدة. فهي تعتقد انها، لمجرد كونها الدولة

الأكبر على الأرض، تستطيع ان تدير الأشياء وتتلاعب بمصائر الناس على هواها. إنها تتحدث عن مكافحة الارهاب، فيما هي تدعم الميليشيات ضد الحكومات الشرعية ـ مثل نيكاراغوا وقبلها بسنوات غرينادا. من وهبها هذا الحق؟

ولكن، في الدولة التي تبدو أحياناً وكأنها تريد ادارة دفّة العالم، من المفترض ان تكون الأولوية الأهم هي تحديد من يدير دفة الحكم فيها. من بالفعل يحكم اميركا؟ حكماً ليس الرئيس! فهو، إذا كنا سنصدق أقواله، لا يطلع على كثير من الأمور التي تجري حوله، فهم لا يطلعونه عليها في كثير من الأحيان. أما الكونغرس، مجموعة ممثلي الشعب، فيعرف أقل من الرئيس، على الأقل إلى ان يفوت الوقت.

سؤال آخر: مَن يسيّر ادارات الأجهزة الأمنية؟ مَن يقوم بتطبيق سياسات مهمة كالمكائد، محاولة للايقاع بالابرياء ـ هل يجب ان تحصل على موافقة المدعي العام الأميركي؟ أم ان المدعون في الولايات المختلفة يستطيعون القيام بها على مسؤوليتهم؟

مَن يسيطر على وكالة المخابرات المركزية ومجلس الأمن القومي؟ هل يستطيع عملاء هاتين الادارتين التصرف على هواهم دون الرجوع إلى مراجع أعلى؟ وهل يتضمن ذلك قتل الأفراد، كما يمكن ان يكونوا قد فعلوا بهاشمي؟ إلى ان نحصل على اجابات وافية لهذه الأسئلة، نحن مضطرون إلى الافتراض ان فوضى عارمة تطغى على أعلى المستويات الحكومية وبالأخص فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ودوائر العدل.

المرافعة الأخيرة لتاجر السلاح

إنني لا أدّعي انني محسن كريم ـ فأنا في تجارة السلاح من أجل المال ـ ولكنني لا أحس بعقدة ذنب لمحاولتي بيع السلاح لدول بقصد الدفاع عن نفسها. لايران، كأي دولة أخرى، الحق في ان تفعل ذلك. إنني أبيع أدوات للدفاع عن النفس وللأمن.

في ظل نظام قانوني عادل، لا يمكن أن اعتبر مذنباً، فكيف يمكن ادانتك لعمل تصرّح به الدولة؟ ولكن، لو كنت في ظل نظام قانوني عادل، لما احتجزت في سجون اميركا، رغماً عن ارادتي لمدة عشرة أشهر ونصف!

وأنا أكتب قصتي، لم يتضح بعد إذا كانت قضيتنا ستنتهي بمحاكمة أبداً. إن الكثير يتوقف على الاتهامات التي ستوجّه (إذا وجهت) إلى أوليفر نورث من قبل قاضي الادعاء الخاص الذي تمّ تعيينه للنظر في قضية ايران ـ غيت. إذا جرت محاكمة في قضيتنا، فإنني متأكد في داخلي من براءتي، مهما كان الحكم الذي يصدر!

تسلسل زمني للأحداث
في فضيحة «ايران ـ غيت»

١٩٧٩

١٦ كانون الثاني:

تمت الاطاحة بشاه ايران من قبل أنصار آية الله الخميني.

٤ تشرين الثاني:

اقتحام السفارة الأميركية في طهران واحتجاز موظفيها رهائن. الرئيس كارتر يعلن حظراً تجارياً على ايران.

٧ كانون الأول:

سايروس هاشمي يعرض على الادارة الأميركية امكانية مبادلة الرهائن بأسلحة. يبدو ان الخطة لم تحرز تقدماً.

١٩٨٠

٢٥ نيسان:

فشل محاولة جريئة لانقاذ الرهائن بواسطة المروحيات، لأن المحركات تعطلت بسبب تراكم الغبار.

أيار:

بدأت العمل مع مونخ، ناشر يعنى بالأمور العسكرية ـ أول خطوة أخطوها إلى عالم تجارة السلاح.

٢٢ أيلول:

الجيش العراقي يعبر الحدود مع ايران لتبدأ الحرب. الطائرات العراقية تقصف المطارات الايرانية.

٤ تشرين الثاني:

رونالد ريغان يهزم كارتر في الانتخابات الرئاسية الأميركية، أحد الأسباب استمرار أزمة الرهائن دون حل.

١٠ تشرين الثاني:

العراق يحتلّ خرّم شهر ويسيطر على ١٠ آلاف كيلومتر مربع من الأراضي الايرانية.

١٩٨١

٢٠ كانون الثاني:

ايران تطلق سراح الرهائن في يوم تنصيب الرئيس ريغان بعد احتجاز دام ٤٤٤ يوماً. بالمقابل ترفع الولايات المتحدة كثيراً من القيود التجارية ولكنها تحتفظ بالحظر على التسليح.

٢٨ أيلول:

فشل الحصار العراقي لعبادان، المركز النفطي الايراني الهام.

١٤ كانون الأول:

اسرائيل تضم مرتفعات الجولان السورية. الولايات المتحدة تلغي

«مذكرة التفاهم»: الاستراتيجي التي وقعتها مع اسرائيل قبل اسبوعين.

١٩٨٢

٢١ أيار:

المحرران الصحفيان ايفانز ونوفاك ينشران ما يفيد بأن اسرائيل كانت تشحن السلاح سراً لايران، ويدعيان بأن الحكومة الاميركية تعرف بالأمر ولم تقم بأية محاولة لمنعه.

٢٤ أيار:

ايران تستعيد خرم شهر.

١٣ تموز:

القوات الايرانية تعبر الحدود لأول مرة باتجاه مدينة البصرة.

تموز:

القوات الايرانية المسلحة في ميناء بندر عباس، تمنع تفريغ حمولة قنابل يدوية من على متن باخرة دانمركية لأن عبارة 'صنع في أميركا' كانت مكتوبة على الصناديق.

١٨ آب:

الحكومة الاسرائيلية تؤكد انها كانت تبيع قطع غيار للطائرات من ايران.

٢٩ أيلول:

تمت احالة ايان سمولي، وهو تاجر سلاح بريطاني يقيم في تكساس إلى المحكمة بتهمة التآمر لبيع دبابات وصواريخ تاو من ايران، بعد ان أوقعت به الحكومة الأميركية.

أيلول:

ذهبت إلى لندن واتفقت مع «جينز»، دار النشر العسكرية البريطانية، على بدء العمل معهم في العام التالي. خلال هذه الرحلة قابلت نُوا.

تشرين الثاني:

تقارير تفيد بأن اسرائيل تبيع صواريخ تاو من ايران.

كانون الأول:

تركت مونخ. أتت نُوا إلى كولونيا لقضاء الميلاد وعدنا سوية إلى لندن بتاريخ ٢٦ كانون الأول.

١٩٨٣

١٦ شباط:

تبرئة ايان سمولي لأن المحلفين لم يصدقوا شاهد الادعاء الرئيسي.

آذار:

عملت كسائق شاحنة بانتظار بدء العمل في جينز.

نيسان:

الادارة الاميركية تطلق مشروع ستونش لمنع حلفائها من بيع السلاح من ايران.

نيسان:

العراقيون يبدأون هجمات صاروخية على المدن الايرانية.

حزيران:

بدأت العمل مع جينز.

٢٥ تموز:

مجلة التايم تنشر تقريراً يفيد بأن معدات عسكرية أميركية بقيمة مئات ملايين الدولارات تباع من ايران، وتسمي المجلة سايروس هاشمي وشقيقه بالانيان كائنين من كبار المشترين لصالح ايران عبر شركة في لندن تدعى زومر فلاي المحدودة.

٢٣ تشرين الأول:

نسف مقر مشاة البحرية في بيروت ومقتل ٢٤١ جندياً، والولايات المتحدة تعلن وجود دليل لديها يدين ايران بالاشتراك في الجريمة.

كانون الأول:

أول صفقة مستقلة لمعدات عسكرية أبرمها: أحذية عسكرية للسعودية.

١٩٨٤

كانون الثاني:

خلال رحلة العودة من فيينا، أتعرف إلى جون سوندرز الذي يصبح شريكي فيما بعد.

٢٠ كانون الثاني:

يعلن جورج شولتز، وزير الخارجية الأميركية، رسمياً ان ايران تصدر الارهاب الدولي.

١٦ آذار:

اختطاف وليام بكلي، مدير محطة وكالة الاستخبارات المركزية في بيروت.

٢٧ آذار:

العراقيون يوسعون رقعة الحرب بمهاجمة ناقلات نفط في الخليج.

أيار:

أسست مع جون شركتي انترناشيونال سيرفسز بلّفاين المحدودة وانترناشيونال بركيورمنت آند سيلز. تركت جينز ولكنني بقيت أعمل لهم مقابل عمولة. قمت بأول زيارة لي إلى مكتب مشتريات السلاح الايراني في فكتوريا ستريت.

حزيران:

قمت بزيارة إلى أبو ظبي، دبي وعُمان لدراسة احتمالات السوق.

تموز:

أول صفقة أسلحة أقوم بها، مدافع رشاشة للتشيلي.

تشرين الأول:

دراسة للمخابرات الأميركية تبحث امكانية اعادة العلاقات الدبلوماسية مع ايران واستئناف تزويدها بالأسلحة.

تشرين الثاني:

روبرت ميلّز يعرفني إلى ايفانز في نادي السفراء.

١٩ تشرين الثاني:

اجتماع في هامبورغ بين الوسيط الايراني مانوشهر غوربانيفار وثيودور شاكلي، ضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية. يتناول البحث في الاجتماع استئناف العلاقات الطبيعية مع ايران، وشحنات الاسلحة واطلاق سراح الرهائن الأميركيين المحتجزين في بيروت.

٣ كانون الأول:

اختطاف بيتر كيلبورن وهو موظف في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت ـ الأول من عشرة أجانب يختطفون في مدى ستة أشهر.

١٩٨٥

كانون الثاني:

يقوم وليام كاسي، مدير وكالة الاستخبارات المركزية، باعلام رجل الأعمال الأميركي، روي فورمارك، بأن صفقات الأسلحة لايران تنال موافقة الادارة الأميركية. يجتمع فورمارك مع غوربانيفار وتاجر السلاح السعودي عدنان خاشقجي لبحث عملية مبادلة أسلحة ـ مقابل ـ الرهائن.

شباط:

فورمارك يخبر محاميه سام ايفانز، بأنه يعمل على تأسيس شركة مع سايروس هاشمي وعدنان خاشقجي لبيع المعدات والمؤن من ايران بما في ذلك الأسلحة.

٢٧ شباط:

يوقع التاجر الفرنسي برنارد فييلّلو عقداً لتزويد سلاح الجو الايراني بتسع وثلاثين طائرة مقاتلة من طراز ف ـ ٤ إي.

نيسان:

يقوم مايكل ليدين، أحد مستشاري لجنة الأمن القومي، بزيارة اسرائيل لبحث امكانية قيام اسرائيل بالمساعدة في صفقة اسلحة ـ مقابل ـ الرهائن.

أيار:

فورمارك وخاشقجي يلتقيان غوربانيفار في هامبورغ لبحث صفقة أسلحة ـ مقابل ـ الرهائن.

١٧ أيار:

مذكرة لوكالة المخابرات المركزية توصي بتخفيف القيود الدولية على مبيعات السلاح لايران، يعارضها كاسبار واينبرغر، وزير الدفاع.

حزيران:

مقتل وليام بكلي أثناء احتجازه مع منظمة الجهاد الاسلامي ولكن وفاته تبقى طي الكتمان حتى تشرين الأول.

١٣ حزيران:

اجتماع آخر في هامبورغ بين فورمارك، غوربانيفار وخاشقجي يحضره هذه المرة سام ايفانز.

١٤ حزيران:

لبنانيان يخطفان طائرة تابعة للخطوط الجوية عبر العالم الأميركية أثناء رحلة بين أثينا وروما، ويجبرانها على التوجه إلى بيروت. مقتل راكب أميركي واحتجاز ١٣ راكباً كرهائن.

٣٠ حزيران:

اطلاق سراح ركّاب الطائرة، بعد محادثات سرية بين مسؤولين اميركيين وايرانيين، وتدخل هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس الشورى آنذاك.

٣ تموز:

دافيد كيمحي، مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية، يجري مباحثات في واشنطن مع روبرت ماكفرلين، مستشار الرئيس ريغان لشؤون الأمن القومي. يقول كيمحي ان ايران متهمة ببدء علاقات سياسية مع الولايات المتحدة. ماكفرلين، يرفع تقريراً حول هذا الموضوع إلى الرئيس ومسؤولين آخرين بعد عدة أيام. خلال مباحثات عديدة جرت خلال هذا الشهر بين الأميركيين والاسرائيليين والايرانيين، يجري بحث مقترحات محددة لمبادلة السلاح بالرهائن.

٨ تموز:

في كلمة أمام جمعية المحامين الأميركيين، يتهم الرئيس ريغان ايران بمسؤوليتها عن الارهاب الدولي، ويقول إن أميركا لن تقدم أية تنازلات للارهاب.

آب:

يقول وليام فون راب، مفوض الجمارك الأميركية، ان سايروس هاشمي هو واحد من أكبر عشرة تجار سلاح مطلوبين للعدالة.

٦ آب:

الرئيس ريغان يوافق شفهياً على تزويد ايران بأسلحة أميركية عبر اسرائيل.

٣٠ آب:

شحنة اسلحة اميركية تتضمن ١٠٠ صاروخ تاو، تغادر اسرائيل في طريقها إلى ايران. التمويل أمّنه خاشقجي الذي قيل انه اقترض قسماً من المبلغ من 'تايني' رولاند.

١٣ أيلول:

٤٠٨ صاروخ تاو أخرى ترسل من اسرائيل إلى ايران.

١٥ أيلول:

اطلاق سلاح القس بنجامين وير، أحد الرهائن الأميركيين، الأميركيون يعتقدون ان

هذا الأمر هو نتيجة مباشرة لشحنات السلاح، وان مزيداً من الرهائن سيخلى سبيلهم في وقت قصير.

تشرين الأول:

سام ايفانز يخبرني عن صفقات هاشمي، ويسألني كي أقدم عرض أسعار لما هو متوفر لديّ. اطلع سام على أمر ١٥ طائرة من طراز ف ـ ٤ إي يحاول سلاح الجو المصري التخلص منها.

٧ تشرين الأول:

فدائيون فلسطينيون يخطفون السفينة الايطالية اشيل لورو. مقتل أحد ركابها الأميركيين.

١٠ تشرين الأول:

العقيد اوليفر نورث يساعد في اعداد خطة اعتراض الطائرة المصرية التي تقل الخاطفين، وإجبارها على الهبوط في صقلية.

تشرين الثاني:

سايروس هاشمي يعقد اتفاقاً مع ادارة الجمارك الاميركية، يقضي بإسقاط الاتهامات ضده مقابل اشتراكه في عملية المكيدة.

١٤ تشرين الثاني:

العقيد نورث يلتقي تيري ويت، المبعوث الخاص لأسقف كانتربري، في لندن.

٢٣ تشرين الثاني:

يتم شحن ١٨ صاروخ هوك من أصل ٨٠، إلى ايران. لا يفرج عن أي من الرهائن، وفي شباط التالي، تعاد معظم الصواريخ على انها لا تلائم الأغراض الايرانية.

٣٠ تشرين الثاني:

رجل الأعمال ريتشارد برينيكه، أحد شركاء جون دو لا روك، يكتب الأولى من عدة مذكرات موجهة لنائب الرئيس بوش ومسؤولين آخرين، عن محاولات فردية لبيع السلاح من ايران.

كانون الأول:

بعد اتصال من رجل اسرائيلي في لندن، أسافر إلى زيوريخ للقاء سام هكت، تاجر سلاح اسرائيلي، مهتم بشراء طائرات ف ـ ٤ إي المصرية لصالح ايران.

٣ كانون الأول:

يجتمع هاشمي وايفانز وفييلّلو ودو لا روك في فندق رافاييل في باريس. هاشمي يخفي بين ثيابه جهاز تسجيل.

٤ كانون الأول:

الرئيس ريغان يعلن استقالة روبرت ماكفرلين، ابتداء من كانون الثاني وتعيين الأميرال جون بوينت دكستر في مكانه كمستشار لشؤون الأمن القومي.

٥ كانون الأول:

الرئيس ريغان يوقع وثيقة سرية تصرح ببيع السلاح من ايران. ورد هذا في إفادة بوينت دكستر أمام الكونغرس في العام ١٩٨٧.

٩ كانون الأول:

أول مكالمة هاتفية بين سام ايفانز وهاشمي يتم تسجيلها.

٢٧ كانون الأول:

انفجارات في مطاري روما وفيينا تقتل عشرين شخصاً.

٣١ كانون الأول:

في مكالمة هاتفية تم تسجيلها، يقول برنارد فيللو لهاشمي بأن بوش، نائب الرئيس، على وشك منح موافقة الولايات المتحدة على الصفقة التي يعملون لتحقيقها.

١٩٨٦

١ كانون الثاني:

في مذكرة جديدة، يؤكد برينيكه بأن بوينت دكستر منح الموافقة على بيع ١٠ آلاف صاروخ من ايران.

٦ كانون الثاني:

الرئيس ريغان يوقع «وثيقة نتائج تحقيق» تصرح بشحن أسلحة اميركية من اسرائيل لايران.

٧ كانون الثاني:

اجتماع آخر يعقد في فندق رافاييل في باريس ويحضره هذه المرة عميلان لادارة الجمارك الأميركية بإدعاء أنهما مستشاران لهاشمي، ويعلن فيلّلو أثناء الاجتماع ان الصفقة المقترحة على وشك ان تنال موافقة نائب الرئيس الأميركي بوش.

١١ كانون الثاني:

فيلّلو يخبر سام وهاشمي بأنه لم يعد الآن قادراً على تأمين أكثر من ١٣ طائرة ف ـ ٤ إي من أصل ٣٩ كان وعد بها سابقاً، ويتحدث عن امكانية الحصول على شهادة اثبات هوية المشتري من احدى دول أميركا اللاتينية.

١٤ كانون الثاني:

احضر فاتورة لهاشمي بخمس عشرة طائرة من طراز ف ـ ٤ إي مع قطع غيار وكلفة الشحن تبلغ قيمتها الاجمالية ٢٥٣,٦ مليون دولار.

١٧ كانون الثاني:

يوقع الرئيس ريغان وثيقة «نتائج تحقيق» أخرى تصرح هذه المرة ببيع السلاح لايران مباشرة من اميركا.

٥ شباط:

اجتماع بين وفدين اميركي وايراني في فرانكفورت، يحضره نورث وغوربانيفار.

٦ شباط:

يتصل بي هاشمي مجدداً حول موضوع اثبات وجود التمويل، ومع استمرار الموضوع دون حل، ينقطع اتصالنا حتى نيسان.

٧ شباط:

سام ايفانز يخبر هاشمي بأن واشنطن أعطت الضوء الأخضر للصفقة رغم معارضة جورج شولتز لها، ويقول ان نائب الرئيس بوش يؤيدها.

١٣ شباط:

١٠٠٠ صاروخ تاو ترسل من الولايات المتحدة لايران عبر اسرائيل، كجزء من صفقة نورث حول الرهائن.

٢٤ شباط:

اجتماع آخر في فرانكفورت بين مسؤولين أميركيين وايرانيين.

٢٦ شباط:

سام ايفانز يذهب إلى نيويورك لمقابلة هاشمي.

٨ آذار:

يجتمع نورث وغوربانيفار في باريس، ولكن اطلاق سراح الرهائن المؤمل لا يتم.

١٠ آذار:

يذهب ايفانز ونيكوس ميناردوس إلى القدس لمقابلة اسرائيل وغوري ايزنبرغ ومسؤولين اسرائيليين.

نيسان:

يتصل خاشقجي بـ **تايني رولاند،** المدير التنفيذي لشركة لورنهو، لطلب المساعدة في تمويل بعض صفقات نورث/غوربانيفار، ويجري ابلاغ رولاند بأنهما مخولان بإجراء

الصفقات من قبل الحكومة الاميركية، فيتصل هو بتشارلز برايس سفير الولايات المتحدة في لندن للتأكد من الموضوع.

١٣ نيسان:

يلتقي سام بالمجموعة الاسرائيلية التي تتعامل مع هاشمي لوضع اللمسات النهائية على الصفقة.

١٤ نيسان:

أزور مارابيلاّ لمتابعة صفقة صواريخ ميلان لايران.

١٥ نيسان:

القاذفات الاميركية تقصف ليبيا عقاباً لها على تورطها المزعوم بحادث انفجار في ملهى في المانيا في وقت سابق من ذلك الشهر، **ويُقتل** أحد الرهائن الأميركيين في بيروت، بيتر كيلبورن ثأراً للغارة.

١٧ نيسان:

أتلقى، عند عودتي من اسبانيا، أول اتصال من هاشمي منذ شهرين. يطلب مني أن أسافر إلى نيويورك في أسرع وقت ممكن، لأتسلم دفعة نقدية بقيمة ثمن واحد من أجهزة فاريون، ويقول انني إذا لم أذهب خلال بضعة أيام فسيعاد تحويل النقود إلى ايران.

٢١ نيسان:

أطير إلى نيويورك حيث ألتقي هاشمي، ثم يلقى القبض عليَّ من قبل دائرة الجمارك الأميركية، وأتهم بالاحتيال بواسطة البريد والهاتف، وبالتآمر لخرق الحظر المفروض على مبيعات السلاح لايران والحصول على شهادات مزورة لاثبات هوية المشتري. يتم القاء القبض على أربعة متهمين آخرين، كل بمفرده، في نيويورك.

٢٢ نيسان:

احتجاز سام ايفانز والمجموعة الاسرائيلية في برمودا. وليام فون راب مفوض ادارة الجمارك الأميركية يصف المتهمين بأنهم 'سماسرة الموت'.

٢٣ أيار:

يطير روبرت ماكفرلين، المستشار السابق للرئيس الأميركي لشؤون الأمن القومي، إلى طهران مع نورث وآخرين في طائرة تحمل أيضاً قطع غيار لصواريخ هوك ـ يجري مباحثات مع مسؤولين ايرانيين، ولكن أحداً من الرهائن لا يطلق سراحه.

٢٩ أيار:

سام ايفانز والمجموعة الاسرائيلية ينضمون إلى البقية منا في المركز الاصلاحي.

حزيران:

يطلق سراح سام ايفانز بكفالة قيمتها ٤,٥ مليون دولار. يتم اطلاق سراح متهمين آخرين في الأسابيع التالية عند تأمين الكفالات.

٢١ تموز:

وفاة سايروس هاشمي في لندن. التشريح يفيد ان سبب الوفاة حالة من اللوكيميا (سرطان الدم) الحادة.

٢٦ تموز:

اطلاق سراح الكاهن لورانس جنكو، الرئيس السابق لبعثة الاغاثة الكاثوليكية في بيروت، بعد احتجاز دام ١٨ شهراً. يدّعي نورث وبوينت دكستر ان هذا الأمر هو نتيجة مباشرة لزيارة ماكفرلين لايران في أيار.

٣ آب:

تسليم قطع غيار لصواريخ هوك من اسرائيل لايران.

٧ تشرين الأول:

روي فورمارك يزور وليام كاسي بناء على طنب خاشقجي ليخبره بأن خاشقجي يجد صعوبة في الحصول على دفعات نقدية من ايران مقابل شحنات الأسلحة.

٢٩ تشرين الأول:

شحنة جديدة مكونة من ٥٠٠ صاروخ تاو، ترسل من اسرائيل إلى ايران. بناء على تفاهم باطلاق سراح ثلاثة رهائن.

٣٠ تشرين الأول:

اخلاء سبيلي بكفالة قيمتها ٥٢٥٠٠ دولاراً. أقيم في وست بورت ـ كونكتيكت، وأخطط للهرب من الولايات المتحدة.

٢ تشرين الثاني:

اطلاق سراح واحد من الرهائن، دافيد جاكوبسن، على أثر آخر شحنة سلاح.

٣ تشرين الثاني:

أول تقرير صحفي في بيروت (مجلة الشراع) عن رحلة ماكفرلين إلى طهران، وعن صفقات نورث لتزويد ايران بالسلاح.

٥ تشرين الثاني:

تصل قصة أسلحة ـ مقابل ـ الرهائن إلى الصحف الأميركية، يطلق عليها اسم ايران ـ غيت.

١٣ تشرين الثاني:

يعترف الرئيس ريغان على شاشات التلفزيون بأن شحنات صغيرة من الأسلحة الدفاعية وقطع الغيار وصلت لايران من الولايات المتحدة.

١٧ تشرين الثاني:

المدعية العامة، لورنا سكوفيلد، تعلن ان القضية ضدنا ستستمر بالرغم من فضيحة ايران ـ غيت.

٢١ تشرين الثاني:

يتصاعد خطر كشف تفاصيل جديدة عن صفقات السلاح لايران، فيقوم نورث وسكرتيرته فون هال باتلاف وثائق تتعلق بالقضية.

٢٥ تشرين الثاني:

الكشف عن تحويل الأرباح المحققة من مبيعات السلاح لايران، لمساعدة ثوار الكونترا في نيكاراغوا. الأميرال بوينت دكستر يستقيل من منصبه كمستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي، ويعفى نورث من منصبه في مجلس الامن القومي. اسرائيل تعترف بدورها في عملية تزويد ايران بالسلاح.

٢٦ تشرين الثاني:

تعيين لجنة تاور للنظر في قضية ايران/الكونترا.

١٠ كانون الأول:

القاضي المحلي، روبرت فايننغ، يوصي باطلاق سراح ليمويل ستيفنس الفوري. وكان هو قد حكمه بالسجن في دالاس في العام ١٩٨٥، بسبب صفقات أسلحة لايران. وكانت حجة فايننغ ان الحكومة الأميركية تقوم بنفس العمل.

١٥ كانون الأول:

وليام كاسي، مدير وكالة الاستخبارات المركزية، يدخل المستشفى للمعالجة من سرطان في الدماغ، قبل يوم واحد من موعد ادلائه بشهادته أمام لجنة من مجلس الشيوخ.

١٩ كانون الأول:

تعيين لورانس والش، كمستشار حيادي لتمثيل الادعاء في كل القضايا المتفرعة من قضية ايران/كونترا، ولكنه يعتذر عن ضم قضيتنا إلى ملفه.

١٢ كانون الثاني:

تيري ويت، المبعوث الخاص لأسقف كانتربري، يطير إلى بيروت لبحث موضوع اطلاق الرهائن، ولكنه يخطف هو أيضاً.

٢ شباط:

وليام كاسي يستقيل من منصبه كمدير لوكالة الاستخبارات المركزية.

٩ شباط:

روبرت ماكفرلين، يتناول جرعة مضاعفة من الفاليوم، في محاولة واضحة للانتحار، عشية موعد مثوله أمام لجنة تاور.

١٨ شباط:

أخيراً اتسلم جواز سفري ويسمح لي بالعودة إلى لندن.

٢٧ شباط:

استقالة دونالد ريغان، كبير موظفي البيت الأبيض ويخلفه هوارد بيكر.

١٤ آذار:

الرئيس ريغان، في حديث اذاعي، يعلن انه كان يجب ان يصغي لتحذيرات شولتز وواينبرغر بعدم الموافقة على مبيعات السلاح لايران.

أيار:

تبدأ جلسات الكونغرس المخصصة للتحقيق في قضية ايران/كونترا. وليام كاسي يفارق الحياة بسبب المرض.

٧ تموز:

العقيد نورث يبدأ شهادته أمام لجنة من الكونغرس في واشنطن.

٢٥ تموز:

بوينت دكستر يقول أمام لجنة الكونغرس بأن «سياستنا لم تكن حظراً للسلاح ضد ايران».

آب:

القاضي ساند يسقط كل الاتهامات المتعلقة بالاحتيال، ويبقي أربعة تهم بالتآمر للحصول على شهادات مزورة لاثبات هوية المشتري. يستأنف الادعاء ضد القرار. تأجيل موعد محاكمتنا حتى كانون الثاني ١٩٨٨ على أقرب تقدير.

المحتويات

صفحة

دار النعمة للطباعة

الرملة البيضاء ـ شارع اديسون

تلفون : ٨٠٢٢٤٦ ـ بيروت، لبنان

تجّار السلاح وسماسرة الموت
في فضيحة «ايران غيت»

■ هيرمان مولّ: تاجر سلاح من المانيا الغربيّة، يقيم في لندن. تقدّم بعروض لبيع الأسلحة والعتاد الحربي والمعدّات العسكريّة، ليجد نفسه فجأة وسط معمعان من المكائد والمؤامرات والمزايدات.

■ استدرجته السلطات الأميركيّة إلى نيويورك بحجّة إبرام صفقة ضخمة لبيع الطائرات والصواريخ والقذائف لوسطاء قالوا إنهم يعملون لصالح ايران ويبتاعون لحسابها.

■ بعد إلقاء القبض عليه واحتجازه في السجن لعشرة أشهر، وتوجيه التهمة إلى السمسار ورفاقه، ظهرت فضيحة «ايران ـ غيت» بأبعادها الأميركيّة والاسرائيليّة إلى حيّز الوجود!

■ يروي هيرمان مولّ في هذا الكتاب قصّة «الفضيحة» التي بدأت «صفقة»، واهتزّت لها الادارة الاميركيّة إثر الكشف عن خفاياها وملابساتها، وافتضاح أمر المتورّطين فيها.

■ يسلّط «سمسار الموت» الضوء على الدور الاسرائيلي في صفقات بيع الأسلحة، ويفضح التنسيق والتعاون الخفيّ بين الأجهزة الأميركيّة وتجار السلاح التابعين للموساد.